

مكتبة

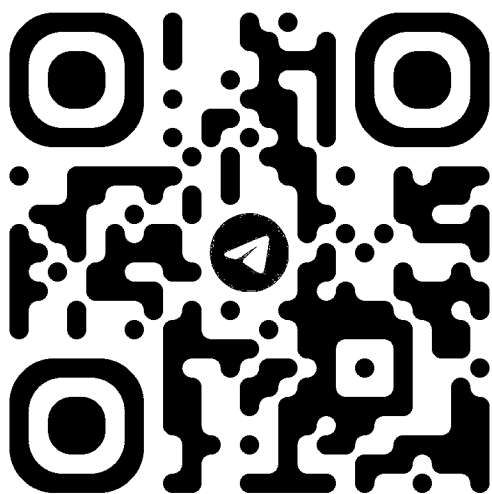
جياكير سينويه

العصر الذهبي للحضارة العربية

ترجمة

دعاء نورنو

منشورات الجمل



سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

جيلبير سينويه: العصر الذهبي للحضارة العربية

جيلبير سينويه: روائي فرنسي ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر ثم أكمل دراسته الموسيقية بباريس حيث تحصل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل: ابن سينا أو الطريق الى أصفهان، رواية (١٩٩٩)؛ المصرية، رواية (٢٠٠٥)؛ ابنة النيل، رواية (٢٠٠٧)؛ اللوح الأزرق، رواية (٢٠٠٨)؛ أخناتون - الإله اللعين، رواية (٢٠١١)؛ الفرعون الأخير، رواية (٢٠١٢)؛ أنا، يسوع، رواية (٢٠١٢)؛ يريفان، رواية (٢٠١٢)؛ صمت الآلهة، رواية (٢٠١٥)؛ البكباشي والملك . الطفل، رواية (٢٠١٥)؛ الملكة المصلوبة، رواية (٢٠١٦)؛ أريج الياسمين، رواية (٢٠١٦)؛ صرخة الحجارة، رواية (٢٠١٦)؛ دلمون: مملكة ببحرين، رواية (٢٠١٨)؛ أنا القدس، رواية (٢٠١٩)؛ ابن رشد أو كاتب الشيطان، رواية (٢٠٢٠)؛ الصقر، رواية (٢٠٢٠)؛ أيام وليال، رواية (٢٠٢١)؛ ترابيع القمر الخمسة، رواية (٢٠٢١)؛ أمل، رواية (٢٠٢٢)، جزيرة الغروب، رواية (٢٠٢٢)؛ منقار البط، رواية (٢٠٢٤).

جيلبير سينويه: العصر الذهبي للحضارة العربية

ترجمة: دعاء نونو، تحرير: رضوى زكي

Gilbert Sinoué: L'âge d'or de la civilisation arabe

© Librairie Arthème Fayard, 2025.

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية

محفوظة لمنشورات الجمل، الشارقة - بغداد ٢٠٢٥

ص.ب.: ٨٠٠٣٣ - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

© Al-Kamel Verlag 2025

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

جيلبير سينويه

مكتبة

t.me/soramnqraa

العصر الذهبي للحضارة العربية

ترجمة

دعاء نونو

تحرير

رضوى زكي

منشورات الجمل

شكر وتقدير

أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي في دولة الإمارات العربية المتحدة، بقيادة معالي محمد خليفة المبارك، على دعمهم المتواصل لإخراج هذا العمل بأفضل صورة ممكنة. كما أخص بالشكر السيدة ريتا عون وفريقها في قطاع الثقافة على جهودهم الحثيثة ومساندتهم القيّمة. فلولا هذا الدعم لما كان لهذا الكتاب أن يرى النور. ولا يفوتني أن أعبر عن امتناني وتقديري لكل من الدكتورة دعاء نونو والدكتورة رضوى زكي على جهدهما في إخراج هذا العمل.

مقدمة المترجم مكتبة

t.me/soramnqraa

الحقيقة أن هناك الكثير من الكتب الأجنبية المعنية بالعالم العربي والإسلامي، قديمًا وحديثًا، تصدر سنويًا في مختلف الجوانب، وتحظى برواج بين الجماهير، نظرًا لتلبيتها الحاجة إلى معرفة هذا العالم بكل أحداثه وتداعياته. وقد تباينت هذه المؤلفات في رؤيتها للحضارة العربية والإسلامية وما قدمته للبشرية. أما الكتاب الذي بين أيدينا، فليس كتابًا أنطولوجيًا بالمعنى التقليدي، لكنه يقدم تحليلًا شاملًا للحضارة العربية، وتطور المجتمعات، والإسهامات الثقافية والفكرية للحضارة العربية الإسلامية، من خلال مجموعة مقالات تستعرض الفلسفة، والعلوم، والأدب، والفكر السياسي في العالم العربي الإسلامي خلال عصره الذهبي.

يحاول مؤلف الكتاب، جيلبير سينويه، أن يضع العالم العربي والإسلامي في أوج تألقه في متناول القارئ الفرنسي والغربي عمومًا، لذا فهو يقدم استشهادات من النصوص العربية، والأحداث التاريخية، وبعض المعتقدات، بهدف استعادة الذاكرة التاريخية، ودحض السرديات المجتزأة التي تهمش الإرث العربي الإسلامي، وإعادة الاعتبار لحلقة جوهريّة في مسار الحضارة الإنسانية.

ورغم إمكانية التساؤل حول مقدار الإضافة التي قد تقدمها ترجمة هذا الكتاب للقارئ العربي، خاصةً أن المعلومات المطروحة تكاد تكون

في متناول يده، إلا أن الترجمة تتيح له الاطلاع على صورة الحضارة العربية والإسلامية في الثقافة الغربية، من خلال الأساليب التي يعرضها الكتاب في توضيح الاتهامات والإخفاقات التي طالت هذه الحضارة. ومن المؤمل أن يساعد ذلك الباحثين في الدراسات المقارنة، كما قد يلفت الانتباه إلى أهمية ترجمة التراث العربي والإسلامي إلى اللغات الأخرى، وإتاحته للقارئ الغربي مباشرة دون وسيط أو مرجع ثانوي.

وجاءت ترجمة هذا الكتاب للقارئ العربي لتمكينه من التعرف على كيفية تلقي الآخرين لثقافته عند انتقالها إلى بيئات مختلفة، مما يكشف عن طرق قراءة التراث العربي والإسلامي، وأساليب التعامل معه، في ظل وجود عوامل ثقافية أخرى تركت أثرها في تلقي الغرب للإسلام والعرب.

وقد حرصت الترجمة على تقديم النص كما هو، مع محاولة إضافة بعض المعلومات في الهوامش عند الضرورة، كما كان هناك اهتمام بإيراد الآيات القرآنية مباشرة، وكذلك النصوص الشعرية وبعض الاقتباسات من مصادرها الأصلية، مع الحفاظ على دقة النص. وبالله التوفيق.

دعاء نونو

حضارة المسلمين، أم الحضارة الإسلامية، أم الحضارة العربية؟

بعد تفكير عميق، قررنا اعتماد التعريف الثالث -الحضارة العربية- لتوصيف أرباب العلم والثقافة في دولة الخلافة الإسلامية، حيث تبين لنا أن استخدام لفظ «المسلمين» وحده لا يعكس الصورة الحقيقية لأرباب العلم والثقافة في أرجاء دولة الخلافة الإسلامية الذين أسهموا في ازدهار الفكر والمعرفة آنذاك. لم يكن جميع العلماء في تلك الفترة من المسلمين، كما أن العرب أنفسهم لم يكونوا جميعهم مسلمين، فمن بين هؤلاء العلماء برزت شخصيات من خلفيات دينية حالية وسابقة، مثل المسيحيين، واليهود، والمجوس (أو الزرادشتيين)، والصابئة، وهم طائفة ذات جذور يهودية-مسيحية ذكرت في القرآن الكريم. على سبيل المثال، نجد أن علماء بارزين أمثال الكندي (٨٠١-٨٧٣م)، الفارابي (٨٧٢-٩٥٠م)، وابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م)، وهم من أعمدة الثقافة الإسلامية، ورغم أن جميعهم كانوا مسلمين ولكن كانوا ينتمون إلى أصول مختلفة؛ فأحدهم عربي، وآخر تركي، وثالث فارسي. ومن المهم الإشارة إلى أن نسبة تُقدر كبيرة من المسلمين الحاليين، والذين يبلغ عددهم حوالي مليار ونصف مسلم، ليسوا من أصول عربية.

أما بالنسبة لتعريف الحضارة باستخدام مصطلح «الإسلامية» فهو يشير

تحديدًا إلى الإطار الثقافي الذي نمت فيه تلك المعارف والحضارة، ولكن هذا الإطار يختلف من منطقة إلى أخرى، ومن دولة إلى أخرى. لذلك، وجدنا أن مصطلح «الحضارة العربية» هو الأنسب والأدق. فهو يشير إلى أن المناطق التي ازدهرت فيها تلك المعارف التي تجمعها قواسم مشتركة وهي اللغة العربية، لغة العلوم التي تبادلها العرب مع الفرس والأتراك واليهود وكذلك الإسبان. كانت اللغة العربية هي لسان الترجمة وأداة نقل المعارف من العصور القديمة في بلاد الشرق، ومن العالم الإسلامي إلى العصور الوسطى في بلاد الغرب. علاوة على ذلك، فإن اللغة العربية هي لغة الوحي التي أنزل بها الدين الإسلامي الحنيف، ودُوِّن بها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

المقدمة

قد نتفاجأ حقًا بكون هذه المقتطفات تبدأ بإشادة بشخصية من القرن العشرين، وهو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة. وقد تبدو هذه الدهشة مشروعة، خاصة أن هذا الكتاب يتناول مآثر جرت في قرون ماضية.

لكن هذه الإشادة بدت لنا ضرورية عند البدء في العمل على هذا المشروع؛ فقد كان الشيخ زايد -رحمه الله- من بين الحكام العرب الذين كرسوا حياتهم لمتابعة المآثر التي بدأها القدماء. قبل توليه الحكم في السادس من أغسطس عام ١٩٦٦م، كانت البلاد عبارة عن مجرد تجمعات سكنية بسيطة، فلم تكن هناك سوى طرق قليلة، ومستشفى واحد فقط في أبو ظبي تقع في واحة العين (أنشأها الشيخ زايد عام ١٩٦٠)، وعدد محدود من المدارس. وخلال مقابلة أجراها الشيخ زايد مع الصحفي المصري وجيه أبو ذكري في أواخر ستينيات القرن الماضي، فقد أعرب الشيخ زايد عن رغبته، بعد زيارة قام بها إلى باريس، في إنشاء بنية تحتية، وخدمات صحية، ومتاحف في أبو ظبي تضيي ما رآه في العاصمة الفرنسية؛ مما يعكس رؤيته المستقبلية الثاقبة.

وعند وفاته بعد أربعين عامًا من حكمه، في الثاني من نوفمبر ٢٠٠٤، ترك الشيخ زايد دولة نهضت حرفيًا من رمال الصحراء. لم يكن

الوحيد في هذا المجال، ولكن ما يميّزه عن غيره هو نجاحه في تحقيق المعادلة الصعبة؛ حيث دمج العدالة الاجتماعية مع رفاهية العيش، وساد التسامح الديني مع التمسك بقيم الدين الحنيف. بالإضافة إلى ذلك، أنشئت مئات المدارس للبنين والبنات وهي التي لم تكن موجودة قبل توليه الحكم، وكذلك العديد من الجامعات التي تنافس بعضها على أفضل المستويات عالميًا، فضلاً عن وفرة المستشفيات والمراكز الطبية.

كان الشيخ زايد مهتمًا بالفصائل الحيوانية النادرة، حيث أصدر قرارات صارمة بمنع الصيد بالبنادق لحماية الأنواع المهددة بالانقراض. في السبعينيات، وخلال رحلة إلى باكستان، اتخذ قرارًا حاسمًا بنقل أكثر من مائة غزال من فصيلة الشنكاراة إلى الإمارات، بعدما لاحظ أن هذه الفصيلة قد أوشكت على الانقراض. وباعتباره خبير بالطبيعة وبيئة الصحراء، أنشأ في واحة العين مزارع صديقة للبيئة، وقام بتحديث نظم الريّ من خلال إصلاح وحفر عدد كبير من الأفلاج، وهي شبكة من الأنابيب الجوفية التي تُستخدم لنقل المياه بشكل مستدام. كما دعا ملاك الأراضي إلى توزيع المياه بشكل عادل لضمان استفادة الجميع. في عهده أيضًا زُرعت آلاف الأشجار، ما أسهم في الحفاظ على بيئة طبيعية متوازنة. علاوة على ذلك، مستعيناً بزوجته، الشيخة فاطمة بنت مبارك، رفع مكانة المرأة في المجتمع الإماراتي، ووضعها على قدم المساواة مع الرجال. كانت هذه الطفرة الاجتماعية خطوة طموحة وغير مسبقة في تلك الحقبة، مقارنة بالعديد من الدول التي لم تمنح المرأة مكانتها المستحقة. حظيت الشيخة فاطمة بتكريم دولي تقديرًا لما أنجزته من أعمال بارزة في مجالات التنمية الاجتماعية والإنسانية، ومن بينها العديد من منظمات الأمم المتحدة مثل منظمة الأمم المتحدة لرعاية الطفولة

(اليونسف) ومنظمة الصحة العالمية. وفي عام ٢٠٠٧، قُلِّدت ميدالية ماري كوري من قِبل منظمة اليونسكو، تكريمًا لدورها الرائد وإسهاماتها المتميزة.

لطالما كانت الحضارة الإسلامية مصدر إلهام للعديد من المعالم المعمارية البارزة التي تركت أثرها العميق في تاريخ العمارة في العالم. ومع ذلك، شهدت الإبداعات الجوهريّة في العمارة الإسلامية تراجعًا ملحوظًا مع نهاية القرن الثامن عشر. ورغم ذلك، لم تتوقف عجلة الإبداع؛ فقد أضاف الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بعدًا جديدًا للعمارة الإسلامية المعاصرة عندما أمر في عام ١٩٩٥ ببناء جامع الشيخ زايد في إمارة أبو ظبي، ليكون تحفة فنية تجمع بين عراقة الإرث الإسلامي وحدثاته اللمسات المعمارية الحديثة. يمثل مسجد الشيخ زايد تحفة معمارية تمزج بين الأصالة والحداثة، ويعكس روح العمارة الإسلامية بتناغم فريد يجمع بين إرث الماضي ورؤية الحاضر. يختلف المسجد عن غالبية المساجد التقليدية التي تستوحي تصميمها من الأنماط الكلاسيكية، إذ يقدم طرازًا مبتكرًا مستقلًا بذاته يعبر عن عبقرية التصميم وروعة التنفيذ. يُعد المسجد تحفة فنية ومعمارية جديرة بأن تُقارن بأجمل آثار العصر الذهبي للعمارة العربية والإسلامية.

إن استحضار ذكر هذه الشخصية العظيمة، رغم ما قد يبدو أنه مفارقة تاريخية، ينبع من الإيمان بأن بصمة الإنسان تبقى خالدة وإن غاب صاحبها. فالعصر الذهبي يمكن أن يولد من جديد ويزدهر مرة أخرى، متى توفرت الإرادة لذلك. وأنه يقع على عاتق الشباب العربي أن يستعيد الرغبة والقدرة على حمل مشعل الحضارة الذي تركه لهم أسلافهم عبر إرثهم المشهود. وأن يدركوا أن خط الدفاع الأقوى ضد التعصب يكمن في حرية الفكر، والتعليم، والانفتاح على الآخر. كما ينبغي أن يتذكروا

أن الخيال الخصب لا ينبع إلا من ذاكرة حية، وأن النجاح لا يتحقق إلا عندما نجعل من الماضي شريكًا وحليفًا، لا خصمًا.

كما يذكرنا المؤرخ الفرنسي باتريك ريبو^(١): بينما تستقر في أذهان الكثيرين نزعة لربط كل ما هو عربي بالدين الإسلامي، فإن هذا الربط غالبًا ما يُختزل في تصورات نمطية، في أفضل أحوالها، تعد تعبيرًا عن اللاعقلانية والافتقار إلى المنطق، وفي أسوأها ترتبط بالتطرف الديني، والتعصب، والأصولية. لكن التخلص من هذه التصورات غير المنصفة لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال استحضار ما قدمته الحضارة العربية-الإسلامية للبشرية في مجالي العلوم الفيزيائية والإنسانية بين القرنين الثامن والثالث عشر الميلاديين ففي تلك الحقبة، ظهر علماء ومفكرون بارزون بين العرب، لم يكتفوا بنقل وترجمة إرث المعرفة السابق على وجودهم، بل أضفوا بصمتهم الخاصة، فدحضوا بعض الأفكار النقليّة، وأعادوا بناء أساليب ومفاهيم معرفية جديدة تتماشى مع احتياجات مجتمعاتهم. وفضلاً عن ذلك، أظهر العرب دراية عميقة بثقافات الدول التي دخلوها فاتحين، فهضموا معارفها، ونقحوها، وأضافوا إليها إسهاماتهم، ما جعلهم مفكرين من الطراز الرفيع وعلماء تركوا بصمة خالدة في تاريخ المعرفة الإنسانية.

لتكن هذه «الوقفات التاريخية»، في هذا الزمن المتسارعة وتيرته، وكأنها زجاجة أُلقيت في البحر تحمل بداخلها رسالة أمل وإلهام. لعلها تصل إلى القارئ الغربي الذي سيعثر عليها، فيستلهم منها قسماً من روح الحضارة العربية-الإسلامية. لكن الهدف الأهم أن تذكّر القارئ العربي الشاب بروح الانفتاح والإبداع التي ميزت أجداده العرب، الذين كانوا

[المعارف في *Les savoirs à l'âge d'or de la civilisation arabo-musulmane* (1) La Pensée, 2015. العصر الذهبي للحضارة العربية-الإسلامية]

مختلفين عن فئة من الناس في عصرنا الحالي متشبثون بمطالعة الزمن عبر ساعات الماضي المتوقفة.

نظرة على بلاد العرب قبل الإسلام

«يبدو لي الإسلام كنظام أراد، في وقت أصيب فيه العالم بالوهن، أن يعيد إليه شبابه».

چاك بيرك، الإسلام في مواجهة التحدي^(١)

النسمات الأولى

يمتلئ التاريخ البشري بالملاحم الجماعية التي فقدت الذاكرة البشرية آثارها، ويسعى المؤرخون لإعادة بنائها من خلال عمل دؤوب ربما يستغرق وقتًا طويلاً جداً لنستخلص الدروس المستفادة من هذه الملاحم قبل أن نعيد أمجاد الماضي. هل يرجع ذلك إلى بساطة هذه الدروس؟ تخيل في أحد الصباحات، في مكان ما في العالم، تظهر صورة غامضة، وكأنها روح خرجت من قصص الخيال، تنفخ على قطعة من الأرض بقوة كافية لإثارة دوامة، ومن هذه الدوامة تنبثق الأنهار والنباتات والغابات، ولا يبقى للبشر سوى أن يسكنوا هذه الأرض الواعدة. ثم يأتي الشعراء والعازفين ليخففوا ليايلهم. هكذا كانت الملاحم، ورغم غرابتها، تمثل إنجازات القبائل التي هبطت من الهضاب الشرقية العليا

(1) Jacques Berque. *L'Islam au défi* [الإسلام في مواجهة التحدي] Paris, Gallimard, 1980, p. 312.

منذ نحو تسعة آلاف سنة قبل الميلاد، متجهة نحو السهول التي ستصبح قارة أوروبا. كانت تلك القبائل كالجحافل الجائعة، تعيش على ما يمكنها اصطياؤه من حيوانات صالحة للأكل أو ما تزرعه من نباتات وفواكه. ورغم معرفتهم بالنار، كانوا يجهلون استخدام المعادن. غرسوا البذور بصبر، منتظرين نموها، واستقروا في بقاع ستصبح يوماً ما ملاذاً آمناً، حيث سيلعب الأطفال بسلام بعد آلاف السنين.

تداولت العديد من الأساطير، مثل أسطورة أنثى الذئب التي أرضعت الطفلين التوأمين اليتيمين رومولوس وريموس، اللذين أسسا مدينة روما عاصمة إيطالية ومقر الإمبراطورية الرومانية بعد أن بلغا سن الرشد وحكماها في القرن الثامن قبل الميلاد. ولكن الواقع التاريخي أكثر إثارة من هذه الأساطير والقصص الخيالية. وهذا ينطبق أيضاً على تاريخ الحضارة الإسلامية، التي شهدت إنجازات حقيقية أثرت بشكل إيجابي ملموس في العالم. بدأت تلك الحضارة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، عندما بدأ رجل في مكة، في قلب صحراء الجزيرة العربية، يعلن دعوته. آمن برسالته بعض أهل مكة، بينما أصر آخرون على رفض دعوته وتمسكوا بعبادة آلهتهم الوثنية.

هذا الرجل هو نبي الله وآخر رُسله محمد صلى الله عليه وسلم.

كيف كانت مكة قبل مولده في القرن السابع الميلادي؟

كان سكان شبه الجزيرة العربية موزعين جغرافياً بين الشمال والوسط والجنوب. عرفت تلك الفترة في التاريخ الإسلامي بالجاهلية، وارتبطت بمظاهر البطولة والصراعات القبلية، إضافة إلى هيمنة العرف القبلي. سياسياً وعسكرياً، كانت المنطقة تحت تأثير قوتين عظيمتين: الإمبراطورية البيزنطية في الغرب ويسكنها المسيحيين من طائفة الأرثوذكس وعاصمتها القسطنطينية، والإمبراطورية الساسانية في الشرق

(المعروفة أيضًا بالإمبراطورية الفارسية) التي يعتنق أهلها الزرادشتية وعاصمتها المدائن، بالقرب من مدينة بغداد.

إلى جانب تلك القوى العظمى كانت هناك مملكة تُدعى 'أكسوم' تقع في إثيوبيا حاليًا، حيث كان يُطلق على حاكمها لقب 'النجاشي'، أي ملك الملوك. اعتنقت هذه المملكة المسيحية دينًا رسميًا لها في منتصف القرن الرابع الميلادي. في الفترة ما بين ٦١٥ و٦١٦ م، وفي ذلك الوقت لجأ إليها بعض صحابة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم هربًا من اضطهاد كفار مكة لهم. ظلت شبه الجزيرة العربية لفترات طويلة خليطًا من المدن والقبائل، وكانت معظم مناطقها مستقلة سياسيًا. ففي شمال-غرب الجزيرة، على سبيل المثال، استقر مزارعون في بعض المدن مثل يثرب (المدينة المنورة حاليًا)، بينما كانت هناك قبائل أخرى ترحل بين الحين والآخر، تتأرجح حياتهم بين الاستقرار والتنقل. أما البدو فاستقروا في المناطق القابلة للسكن في الصحراء الوسطى، وكانوا يمتنون رعي الأبل والأغنام.

كان الرجال يعبدون أصنامًا وأرواحًا اعتقدوا أنها تسكن في تلك الكتل حجرية المنحوتة بأشكال التماثيل. في ذلك الوقت لم يكن هناك نظام اجتماعي أو ديني أو سياسي موحد يجمع بين ساكني الجزيرة المنتمين إلى خلفيات إثنية متباينة وينظم شؤونهم، فانتشرت بينهم عادات سيئة مثل شرب الخمر والميسر والربا. ورغم التنوع الثقافي والعادات المختلفة، شارك سكان شبه الجزيرة في معتقدين رئيسيين، المعتقد الأول هو سيادة الثقافة الذكورية وتمجيد الرجل على حساب المرأة، ففي ذلك الوقت كان يُنظر إلى ولادة الأنثى كعار كبير في العديد من العائلات والقبائل، وكانت العديد من الفتيات تُؤاد فور ولادتهن، في ممارسات بربرية أنهى الإسلام وجودها بشكل تام ونهائي. أما المعتقد الثاني، فهو الولاء والتعصب للقبيلة، حيث غاب مفهوم الفردية الذاتية السائد في

شمال البحر المتوسط، وكان الانتماء إلى القبيلة هو مقياس القبول والمكانة الاجتماعية للفرد، وبذلك كانت أية إساءة تُوجه إلى أحد أفراد القبيلة تُعتبر إهانة لقبيلته بأكملها.

لا يخفى على أحد اليوم أهمية الكعبة المشرفة كموقع مقدس للمسلمين، لكنها كانت كذلك منذ أزمنة بعيدة قبل ظهور الإسلام، إذ ارتبطت دائماً بوجود بيت الله المعظم. جمّعت حوله القبائل الوثنية أصنامها المختلفة، مثل هُبَل، ومناة، واللات، والعزّى. ورغم ذلك، كان بعضهم يعبد الله الواحد عز وجل على ملة النبي أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، لكنهم ضلوا بمرور الزمن، معتقدين في تقربهم لله من خلال عباده الصالحين الذين صنعوا لهم أصناماً وضعوها بالقرب من الكعبة. واستمر هذا الحال حتى نزل دين الإسلام على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

خلال تلك الفترة حين كان يظهر خلافاً على أمر ما يحتاج لحسم كان العرب من أهل الجزيرة يلجئون لسحب السهام. وليس المقصود بها السهام المستخدمة في الأقواس؛ بل هي سهام دون نصل أو ريش، مدون عليها الخيارات المطروحة للأمر المختلف عليه - وهي في غالب الأمر كانت أما بالنفي أو بالإيجاب. يتوجه الحائرين في أمرهم إلى أهم الأصنام، هُبَل محط تقديس قبيلة «قريش» وهم حينذاك أسياد مكة، مبتهلين له طلباً حسمه للخلاف القائم بينهم. يتم وضع السهام داخل محفظة، ليقوم المسؤول بسحب سهم لتحديد الإجابة الحاسمة.

إلى جانب ذلك كانت الحروب بين القبائل أمراً شائعاً، تُعقد خلالها معاهدات تُنقض سريعاً حسب الظروف. وفي أثناء موعد الحج السنوي، كانت القبائل تلتزم بهدنة تُتيح تبادل السلع والتفاوض على معاهدات جديدة. وفي سوق عكاظ، الواقعة بين مكة والطائف، كان يلتقي كبار

التجار العرب، إلى جانب ممثلين عن ملك الفرس، وإمبراطور بيزنطة، ونجاشي الحبشة.

في خضم هذا المجتمع الذي كان يغلب عليه الجهل، حيث كان مجرد الإلمام بالقراءة والكتابة يُعَبّر عن مكانة مرموقة في المجتمع، تعايشت ثلاث ديانات رئيسية في شبه الجزيرة العربية. كانت اليهودية متمركزة بشكل خاص في يثرب وخيبر، بينما انتشرت المجوسية (الزرادشتية) في مناطق أخرى، والمسيحية في جنوب الجزيرة العربية خاصة في نجران. وعلى أطراف الصحراء، شاع وجود الرهبان المسيحيين الذين عاشوا حياة الزهد والتقشف. وتذكر المصادر التاريخية الإسلامية، أن أحد هؤلاء الرهبان، ويدعى «بحيرا» (ويُعرف أيضًا بالراهب «سيرجيوس» في بعض المصادر)، قد تنبأ للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بأنه نبي آخر الزمان المنتظر وخاتم الرسل عندما قابله في سوق في مدينة بُصرى بالشام (جنوب سوريا حاليًا).

محمد رسول الله

(١) اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

(٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ

(٣) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ

(٤) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

(٥) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ

القرآن الكريم، سورة العلق.

في صباح يوم الإثنين من شهر ربيع الأول عام الفيل، الموافق لأبريل ٥٧١م، وُلد طفل سيغير وجه العالم إلى الأبد. كان يتيم الأب عند ولادته، وفقد أمه في سن السادسة، فتكفل به جده عبد المطلب، الذي أسماه محمدًا، ثم انتقل إلى رعاية عمه أبو طالب بعد وفاة جده. كان اسم «محمد» مثار دهشة من أقران عبد المطلب، فسألوه عن سبب اختياره لهذا الاسم غير المألوف آنذاك، فأجاب: أراد أن يُثني عليه الله في السماء، وأن يشيد به الناس في الأرض. ذلك لأن اسم «محمد» يصف الرجل المحمود، أما اسم أحمد فقد جاء ذكره في القرآن في الآية السادسة من سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ»، حيث يشير إلى البشارة برسول يُدعى أحمد، وهو أحد ألقاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

يُروى أن ليلة ولادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقع زلزال عنيف في مدينة طيسفون، عاصمة الإمبراطورية الساسانية آنذاك، فانشق إيوان كِسرى حتى سمع صوته وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وغاضت بحيرة «ساوة» وكانت بحيرة عظيمة في مملكة عراق العجم بين مدينتي «همدان» و«قُم»، فأصبحت ليلة مولده يابسة وبني في موضعها مدينة ساوة، كما خدمت نار فارس التي كانوا يعبدونها، ولم تخدم قبل ذلك بألف عام^(١).

استيقظ الملك كسرى الأول مفزوعًا، ظنًا أن هجومًا عدائيًا يهدد الإمبراطورية، رغم أن السلام كان يعم في عهده منذ زمن طويل، واستدعى وزراءه والكاهن الأكبر في قاعة العرش، طالبًا تفسيرًا لما حدث. أجابه الكاهن برؤية مقلقة عن خيول عربية تعبر دجلة وتنتشر في أنحاء الإمبراطورية، ورؤية إله الفرس «أهورا مزدا» باكيًا، ما أشار إلى هاجس مشؤوم. وبعد سبعة وستين عامًا تحقق الحلم الذي أفرغ ملك الفرس، واحتلت الجيوش الإسلامية الإمبراطورية الساسانية، واختفت مدينة طيسفون إلى الأبد.

عندما بلغ النبي محمد صلى الله عليه وسلم الخامسة والعشرين من عمره، تزوج من السيدة خديجة رضي الله عنها، وهي أرملة غنية تعمل في التجارة، كانت قد كلفته بالإشراف على قوافل تجارتها المتجهة من مكة إلى أراضي الشام، حيث أعجبت بنزاهته وأمانته. وخلال زواجهما

(١) للمزيد من التفاصيل حول هذه الواقعة انظر: كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، تحت عنوان «ذكر ارتجاس إيوان كسرى، وسقوط الشرفات».

قدمت له السيدة خديجة رضي الله عنها دعمًا غير محدود للنبي صلى الله عليه وسلم، وكانت سندًا له طوال حياتها، وأنجبت له أربع بنات وولدين، إلا أن الولدين توفيا في سن مبكرة للغاية.

في ليلة الإثنين ٢١ من شهر رمضان، الموافق ليوم ١٠ من أغسطس عام ٦١٠م، حين كان عمر النبي صلى الله عليه وسلم ٤٠ عامًا، وبينما كان معتكفًا في غار حراء، نزل عليه جبريل عليه السلام بأولى آيات القرآن الكريم، معلنًا بدء نزول الوحي الإلهي وإعلان نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم. استمر نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم علي يد جبريل عليه السلام بشكل متقطع طوال حياته. كان النبي يحفظ ما أنزل عليه ويتلوه على أصحابه، كما حفظ الصحابة الأوائل آيات القرآن الكريم في صدورهم، ودون بعضهم أجزاء منها على وسائط بسيطة متاحة في بيئتهم مثل ألواح العظام المسطحة، وسعف النخيل، وقطع الخشب.

دعا الإسلام إلى وحدانية الله المطلقة والمساواة بين البشر دون تمييز اجتماعي أو اقتصادي، والإيمان باليوم الآخر والحساب أمام الله، ولكن دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم للدين الإسلامي بما تتضمنه من تلك المبادئ لاقت معارضة شديدة من تجار مكة الأثرياء، الذين كانوا يخشون أن تؤدي سيادة الإسلام إلى التقليل من أهمية مكة كمركز ديني وتجاري، خاصة وأن موسم الحج السنوي كان يجتذب آلاف الزوار من كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية، مما يوفر مصدر دخل كبير للمدينة ولهم بطبيعة الحال. إضافة إلى ذلك، كانت مكة مركزًا استراتيجيًا لحركة القوافل التجارية المتجهة من اليمن إلى سوريا، ومن بلاد فارس والهند إلى البحر الأحمر، ومن الخليج العربي إلى مصر.

لن نتطرق هنا إلى تفاصيل الصراع بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم

وسلم وأثرياء مكة الذين رفضوا دعوته، ولا إلى الحروب التي خاضها، فالمصادر التي تناولت هذا الجانب كثيرة. لكن من المهم الإشارة إلى واقعيتين رئيسيتين:

الأولى هي إسرائ النبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، حيث امتطى البراق، وهي دابة سماوية، وعرج بها إلى السماء ليلاً في ليلة عظيمة وقعت في سنة ٦٢١م ما بين السنة الحادية عشرة إلى السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية وتعرف تلك الليلة باسم الإسرائ والمعراج. والواقعة الثانية هي هجرته إلى يثرب (المدينة المنورة) عام ٦٢٢م، الموافق للعام ١٤ من البعثة النبوية، هرباً من مؤامرة لقتله، وهي السنة التي أصبحت تُعرف منذ ذلك الحين بعام الهجرة، وأصبحت بداية التقويم الإسلامي/ الهجري الذي يستخدمه المسلمون إلى اليوم.

في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول، سنة ١١هـ، الموافق للثامن من يونيو عام ٦٣٢م، توفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة عن عمر ٦٣ عامًا، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة لتبليغ دين الإسلام وكتاب الله. ورغم وفاته لم يتفكك المجتمع الإسلامي الناشئ، وكما أشار الكاتب محمود حسين في كتابه «السيرة»:

«قبل الإسلام، لم يكن العرب يتساءلون عن أصل العالم أو الإنسان أو عن الحياة بعد الموت، بل اكتفوا بتقليد أسلافهم، لكن رسالة الإسلام التي بلغها محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين فتحت لهم آفاقاً جديدة من الإدراك».

يرفع الستار

جعل الله لكل ظاهرة سببًا

ولكل سبب تفسيرًا

ولكل تفسير منطقًا

كليّة ودمنا

لما لم يسمّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم خليفة للمسلمين بشكل واضح قبل وفاته؛ انتقلت السلطة بمشورة الصحابة إلى أقرب أصحابه، سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أول من أسلم من الرجال بعد السيدة خديجة زوجة النبي رضي الله عنها. في بداية خلافته التي استمرت بين (١١-١٣هـ / ٦٣٢-٦٣٤م) عُرف بلقب «خليفة رسول الله» قبل أن يُلقب بـ «أمير المؤمنين». كانت أولى مهامه تثبيت أركان الدولة الإسلامية الناشئة والتصدي لحركات الردة التي قامت بها بعض قبائل شبه الجزيرة العربية بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وقد أطلق على هذه المواجهات اسم «حروب الردة»، واستمرت قرابة عامين.

تولى الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، المُلقب بالفاروق، الخلافة في السنة ١٣هـ / ٦٣٤م، ليصبح ثاني الخلفاء الراشدين. وقد شهدت خلافته إنجازات عظيمة أثرت في مسار التاريخ الإسلامي، إلا أن

تفاصيلها الواسعة تتجاوز نطاق هذا الكتاب. وبعد استشهاده عام ٢٣هـ/ ٦٤٤م، ثم تولى الخلافة بعده عثمان بن عفان، رضي الله عنه، الذي استمر في نهج التوسع ونشر الإسلام، لكنه واجه معارضة متزايدة أدت إلى اضطرابات داخلية انتهت باغتياله عام ٣٥هـ/ ٦٥٦م. وقد مثل مقتل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، نقطة تحول في التاريخ الإسلامي، حيث أدى الصراع السياسي الذي أعقب ذلك إلى انقسام المسلمين إلى فرق مختلفة، فيما عُرف بـ «الفتنة الكبرى». وبلغت الأزمة ذروتها في معركة صفين، التي وقعت في شهر صفر عام ٣٧هـ/ يوليو ٦٥٧م، حيث برزت على الساحة اتجاهات فكرية وسياسية أسست لظهور الفرق الإسلامية الكبرى، ومنها الخوارج، والشيعية، وأهل السنة والجماعة.

وبعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كان العالم الإسلامي قد امتد بشكل لافت ليشمل مناطق شاسعة من برقة في ليبيا غرباً، إلى بخارى وسمرقند وأجزاء من أفغانستان شرقاً. وفي الشمال، وصل الفتح الإسلامي إلى القوقاز، وسواحل البحر الأسود وبحر قزوين. أما في البحر المتوسط، فقد دخلت جزيرة قبرص تحت الحكم الإسلامي ثم جزيرة ردوس في منتصف القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي قبل أن تتبعهما جزيرتي كريت وصقلية لاحقاً في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. كما شملت الأراضي الإسلامية في الشرق الأدنى والشرق الأوسط منطقة الشام الكبرى، من دمشق إلى بيت المقدس، التي حظيت بمكانة متميزة كأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

شهدت مدينة القدس بناء قبة الصخرة التي شيدها الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٧٢هـ/ ٦٩١م، فيما أنشأ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد الفتح الإسلامي للمدينة عام ١٥هـ/ ٦٣٦م مُصلى بسيطاً في الجهة الجنوبية من المسجد الأقصى، الذي يقع في الموقع الذي أُسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إليه قبل معجازه إلى السماوات العُلى.

أصبحت القدس بذلك ثالث أقدس المدن في الإسلام بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة. أما المسجد الأقصى بشكله المعروف اليوم فقد اكتمل بناؤه في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك بين عامي ٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م.

وفي مصر، أسس القائد عمرو بن العاص مدينة الفسطاط في عام ٢١هـ / ٦٤١م، أول عاصمة عربية لمصر، لاحقاً اندمجت الفسطاط في النسيج الحضري للقاهرة، العاصمة المصرية الحالية، التي أسسها الخلفاء الفاطميون في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. امتدت الفتوحات الإسلامية على طول الساحل الإفريقي شمالاً، واستمرت حتى وصلت نهر السند شرقاً. أما شمالاً، فقد امتد النفوذ الإسلامي ليشمل أجزاء من آسيا الصغرى، بينما امتد لاحقاً في العهد العثماني إلى إقليم رومانيا، المنطقة التي تضم أجزاء من اليونان والبلقان.

أما في عام ٩٢هـ / ٧١١م، عبر المسلمون بقيادة القائد العربي طارق بن زياد مضيق جبل طارق، لتخضع ثلاثة أرباع شبه الجزيرة الإيبيرية للنفوذ الإسلامي وعُرفت المنطقة بالأندلس. وأصبحت مدناً مثل قرطبة، وإشبيلية، وطليطلة مراكز حضارية مزدهرة في قلب أوروبا. أما في غرناطة، بُنيت واحدة من أعظم روائع الفن المعماري الإسلامي، قصور «الحمراء»، التي تُعدّ مع جامع قرطبة الكبير في مدينة قرطبة، من أبرز المعالم التي تشهد على عظمة الحضارة الإسلامية في الأندلس وإسهامها العميق في تاريخ وثقافة شبه الجزيرة الإيبيرية.

كما وصل المسلمون إلى وسط آسيا وواجهوا أسرة تانغ الصينية في معركة نهر طلاس عام ١٣٣هـ / ٧٥١م، حيث انتصر القائد زياد بن صالح على الجيش الصيني. ورغم أن التأريخ الغربي لم يولي هذه المعركة الاهتمام الكافي أو الموضوعية المطلوبة، إلا أن لها أهمية كبرى، إذ

مكّنت المسلمين من السيطرة على الطرق التجارية الحيوية في آسيا الوسطى بالكامل التي تربط مدينة شيان، العاصمة الصينية آنذاك، بكل من بغداد والقسطنطينية.

كان من أبرز نتائج معركة نهر طلاس نقل فن صناعة الورق من الصين إلى العالم العربي، حيث قام بعض الأسرى الصينيين بتعليم المسلمين تقنية صناعة الورق من الكتان والقنب، التي كانت مستخدمة في الصين لأكثر من ألف عام. قبل ذلك، كان المسلمون يعتمدون على ورق البردي والرق. وسرعان ما استوعب المسلمون هذه الصناعة وأتقنوها، وأسسوا أول مصنع ورق في العالم الإسلامي بمدينة سمرقند، الذي أطلق عليه «الكاغد»، ومنها انتقلت الصناعة إلى بغداد، حيث أنشئت أول ورشة متكاملة لصناعة الورق عام ١٧٨هـ / ٧٩٥م. لقد أسهمت صناعة الورق بشكل كبير في نهضة العلوم والثقافة في الحضارة الإسلامية، حيث أصبح الورق وسيلة أساسية لنشر المعرفة وتداولها في أنحاء العالم الإسلامي.

ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن العمر الافتراضي لورق البردي يتجاوز عادةً قرنين من الزمن، حيث كان يتطلب نقل النصوص المكتوبة عليه إلى لفائف جديدة للحفاظ عليها. أما الرق، فرغم متانته العالية، إلا أنه يتطلب ظروف تخزين مثالية للحفاظ عليه، بعيداً عن الرطوبة والقوارض والديدان، إلى جانب العديد من المخاطر الأخرى التي تضر به.

فمن جهة أخرى، اكتسب المخطوط - الذي تعود أصوله إلى التقاليد المسيحية - أهمية متزايدة بين القرنين الرابع والثامن الميلاديين. هذا التطور في شكل المخطوط المعروف بالكودكس (Codex) أو المجلد: وهو الشكل المبكر للكتاب والأقرب للكتب الحديثة الذي ظهر كبديل للّفافة (Scroll). وكان يتكون من أوراق مخطوطة مخيطة أو مجلدة معاً

بين غلافين. وإذا حاولنا تصور الخط الزمني لنقل النصوص المدونة عبر الوسائط الكتابية المتعددة، يمكننا أن نفترض أن العالم الإغريقي بطليموس دوّن رسالته الأهم في علم الفلك «المَجَسْطِي» على لفافة من ورق البردي في مدينة الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي. ومن المحتمل أن تلك النسخة الأصلية قد نُسخَت مرتين على الأقل على البردي قبل أن تُنقل إلى الرق، حيث تم جمعها في هيئة أقرب للكتاب.

لكن حتى تلك النسخة المدونة على الرق على شكل كتاب تطلبت إعادة نسخها ونقلها كل بضعة قرون، مع الأخذ في الاعتبار وجود أضرار محتملة بيئية وطبيعية مثل الحشرات أو الكوارث الطبيعية. لذلك، يمكننا أن نفترض أن كتاب «المَجَسْطِي» تم نسخه حوالي خمس مرات على الأقل في الفترة بين تاريخ تدوينه لأول مرة والقرن السادس عشر الميلادي، حين وصل إلى أيدي العلماء والباحثين في عصر النهضة الأوروبية.

سرعان ما تعلم العرب صناعة الورق في تلك الفترة ونشأ في بغداد سوقًا للوراقين، الذي ضم مئات الأكشاك وازدهر بشكل لافت، ليصبح مركزًا رئيسيًا لتجارة الورق والكتب. حظي الورق المنتج محليًا بشعبية واسعة، لدرجة أن بعض المصادر البيزنطية أشارت إليه بمسمى «بغدادتكسون»، نسبةً إلى بغداد، المدينة القائمة على ضفاف نهر دجلة. حاز ورق بغداد على تقديرًا عاليًا في الشّرق الأوسط، حتى إن بعض المصادر البيزنطية كانت تُسمي الورق بصُحف بغداد (بالرُّوميّة: Bagdatixon / بَقْدَاتِيكْسَن).

كان الوراقون في هذا السوق يوظفون فرقًا من الكتبة لإنتاج الكتب التي يعرضونها للبيع، وغالبًا ما كانوا يشجعون الزبائن على تصفحها قبل الشراء. لعب هؤلاء التجار دورًا جوهريًا في نقل المعرفة، حيث ساهموا

في نشر الإنتاج الأدبي والفكري من بغداد إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي. ولولا جهودهم، لما تحقق هذا الانتشار الواسع للمعارف والكتب، ولما ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية كما عرفناها. وتشير بعض التقديرات أنه بحلول نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، كان هناك أكثر من ٥٠٠٠ مؤلف مسلم يمتحن الكتابة. علاوة على ذلك، شهدت تلك الحقبة تطورات هامة في مجال تصنيع الأحبار والصمغ، إلى جانب تطور تقنيات التجليد، هذه الابتكارات التقنية ساعدت في تعزيز مكانة الكتاب كوسيلة لنقل المعرفة، وجعلته عنصرًا أساسيًا في الحياة الثقافية والفكرية للعالم الإسلامي.

هكذا أطلق ظهور الورق ثورة ثقافية غير مسبوقة في قلب الإمبراطورية العباسية الناشئة، حيث انتشرت المعارف بوتيرة واسعة النطاق لم يشهدها العالم من قبل. حيث كانت في متناول اليد؛ ليس فقط في المكتبات العظيمة داخل المدن الكبرى، بل وامتدت أيضًا إلى الكتابات المتواضعة والمساجد الصغيرة. في المقابل، كان العالم المسيحي لا يزال يعتمد على نسخ كتبه وخرائطه على جلود الحيوانات، وهي عملية معقدة تضمنت بسط الجلد وكشطه وتجفيفه لإنتاج الرق. هذا الوسيط، رغم متانته، كان مكلفًا وغير عمليًا سواء للتخزين أو النقل. ولم تصل صناعة الورق إلى أوروبا إلا في القرن الثاني عشر، عبر الأندلس.

وعلى الرغم من هذا السبق، كان تداول الكتب عبر العالم الإسلامي يتم بسهولة ملحوظة عبر نظام بريد متطور، يعتمد على الجمال والبغال والخيول، ليصل أطراف الإمبراطورية ببعضها البعض بكفاءة مذهلة. كما لم يمنع ذلك الباحثين والشغوفين بالعلم شيء من قطع مسافات شاسعة بحثًا عن المخطوطات والكتب، متحدين العواصف الرملية، والأمراض، والسيول، وقطاع الطرق، في سعيهم الحثيث لضمان الحفاظ على الأفكار والمعارف من الاندثار.

وعلى سبيل المثال تُبرز رواية حنين بن إسحاق (١٩٣ - ٢٥٩هـ/ ٨٠٩ - ٨٧٣م)، الطبيب والمترجم البارز المعروف بإسهاماته العظيمة في ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية، سعيه الحثيث للعثور على مخطوطة نادرة للطبيب وللعالم اليوناني جالينوس (١٢٩ - ٢١٦م)، بعنوان «أعمال تشريحية وفسيولوجية وطبية». فقال حنين:

«صاغ (جالينوس) هذا العمل في ١٥ مجلدًا... لم تصل منها حتى اليوم نسخة كاملة من هذا المؤلف. بحثت عنه بكل همة؛ سافرت إلى بلاد ما بين النهرين، وتجولت في أرجاء سوريا بأكملها، وكذلك فعلت في فلسطين ومصر، حتى وصلت إلى مدينة الإسكندرية. لم أجد منه شيئًا، إلا في دمشق، حيث عثرت على نصفه تقريبًا، لكنها كانت أجزاء غير متتالية وغير مكتملة».

تعكس هذه الرواية الجهود الجبارة التي بذلها العلماء في العصر العباسي للبحث عن النصوص الكلاسيكية، وإحيائها عبر الترجمة إلى العربية. وقد كان هذا العمل الدؤوب أحد الأسباب الرئيسية في الحفاظ على التراث العلمي الإنساني ونقله للأجيال اللاحقة، بل وللعالم بأسره.

كما يروي يحيى بن البطريق^(١)، المترجم والطبيب العربي وواحدًا من أوائل المترجمين الذين نقلوا العلوم اليونانية إلى العربية، وعضو الوفد الذي أرسله الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/ ٨١٣ - ٨٣٣م) إلى بيزنطة للبحث عن المخطوطات اليونانية، تفاصيل رحلته في سعيه للحصول على أحد النصوص النادرة. ويقول:

«لم أترك أيًا من المعابد التي أودع فيها الفلاسفة أسرارهم دون أن

(١) أو يوحنا بن البطريق. وُلد حوالي عام ٨٠٠م، وهو علامة عراقي، وأول من ترجم نصوصًا إغريقية قديمة إلى العربية.

أتردد عليها، ولا أيًا من أولئك التُساك المتبحرين في الحكمة، الذين تراءى لي أنهم قد يمتلكون ما أبحث عنه، إلا وقصدهم. حتى وصلت إلى المعبد الذي بناه أسكليبيوس لنفسه. هناك، قابلت ناسكًا ورعًا ومتدينًا، صاحب علم رفيع وذكاء خارق. تعرفت عليه، وأقمت عنده فترة من الزمن، واستعنت بالمكر حتى تمكنت من الحصول على الكتب المودعة في معبده. ووجدت بينها الكتاب المنشود، موضوع بحثي وشغفي».

وُلد عبد الله المأمون في بغداد عام ١٧٠هـ / ٧٨٦م، على الضفة الشرقية لنهر دجلة، خلال السنة الأولى لحكم والده هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م). وكان التعليم الذي تلقاه سببًا لنبوغه وذكائه الذي ظهر خلال فترة خلافته. ويقال إن والده كان من معلميه الأوائل. ورغم ما عُرف عنه من سمات محمودة، فقد كان كثير التأمل وعميق التفكير، تميل أفكاره إلى التدبر والفلسفة، كما يتضح من هذه الرواية: «ذات يوم، استدعاني المأمون. فلبيت دعوته، لأجده منكس الرأس غارقًا في أفكاره. فعزفت عن الاقتراب منه وهو في هذه الحالة حتى رفع رأسه ورمقني، ثم أشار بيده أن أقترب، فاقتربت. إلا أنه ظل مطأطئ الرأس لفترة طويلة ثم رفع يده وقال لي: «ويحك أبا إسحاق، ما أشعر به إحساس بالضجر وتوق روحي لشيء غريب وجديد».

هل كانت حاجته لكسر الملل والرتابة، أم السعي وراء «شيء غريب وجديد»، هو المحرك التي دفعه لهذا الرغبة المتقدمة واسعة النطاق لجمع الكتب؟ أم كان ذلك تعطشًا لا هوادة فيه للمعرفة؟

لا نعرف الإجابة على وجه التحديد، ولكن هذه الرواية التاريخية وأمثالها تؤكد سعي المأمون الحثيث وراء المعرفة، وكمثال على ذلك، طلب المأمون من كاتب الإمبراطور البيزنطي تيوفيلوس الحصول على

مجموعة مختارة من المخطوطات القديمة المحفوظة بعناية لدى الدولة البيزنطية، ثم أوفد مجموعة مختارة من رجاله لإحضارها من القسطنطينية^(١).

في دمشق، كان أسعد بن إلياس، المعروف بابن المطران، الطبيب الشخصي لصلاح الدين الأيوبي، يمتلك حوالي ١٠,٠٠٠ كتاب في مكتبته ببغداد. أما ابن التلميذ، الطبيب البارز والأديب والشاعر، فقد ترأس اليمارستان العضدي في بغداد وجمع في مكتبته أكثر من ٢٠,٠٠٠ مجلد، العديد منها أعاد نسخها بخط يده. كان ابن التلميذ، وهو مسيحي نسطوري، شخصية موسوعية اشتهرت بالحكمة. وينسب إليه هذا القول المأثور: «الرجل الحكيم لا ينبغي له أن يرتدي ملابس قد تثير غيرة من هم دونه أو ازدراء من هم فوقه»، وكان يقصد هنا أن الغرور لا يؤدي إلا إلى المتاعب.

(1) Violet Moller. *Les Sept Cités du Savoir* [مدن المعرفة السبع] Payot.

مترجم أم خائن؟

تُجسد العبارة الشهيرة «الترجمة خيانة» فكرة مفادها أن الترجمة قد تخون النص الأصلي أحياناً، من خلال تقديم معانٍ مغايرة للأفكار والعبارات التي وردت فيه.

هنا يُقدم حنين بن إسحاق - مثلاً عملياً على هذه الفكرة، من خلال وصفه لترجمته لكتاب جالينوس «فيما يخص الطوائف»، حيث أقر بنفسه أنه قدّم ترجمة غير دقيقة في البداية، ثم أعاد مراجعتها لاحقاً قائلاً:

«طلب مني تلميذي حُبَيْش، بينما كنت أناهز الأربعين، أن أراجع كتاب جالينوس إذ كنت قد تحصلت على عدة نسخ إضافية منه باللغة الإغريقية. طابقت النسخ مع بعضها البعض إلى أن اطمأنت إلى نسخة موثوقة. ثم قارنت النسخة السريانية بهذه النسخة الإغريقية وصححتها. وكان هذا هو المنهج الذي اعتدت عليه في جميع الترجمات التي قمت بها».

أما عن مؤلف جالينوس الآخر، «عن منهج العلاج الطبي»، يروي لنا حنين بن إسحاق بنفسه تفاصيل دقيقة حول تجربته في ترجمته، قائلاً:

«توفرت لدي عدة نسخ باللغة الإغريقية لآخر ثمانية مجلدات من هذا المؤلف. قارنتها ببعضها البعض، واستخلصت منها نسخة أعدتها للترجمة، ملتزماً بأقصى درجات الإتقان والبلاغة. أما بالنسبة إلى الستة مجلدات الأولى من المؤلف ذاته، فقد توفرت لدي نسخة واحدة فقط،

لكنها كانت تحتوي على العديد من الأخطاء. لذلك، لم أتمكن من إتمام الترجمة بشكل مرضٍ. لاحقًا، حصلت على نسخة أخرى، فقارنتها بالأولى وأدخلت عليها ما استطعت من التحسينات».

أحدث حُنين بن إسحاق، المُلقب بسيد المُترجمين، تغييرًا جذريًا في أسلوب الترجمة، حيث تبنى منهجًا جديدًا أصبح فيما بعد حجر الأساس لعمل المترجمين المعاصرين. بدلاً من الالتزام الحرفي بالترجمة كلمة بكلمة، اعتمد أسلوبًا أكثر مرونة يعتمد على الترجمة وفقًا لمعنى الفقرة كما أوصى بذلك المترجم الروماني جيروم دي ستريدون في القرن الرابع الهجري.

استفاد حنين من معرفته العميقة باللغات السريانية واليونانية والعربية، مما مكنه من نقل المعنى الدقيق لكل جملة، مع الحفاظ على روح النص الأصلي. بهذا النهج، لم يعد عمل المترجم يقتصر على معرفته المهارات اللغوية فقط، بل أصبح من الضروري أن يمتلك خلفية معرفية واسعة وشاملة.

وعلاوة على ذلك، قدم حنين ابتكارًا هامًا آخر في مجال الترجمة تمثل في جمع أكبر عدد ممكن من النسخ المتاحة لأي عمل، غالبًا بلغات مختلفة، ومقارنتها بدقة. ومن خلال هذه الطريقة، كان يصدر نسخة نهائية ومعتمدة تصبح المرجع الأكثر موثوقية للعمل المترجم.

كما شرح حُنين بن إسحاق بخصوص كتاب جالينوس «عن الطوائف»، قائلاً: «لقد ترجمته لطبيب في جُنْدَيْسَابُور^(١)... من نسخة يونانية كانت مليئة بالأخطاء. فيما بعد، تراكمت لدي نسخ يونانية عدة.

(١) أهم مؤلفاته كتاب الأقرباذين الكبير.

قارنتُ هذه النسخ وأنتجت نسخة واحدة صحيحة. ثم قارنت النص السرياني بهذه النسخة وصححته»^(١).

وإذا كان ابن إسحاق قد ارتبط في ذاكرة المعرفة وتاريخ العلم بوصفه مترجمًا رائدًا؛ فإنه كان أيضًا طبيبًا مرموقًا في بلاط الخليفة المأمون. ألف العديد من الكتب الطبية، من أبرزها كتابه «عشرة أبحاث عن العين»، الذي يُعتبر مرجعًا فريدًا في طب العيون، ويتضمن هذا العمل واحدًا من أقدم الرسوم التشريحية المعروفة للعين البشرية^(٢)، مما يعكس عمق إسهاماته في الطب إلى جانب الترجمة.

-
- (1) Introduction à la traduction du traité de Galien *Sur les sectes*, mentionnée dans l'ouvrage de Franz Rosenthal, *The Classical Heritage in Islam* التراث [الكلاسيكي في الإسلام] London, Routledge, 1994.
- (2) Jim Al-Khalili. *The House of Wisdom: How Arabic Science Saved Ancient Knowledge and Gave Us the Renaissance* كيف أنقذت العلوم [بيت الحكمة: كيف أنقذت العلوم العربية القديمة وأعطتنا النهضة] London, Penguin, 2010.

اقرأ، ثم تدبر ما قرأت

«وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا»

القرآن الكريم، سورة طه - الآية ١١٤

في مواجهة هذه الطفرة المعرفية الهائلة، برز تحدٍ أساسي: كيف يمكن تصنيف وتنظيم آلاف الكتب المتكدسة؟ هنا تبرز مساهمة ابن النديم الفريدة، الذي نجح في التصدي لهذه المهمة الضخمة لأول مرة في تاريخ الحضارة الإسلامية.

ابن النديم، الذي بدأ مسيرته المهنية كبائع كتب وخطاط، عمل على نسخ المخطوطات حسب الطلب، وهي مهنة ورثها عن والده. لا نعرف على وجه التحديد متى قرر ابن النديم تأليف عمله الشهير كتاب الفهرست، الذي يُعد موسوعة شاملة تضم عناوين جميع الأعمال الأدبية والعلمية العربية وغير العربية الصادرة حتى عصره، أي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مع تقديم نبذة عن مؤلفيها. يقدّم الكتاب قائمة تضم حوالي ١٠,٠٠٠ كتاب و٢,٠٠٠ كاتب، مما جعله وثيقة فريدة تسلط الضوء على التراث الأدبي والعلمي لتلك الحقبة.

يتألف الكتاب من عشرة «مقالات»، يغطي القسم الأول منها الموضوعات الدينية، مثل الكتب المقدسة للمسلمين واليهود

والمسيحيين، بالإضافة إلى الفقه، وعلم اللاهوت، وفقه اللغة، والنحو والصرف. أما القسم الثاني، فيقدّم قائمة مفصلة بالكتب، تتضمن وصفًا دقيقًا لأبعادها وعدد صفحاتها، في محاولة للحد من تلاعب بعض السُّاخّ المحتالين.

ومن اللافت أن ابن النديم لم يضمّن في الفهرست إلا الكتب التي تحقق من وجودها بنفسه أو من خلال مصادر موثوقة. بفضل هذا النهج الدقيق، أصبح كتاب الفهرست مرجعًا موثوقًا لتنظيم المعارف وتصنيفها في العالم الإسلامي.

في كتاب الفهرست، يروي لنا ابن النديم قصة مثيرة عن حلم رآه الخليفة المأمون. في هذا الحلم، ظهر رجل ذو بشرة وردية وجبهة عريضة بملامح مميزة: وجه كبير، حاجبان ملتقيان، رأس أصلع، وعينان زرقاوان داكنتان. كان يجلس بهدوء على منبر ويتصرف بود، لكن حضوره المهيّب أثار الخوف في قلب المأمون. اقترب المأمون منه وسأله: «من أنت؟» فأجابه الرجل: «أنا أرسطو». غمرته الفرحة وقال: «أيها الحكيم، لدي سؤال أريد أن أطرحه عليك». فرد أرسطو: «اسأل». فسأل المأمون: «ما هو الخير؟»

أجاب أرسطو: «الخير هو ما يُعتبر خيرًا حسب العقل». فسأله المأمون: «وماذا بعد؟» فرد أرسطو: «ما يُعتبر خيرًا حسب الوحي». استفسر المأمون مرة أخرى: «وبعد؟» فأجاب: «ما يُعتبر خيرًا في نظر الجميع». فسأل المأمون للمرة الأخيرة: «وبعد؟» فرد أرسطو: «بعد ذلك ليس هناك شيء».

تُبرز هذه الرواية رؤية المأمون التي تسعى إلى دمج العقل مع الوحي في نهج متكامل لمعرفة الخير، كما تعكس إعجابه العميق بالفلسفة اليونانية وتجلياتها في الفكر الإسلامي.

تناغم غامض بين الخليفة العباسي والفيلسوف اليوناني

على غرار ما نُسب للمأمون من شغف بالفلسفة اليونانية وسعيه إلى دمج الفكر العقلي مع المبادئ الإسلامية، نجد أن هذا العصر لم يكن مقتصرًا على الترجمة الفلسفية فحسب، بل امتد ليشمل التوثيق التاريخي الموسوعي. فكما عمل المأمون على إحياء الفلسفة اليونانية، كان هناك مؤرخون يسعون إلى تأريخ تطورات الحضارة الإسلامية بدقة وعمق، ومن أبرزهم الطبري، أحد أعظم المؤرخين العرب على الإطلاق. في مؤلفه الشهير تاريخ الرسل والملوك، الذي يتكون من اثني عشر مجلدًا، يروي الطبري تطورات حياة المسلمين، سنة بعد سنة، خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة. وقد جمع هذه الأحداث والوقائع بطريقة منهجية، معتمدًا على الروايات الشفوية والمصادر المكتوبة المتاحة آنذاك.

انتشار الإسلام وامتداده في أرجاء العالم

انتشر الإسلام في بادئ الأمر في المناطق المجاورة لمهده في شبه الجزيرة العربية، ثم امتد تأثيره تدريجيًا إلى مختلف بقاع الأرض. ففي إفريقيا، ساهم التجار المسلمون في دخول الإسلام إلى السودان عبر الطرق التجارية التي ربطته بمصر وبلاد المغرب، مما جعله جزءًا مهمًا من تاريخ القارة.

أما في آسيا، فقد حمل التجار القادمون من جنوب الهند ومنطقة غوجارات (الواقعة في الهند حاليًا) رسالة الإسلام عبر المحيط الهندي إلى إندونيسيا، حيث بدأت المجتمعات المحلية باعتماده منذ القرن الثالث عشر الميلادي. وفي آسيا الوسطى، انتشر الإسلام بين الشعوب التركية

ووصل تأثيره إلى الصين عبر شبكات التجارة والتبادل الثقافي عبر طريق الحرير.

وفي الغرب، انتقلت رسالة الإسلام عبر الطرق التجارية التي تربط البحر الأبيض المتوسط بأوروبا الوسطى وبلدان البلطيق، كما واجهت الإمبراطورية البيزنطية تحديات مباشرة مع توسع النفوذ الإسلامي. وبحلول القرن الثامن الميلادي، بلغت الأراضي الخاضعة للحكم الإسلامي أكثر من ١٢ مليون كيلومتر مربع، متجاوزة في امتدادها المساحة التي بلغت الإمبراطورية الرومانية في أوجها. وللمرة الأولى منذ العصور القديمة، امتدت سلطة سياسية واحدة، ممثلة في الخلافة الإسلامية، على مساحات شاسعة من الأندلس غربًا إلى آسيا الوسطى شرقًا، مما أرسى دعائم تلك الحضارة الغنية والمتعددة الثقافات.

وعلى عكس الشعوب الأخرى التي حققت ازدهارًا علميًا باتباع أنماط وقواعد متشابهة؛ كان ازدهار العلوم عند العرب ظاهرة فريدة من نوعها. لم يكن اهتمامهم بالمعارف مجرد استمرار لتقاليد موروثة، بل شكّل هذا الاهتمام نقلة نوعية وحدثًا استثنائيًا في تاريخ الأمم، حيث أعادوا صياغة العلوم بدمجها مع رؤيتهم الحضارية الإسلامية.

أوكسفورد على ضفاف دجلة

رَأَى الْبَرْقَ شَرْقِيًّا فَحَنَّ إِلَى الشَّرْقِ
وَلَوْ لَاحَ غَرْبِيًّا لَحَنَّ إِلَى الْغَرْبِ
فَإِنَّ غَرَامِي بِالْبَرْقِ وَلَمْجِهِ
وَلَيْسَ غَرَامِي بِالْأَمَاكِنِ وَالتُّرْبِ

محيي الدين بن عربي

لا يمكن فصل اسم «مدينة السلام»، التي ستُعرف لاحقًا باسم «بغداد»، عن الخليفة العباسي عبد الله المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م)، الذي كان العقل المدبر وراء إنشائها. ففي صباح أحد أيام عام ١٤٥هـ / ٧٦٢م، أصدر المنصور أمره ببناء هذه المدينة العظيمة شمال مدينة المدائن (قطسيفون) على ضفاف نهر دجلة. في ذلك اليوم، قال لقادته وجنوده: «ها هي دجلة، وما من شيء يفصلنا عن الصين، لأن كل ما يأتي من البحر يمكن أن يصلنا عن طريق النهر، وكذلك الإمدادات من الجزيرة (المرتفعات العليا من العراق) والمناطق المحيطة. وها هو الفرات، الذي يمكن أن ينقل كل ما يأتي من سوريا والرقعة والمناطق المجاورة»^(١).

[إمبراطورية العباسيين الأولى] (1) Al-Tabari. *The Early Abbasid Empire*, vol. 1
Trad. John Alden Williams. Cambridge, Cambridge University Press, 1988.

لم يكن اختيار هذا الموقع وليد الصدفة، بل جاء نتيجة رؤية استراتيجية. فالمدينة تبعد حوالي ١٥٠ كيلومتراً عن الكوفة، التي شهدت في عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م مبايعة الخليفة العباسي الأول «السفاح» وإلقاءه خطبته الأولى هناك. إضافة إلى ذلك، كان قرب الموقع من أنقاض مدينة قسطنطين، العاصمة الساسانية القديمة، التي تبعد نحو ثلاثين كيلومتراً، ميزة عملية، إذ أتاح الاستفادة من مواد البناء المتبقية منها في تشييد المدينة الجديدة وعمارتها.

لتنفيذ هذا المشروع الضخم، جمع المنصور آلاف العمال من مختلف أنحاء الإمبراطورية. أشرف الخليفة بنفسه على تخطيط المدينة وتصميمها، فابتكر تحفة معمارية فريدة من نوعها: مدينة دائرية تُعرف بـ «المدينة المدوّرة». بلغ قطرها أربعة كيلومترات، وكانت تحوي أربعة أبواب رئيسية تخضع لحراسة مشددة، وهم: باب الشام، باب خراسان، باب البصرة، وباب الكوفة. أحاط المدينة خندق بعرض عشرين متراً، وسور دائري مزدوج يضم ٣٦٠ برجاً. ارتفع السور الخارجي إلى ١٧ متراً، بينما بلغ ارتفاع السور الداخلي ١٤ متراً، وكلاهما شُيّد من الطوب.

في قلب هذه المدينة العظيمة، بُنيت معالم بارزة تعكس عظمة الإسلام وهيبة الخلافة العباسية، وعلى رأسها قصر الخليفة الذي تعلوه قبة خضراء شاهقة بارتفاع خمسين متراً، لتصبح رمزاً يعلن عن قوة الإمبراطورية الناشئة.

عن تاريخ مدينة السلام، يقدّم الخطيب البغدادي وصفاً مذهلاً للمدينة الدائرية في مؤلفه «تاريخ مدينة السلام»^(١) أثناء زيارة وفد بيزنطي

(١) Encyclopédie composée de 23 volumes, considérée comme l'une des principales œuvres de l'histoire islamique [تألف من ٢٣ مجلداً، وتُعتبر هذه=

قادم من القسطنطينية للتفاوض على شروط معاهدة سلام. يروي البغدادي تفاصيل دقيقة تُبرز مظاهر الفخامة والقوة قائلاً:

«دخل السفراء القصر الأول، المعروف بـ«خان الخيل»، وهو بيت الفروسية. على الجانب الأيمن من الفناء، اصطف ٥٠٠ حصان مزين بسروج ذهبية وفضية، بينما وقف على الجانب الأيسر ٥٠٠ حصان آخر بسرج من الديباج وغمامات (غطاء لأعين الفرس) طويلة، وقد خصص لكل منها سايس يرتدي زيًا مهيبًا. بعد ذلك، تقدموا نحو حديقة الحيوانات، حيث اقتربت قطعان الحيوانات البرية من الزوار، شمت رائحتهم وأكلت من أيديهم. في الفناء التالي، وقف أربعة فيلة مهيبة، مزينة بديباج ومنسوجات تحمل أنماطًا تصويرية، يتبخثون بفخر. على ظهورها، جلس ثمانية رجال من السند، كل منهم نافث للنيران. المشهد كان أسراً ومهيباً، يُبرز قوة الدولة وجاذبيتها».

يستمر البغدادي في وصف عجائب المدينة: «في فناء آخر، رأى السفراء مائة أسد مكتم، مقيد بسلاسل متقنة بيد مدربيهم. كانت الحدائق المحيطة تفيض جمالاً، مزودة ببركة مائية وجدول تزين حافته ألواح من الرصاص المصقول، تلمع بلون أبيض ساطع كالفضة، وعلى سطح الماء طافت أربعة قوارب ذهبية بمقاعد مكسوة بالديباج. أما الحدائق نفسها، فكانت مزروعة بأشجار نادرة، تحيطها ٤٠٠ نخلة تحمل عناقيد نحاسية مذهبة تتلألأ تحت أشعة الشمس. تطلب هذا الإنجاز استقدام مئات

=الموسوعة أحد أعمال التاريخ الإسلامي الرئيسية] [https:// archive.org/ details/ tabazm/ taba00/](https://archive.org/details/tabazm/ taba00/) Citée dans Jacob Lassner, *The Topography of Baghdad in the Middle Ages: Texts and Studies* [طبوغرافيا بغداد في العصور الوسطى الأولى: نصوص ودراسات] University Press, 1970, et dans Violet Moller, *Les Sept Cités du Savoir* [مدن من المعرفة] trad. de l'anglais par Odile Demange, Payot, 2019.

الحرفيين لإنشاء هذه العجائب، ليرى البيزنطيين كل مجد صناعة المعادن والفنون العربية».

يصف الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ مدينة السلام إحدى أبرز معالم بغداد العباسية، «فناء الشجرة»، فيقول: «كانت الشجرة تقف شامخة في وسط البركة، ذات ١٨ فرعًا رئيسيًا تتفرع إلى عدد لا يحصى من الأغصان. على تلك الأغصان تجثم طيور مصنوعة من الفضة والذهب تمثل أنواعًا متعددة، تغرد وتصفّر وكأنها طيور حقيقية. كانت الفروع تتأرجح برشاقة، بعضها من الفضة والآخر من الذهب، فيما تصدر أوراقها المصنوعة بدقة متناهية حفيفًا أشبه بصوت أوراق الأشجار الحقيقية التي تهتز بفعل الرياح».

يُعد تأسيس بغداد واحدًا من أهم الأحداث في تاريخ العالم الإسلامي. جاء بناء المدينة في عهد الخليفة العباسي الثاني، المنصور، ليجسد رؤية العباسيين لعاصمة جديدة تعبر عن عهد جديد ليس له علاقة بحكم الأمويين السابق، وتعكس طموحهم لإدارة إمبراطورية مترامية الأطراف تمتد من المحيط الأطلسي إلى الهند. باختيارها عاصمة للإمبراطورية، أصبحت بغداد مركزًا للحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي لمدة خمسة قرون. شهدت نموًا غير مسبوق؛ فخلال أقل من أربعين عامًا، بين عامي ١٤٤ و١٧٨/ ١٧٩ هـ - ٧٦٢ و٨٠٠ م، تحولت من مجرد موقع يضم مئات السكان إلى مدينة يقطنها نحو مليون نسمة، متفوقة على كبريات مدن العالم آنذاك. على سبيل المقارنة، كان عدد سكان لندن في القرن السابع عشر لا يتجاوز ٢٠,٠٠٠ نسمة تحت حكم الملكة إليزابيث الأولى.

لاحقًا، قرر الخليفة المستنصر بالله (٦٤٠-٦٢٣ هـ / ١٢٢٦-١٢٤٢ م) إنشاء المدرسة المستنصرية في بغداد عام ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م وافتتحت عام

٦٣١هـ/ ١٢٣٣م، لتكون إحدى أبرز المعاهد التعليمية في التاريخ الإسلامي. لم تكن المستنصرية مجرد مدرسة بالمعنى التقليدي، بل كانت مجمعاً علمياً شاملاً، دُرست فيه مختلف العلوم، بما في ذلك العلوم الشرعية، إلى جانب الطب والصيدلة والرياضيات والفلك. ظهر سخاء الخليفة المستنصر في تجهيز هذا المُجمّع الثقافي، إذ أهدى المكتبة الخاصة بالمدرسة عند افتتاحها أكثر من خمسين ألف كتاب من مجموعته الشخصية. شكّلت هذه الهدية السخية نقطة انطلاق لنهضة علمية وثقافية في بغداد، انعكست في إنشاء العديد من المكتبات الأخرى التي لم تقتصر على صفوة الناس وحسب، بل ضمت قاعات للقراءة وأماكن مخصصة للنسخ، مفتوحة لعامة الناس.

أدى هذا الاهتمام إلى انتعاش غير مسبوق في صناعة الكتاب. كان النساخون يعملون في قاعات مخصصة لقراءة النصوص بصوت عالٍ، مما سمح بإنتاج نسخ متعددة من ذات الكتاب بسرعة وكفاءة. خلال جيل واحد، لم يخلُ أي قصر من قصور بغداد من مكتبة غنية تضم مختلف أنواع الكتب.

رغم إنكار بعض الباحثين المتخصصين في تاريخ البحر المتوسط لدور الحضارة الإسلامية في حفظ ونقل الموروث المعرفي القديم؛ فإن الترجمة العربية لعبت دوراً جوهرياً في هذا السياق. وقد وصلت العديد من المؤلفات الكلاسيكية اليونانية والرومانية إلى أوروبا في العصور الوسطى بفضل الترجمات العربية للنصوص القديمة، والتي غالباً ما كانت الوسيلة الوحيدة لنقلها إلى الأجيال اللاحقة. وفي حين نشط إنتاج المخطوطات في بلاط الإمبراطور شارلمان (١٤٢-١٩٢هـ/ ٧٤٢-٨١٤م) وبعض أديرة أوروبا، إلا أن هذه الأنشطة لم تسفر عن دراسات علمية تُضاهي الإنتاج الفكري الذي شهدته بغداد.

لذا، يمكن القول إن الترجمة العربية كانت حجر الزاوية في الحفاظ على المعرفة القديمة وإحيائها.

جرى التبادل الثقافي بحرية مطلقة، مما أدى إلى انتشار واسع للمعارف في مختلف المجالات، سواء في العلوم أو الشريعة والفقه أو العلوم السياسية والفلسفة والقانون والتاريخ والأدب، وخاصة الشعر. فقد كان الخلفاء وحاشيتهم يعظمون فنون الشعر وإلقائه الذي كان يميز الأدب العربي. كان الشعراء الذين يلقون الشعر والعازفين الذين يعزفون الموسيقى يتمتعون بالمجد والثروات.

في ذلك الشأن نذكر أيضًا أنه عندما تولى هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م) منصب الخليفة، استدعى معلمه يحيى بن خالد البرمكي وقال له: «قد قَوَّضْتُ إليك أمر الرِّعية، وخلعتُ ذلك من عُنُقِي وجعلته في عُنُقِكَ، فولُّ من رأيت واعزل من رأيت». بناءً على ذلك، بادر يحيى بن خالد عالم الرياضيات الحجاج بن يوسف بن مطر بالشروع في ترجمة أولية لكتاب «عناصر إقليدس»، وهو عمل رياضي وهندسي مرموق يتألف من ١٣ مجلدًا، يُعتقد أنه كُتب حوالي عام ٣٠٠م في الإسكندرية على يد عالم الرياضيات اليوناني إقليدس. ظل هذا الكتاب مرجعًا رئيسيًا في الهندسة لعدة قرون لاحقة، ولُقّب صاحبه بـ أبو الهندسة.

وسرعان ما حذت النخبة البغدادية حذو يحيى بن خالد البرمكي في الحفاظ على النصوص القديمة، حيث تبرعت لإنقاذها وترجمتها. لكن لسوء الحظ، انتهت حياة يحيى نهايةً مأساوية؛ إذ صب الخليفة هارون الرشيد غضبه على عائلته حوالي عام ١٨٧هـ / ٨٠٣م، وأمر بسجنه حتى لقي حتفه في زنزانه بعد ثلاث سنوات.

في وقت لاحق، عمل الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م)

على ازدهار وإنماء أهم مركزاً علمياً وثقافياً في بغداد «بيت الحكمة» الذي أسسه والده الخليفة هارون الرشيد، وجعله مركزاً علمياً مزدهراً، يمكن مقارنته اليوم بجامعات عريقة مثل أكسفورد أو هارفارد، ووصل في عهد المأمون إلى قمة تطوره، حيث جمع بين مكتبة ضخمة ومركز للترجمة والبحث، وساهم بيت الحكمة في ازدهار العلوم والمعارف، وأصبح رمزاً للعصر الذهبي للحضارة الإسلامية. ضم بيت الحكمة طاقماً متنوعاً من النساخين، والمجلدين، والمترجمين. بدأت أعمال الترجمة فيه بالتركيز على العلوم والفلسفة من اليونانية والسريانية والفارسية إلى العربية، ومع مرور الوقت، توسع نطاق العمل ليشمل لغات أخرى، مما جعل بيت الحكمة مركزاً للإبداع العلمي والثقافي وأسهم في ازدهار حضارة بغداد.

نعود مرة أخرى إلى بغداد أو المدينة الدائرية ووصفها من كتاب «ألف ليلة وليلة»، حيث تقول أحد شخصيات الكتاب: «رأيت قصراً فائق الجمال، مفروشاً بالرخام، تغطيه الستائر الفاخرة، في وسطه حديقة مزهرة لم أر لها مثيل». ويختم حديثه بالإشادة بكرم وعطاء وحكمة الخليفة.

كما وصف الجغرافي والرحالة المقدسي بغداد وبهائها في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»^(١)، قائلاً:

«مصر الإسلام، وبها مدينة السلام. ولهم الخصائص والظرافة، والقرائح واللطافة، هواء رقيق، وعلم دقيق. كل جيد بها، وكل حسن فيها. وكل حاذق منها، وكل ظرف لها. وكل قلب إليها، وكل حرب عليها، وكل ذب عنها. هي أشهر من أن توصف وأحسن من أن تنعت

(١) رحلة المقدسي: «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، بيروت، المعهد العربي للدراسات والنشر، ٢٠٠٣.

وأعلى من أن تمدح أحدثها أبو العباس السفاح ثم بنى المنصور بها مدينة
السلام وزاد فيها الخلفاء من بعده».

مكتبة
t.me/soramnqraa

قرطبة، مدينة النور

لا شيء في الماضي أكثر غموضًا أو إثارة للقلق،

فكلما نبشنا فيه نجد أنفسنا نغدو غير حقيقيين بالنسبة لأنفسنا.

إميل-أوغست شارتيه، المعروف بالأن.

في ذروة مجدها، لم تكن قرطبة مجرد مدينة، بل كانت مركزًا حضاريًا نابضًا جمع بين الثقافات واللغات والعادات المتنوعة. عاش على أرضها المسلمون والمسيحيون واليهود جنبًا إلى جنب، في بيئة تميزت بالتعدد الثقافي وشغف العلم والابتكار. ورغم أن اللغة العربية كانت لغة العلم والمعرفة، إلا أنها لم تُقص اللغات الأخرى، مما أضفى على قرطبة طابعًا فريدًا كنموذج حي للتفاعل بين الشرق والغرب. هنا، اندمجت التقاليد الإسلامية مع إرث الشعوب الأخرى، وأسهم أهلها بفاعلية في نهضة شملت الفلسفة والطب والفلك والفنون والترجمة. شكل هذا التنوع الثقافي مصدرًا للقوة والإبداع، ليجعل من قرطبة منارة للعلم والتسامح، تاركة بصمة لا تُمحى في مسيرة الحضارة الإنسانية.

في مجتمع قرطبة المتعطش للعلم، كان اقتناء الكتاب رمزًا للثقافة والمكانة الاجتماعية. حرص أهل قرطبة، على اختلاف خلفياتهم الثقافية والاجتماعية، على اقتناء مكتبة شخصية، ولو صغيرة، تُعبر عن مكانتهم.

وكان الأمير الحكم الثاني (٣٥٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م)، المثال الأبرز لهذا الشغف بالمعرفة في قرطبة. أنشأ مكتبة أسطورية تضم ٤٠٠,٠٠٠ مخطوطة، تم استقدام معظمها من بغداد، مركز العلم في العالم الإسلامي حينها. لم يكن جمع هذه الكنوز الفكرية مهمة عادية، بل استُخدمت المخطوطات إلى قرطبة في قوافل ضخمة، حملتها آلاف الجمال، في مشهد يعكس عظمة المشروع الثقافي الذي ازدهرت به قرطبة، وجعلها إحدى أعظم مراكز الفكر في العصور الوسطى.

تعكس هذه الطرفة التي تروى عن قرطبة شغف أهلها بالكتب وتقديرهم للمعرفة، حتى ولو لم تكن لديهم خلفية علمية عميقة. يُقال إن الفيلسوف ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ / ١١٢٦-١١٩٨م) حضر مزادًا علنيًا حيث أبدى اهتمامه بنسخة مجلدة وأنيقة من كتاب «تيمايوس» لأفلاطون، مترجمًا إلى اللغة العربية. في كل مرة كان يزيد السعر، كان رجل مجهول يزيد عليه. فوجئ ابن رشد، الذي ظن أن منافسه من عشاق الكتب، بأن الرجل يعترف بعدم معرفته بمضمون الكتاب تمامًا، قائلاً:

«نظرًا لضرورة الامتثال لمتطلبات المجتمع الراقي، فعليّ أن أمتلك مكتبة لائقة. وهناك مساحة فارغة على رفوف مكتبي تنتظر كتابًا بهذا الحجم بالضبط!»

سواء كانت هذه القصة حقيقية أم مجرد رواية خيالية، فإنها تعكس مكانة الكتب في قرطبة، حيث لم تكن المكتبات مجرد خزائن للعلم، بل رموزًا للمكانة الاجتماعية والثقافية. ولم يقتصر هذا الاهتمام بالكتب على الرجال فقط، بل كانت النساء القرطبيات أيضًا مساهمات بارزات في هذا المجال. بعض النساء امتلكن مكتبات خاصة، وكانت منهن من تخصصن في نسخ القرآن الكريم بالخط الكوفي، كما أن بعضهن قدمن

دروسًا في الخط والشعر للفتيات، وساهمن في نشر التعليم والثقافة بين الأجيال. ومما يستحق الإشادة أن عمل النساء في نسخ النصوص كان غالبًا أكثر دقة وإتقانًا من عمل الرجال، رغم أنهن كن يتقاضين أجرًا أقل.

كان الخط العربي في تلك الفترة من عمر الحضارة الإسلامية ليس مجرد وسيلة للكتابة، بل هو فن متكامل يزين ويكمل الأشكال والأشياء، مانحًا إياها بُعدًا جماليًا. فهو لا يقتصر على نقل الكلمات والمعاني، بل يتحول إلى عنصر زخرفي يزين الأواني، المخطوطات، الجدران، والمنسوجات، مما يمنحها قيمة فنية تتجاوز وظيفتها الأساسية. فالخطاط لا يبتكر شيئًا جديدًا، بل يُضفي لمسة فنية على وسائل موجودة مسبقًا، سواء كانت أواني، كتبًا، أو حتى جدرانًا. بهذا المعنى، يمكن اعتباره حرفيًا يَجمَل ظاهر الأشياء، ويُعد الخط العربي الركيزة الأساسية للزخرفة الإسلامية، حيث يسود التجريد والابتعاد عن التصوير الحسي، ليحل محله عالم من الأشكال الهندسية والنباتية المتكررة بانسيابية وتناغم لا نهائي.

كما تعد الزخارف النباتية في الفن الإسلامي من أبرز عناصر التزيين التي تعكس حسًا جماليًا رقيقًا، حيث استلهمت من الطبيعة زخارف وأشكال دون تقليدها بشكل مباشر. فعوضًا عن تصوير النباتات بهيئتها الحقيقية، أعاد الفنانون تشكيلها بأسلوب تجريدي متكرر، ليخلقوا أنماطًا زخرفية تنبض بالحركة والانسجام. عُرفت هذه الزخارف باسم فن الأرابيسك (التوريق)، الذي استلهم رمزيته من التصورات الدينية عن الجنة، حيث تصوّرت النصوص الإسلامية الجنة كحديقة غنية بظلالها وثمارها، فانعكست هذه الرؤية على الفن الإسلامي ليصبح الزخرف وكأنه تجسيد مرئي لوعد بالخلود الأبدي، مما جعله عنصرًا أساسيًا في تزيين العمارة والمخطوطات والفنون التطبيقية الإسلامية.

على بعد بضعة كيلومترات من قرطبة، أسفل السفح الجنوبي لـ «جبل العروسة» ضمن سلسلة جبال «سييرا مورينا»، أمر الخليفة عبد الرحمن الثالث (٢٧٧-٣٥٠هـ / ٨٩١-٩٦١م) ببناء مدينة تعدُّ من عجائب العصر، وهي مدينة الزهراء. وتُروى قصة إن عبد الرحمن كان مغرمًا بإحدى خليلاته التي تُدعى «زهراء»، فوعدها، تعبيرًا عن حبه، أن يُشيد أروع مدينة في العالم تحمل اسمها. سواء صحت هذه الرواية أم لا، فقد سُيّدت مدينة الزهراء التي اتفق من زارها على تفرداها وثراءها.

كان الطريق الذي يربط مدينة الزهراء بقرطبة مضاء بمئات الفوانيس التي جعلتها تبدو من أعلى أسوار المدينة كأنها عقد من اللآلئ المتناثرة يمتد حتى أسفل القصر. كان هذا المشهد الفريد شاهداً على التقدم الحضري في الأندلس، حيث تم تزويد معظم مدنها آنذاك بإضاءة عامة، في وقت كانت فيه شوارع روما وباريس ولندن غارقة في الظلام. عمل أكثر من عشرة آلاف شخص يوميًا على بناء مدينة الزهراء وقصرها، مستخدمين أفخم مواد البناء. أما الحقائق التي كانت تحيط بالمباني، فقد امتدت عبر مساحات شاسعة. تروي الأسطورة أن إحدى برك المدينة الأربع كانت مملوءة بالزئبق، وعندما يأمر الخليفة عبد الرحمن الثالث، يقوم أحد الخدم بهز سطح المعدن السائل بعضا، ما يؤدي إلى تشتيت الانعكاس على سطح البركة إلى مئات الانعكاسات المتحركة. هذا المشهد الساحر كان يُعتبر كناية رمزية وكأن الخليفة قادر على التحكم في حركة الكون نفسه.

كانت الحقائق تزخر بمئات الأشجار المستوردة والطيور ذات الألوان الزاهية، والتي يُعتقد أن بعضها كان يضم ببغاوات تُصدر أصواتًا تحاكي كلام البشر. وبين هذه الحقائق، توزعت برك المياه التي تسبح فيها فصائل مختلفة من الأسماك، والنوافير التي تم جلب مياهها عبر قنوات من جبال سييرا مورينا. إحدى النوافير كانت على شكل فيل، وأخرى

على شكل أسد بفم مفتوح، مما يعكس إبداع فناني الأندلس. كما زُين القصر بزخارف مُرصعة بالأحجار الكريمة ودمى ذاتية الحركة لها أعين زجاجية، تنحني تحية للخليفة عند مروره.

ولنتخيل قدر الانبهار الذي شعر به الزوار القادمون من الغرب حين رؤية مدينة الزهراء وقصرها، وهم الذين كانت منازلهم البدائية تغمرها روائح القش والشحم. لقد تميزت الأندلس بقدرتها على تحقيق توازن بين التنوع العرقي والديني، وكان المسجد الكبير في قرطبة خير مثال على هذا التناغم، حيث جمعت مكوناته بين عناصر فنية من مختلف الحضارات: فالأسقف الجمالونية منقولة عن سوريا والفسيفساء من بيزنطة والقباب أصلها من تونس والعقود من بلاد فارس بينما أتى التناوب بين الحجر والطوب من تراث مدينة روما المعماري.

في أحد أيام سنة ٢٠٦هـ / ٨٢٢م، نزل في قرطبة عازف العود أبو الحسن علي بن نافع، المعروف بلقب «زرياب»، وكان قد جاء من بغداد. كان زرياب في الثلاثين من عمره، واختلفت المصادر في أصله، فالبعض يشير إلى أنه من مواليد الموصل (وهو الأكثر احتمالاً) بينما يشير آخرون أنه ولد في تركيا.

ربما كان لقب «زرياب» يعني في العربية «الشحور الأسود»، وهناك تفسيرات متعددة حول سبب تسميته بهذا الاسم، ومنها لون بشرته، إذ يُرجح أن بشرة زرياب كانت سوداء أو داكنة، وربما كان ينحدر من مناطق كردستان حيث تكثر هذه السمة. وقد تتلمذ زرياب في بداياته على يد إسحاق الموصلي، الموسيقي العظيم في بغداد. لكنه تجاوز أستاذه بفضل موهبته الفذة، ما أثار غيرة أستاذه ومعلمه الأول. التقى زرياب بالخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي أعجب كثيراً بعزفه وصوته، مما زاد من حدة التوتر بينه وبين الموصلي الذي غضب من شهرة تلميذه

المتزايدة، وهدده قائلاً: «لولا احتفاظي ببعض المودة لك، لما ترددت في قتلك، بغض النظر عن العواقب».

وخيرّه الموصلّي بين مغادرة بغداد مقابل مبلغ من المال يكفيه لتلبية احتياجاته، أو مواجهة بطشه والمخاطرة بحياته. خشي زرياب من تنفيذ تهديدات أستاذه، فقرر مغادرة بغداد تاركًا وراءه المدينة التي شهدت بداياته الفنية وذهب إلى قرطبة.

حزم زرياب حقائبه!

بعد مروره بالقيروان وخدمته للحاكم الأغلبي زيادة الله (٢٠١-٢٢٣هـ / ٨١٧-٨٣٨م) عدة سنوات، غادر زرياب دون تفسير واضح، متجهًا إلى الأندلس حيث كانت شهرته قد سبقته. وصل إلى قرطبة، عاصمة الدولة الأموية في الأندلس، ليبدأ فصلًا جديدًا من حياته في خدمة الأمير عبد الرحمن الثاني (٢٠٦-٢٣٨هـ / ٨٢١-٨٥٢م). فور وصوله إلى قرطبة، استقبل الأمير زرياب استقبالًا حافلًا. وكما حدث مع الخليفة العباسي هارون الرشيد، سحر زرياب الأمير بصوته وعزفه الفريد. كان عبد الرحمن الثاني مفتونًا تمامًا بموسيقاه، لدرجة أنه رفض سماع أي مطرب آخر غير زرياب.

لم يكن زرياب مجرد مغنيًا وموسيقيًا بارعًا بل كان أيضًا شاعرًا، ومبدعًا مجددًا؛ حيث قام بإدخال تغييرات جذرية على آلة العود، بعد أن أضاف له وترًا خامسًا، مما أتاح له تقديم تنوعات موسيقية غير مسبوقة. كما استبدل الريشة الخشبية التقليدية بمخلب نسر أو صقر.

وفقًا للمؤرخ الأندلسي ابن القوطية، وقع الأمير عبد الرحمن الثاني تحت تأثير إحدى أناشيد زرياب لدرجة أنه أمر أمين بيت المال بمنحه مكافأة ضخمة بلغت ٣٠,٠٠٠ دينار، وهو مبلغًا فلكيًا بمعايير تلك

الفترة. أثار هذا القرار اعتراض أمناء الخزانة الذين اعتبروا المكافأة إسرافاً لا يليق بأموال الدولة. وقالوا للأمير:

«حتى لو كنا مجرد أمناء خزانة الأمير، حفظه الله، فإننا أيضاً ممثلون للمسلمين، ومسؤولون عن الضرائب التي يجب أن تُنفق لصالحهم، وليس لإهدارها على مطرب. ليققطع الأمير هذا المبلغ من خزينته الخاصة».

من الصعب تصور أن أمناء بيت المال تجرأوا على توجيه مثل هذا الاعتراض المباشر للأمير عبد الرحمن الثاني. ربما تكون هذه الرواية من نسج خيال المؤرخين أو محبي الأساطير الذين أرادوا تضخيم الحكاية للتأكيد على مكانة زرياب الفريدة وتأثيره الكبير في البلاط.

كان زرياب رمزاً للأناقة والذوق الرفيع، وعاشقاً للفخامة والجمال. أدخل إلى بلاط قرطبة أسلوب الملابس القادم من بغداد، وأحدث تغييراً جذرياً في تقاليد المطبخ الأندلسي. يمكن اعتباره بمثابة أيقونة للأناقة والإبداع. حمل إلى قصر قرطبة أذواق بغداد الراقية، ليحدث ثورة في عادات الطعام والمائدة. كانت الأطباق المقدمة في الأندلس -باعتبارها في قلب أوروبا- متأثرة بالوصفات الرومانية، والجرمانية، والعربية، أو الأمازيغية، وكانت تُقدَّم بشكل عشوائي دون تنسيق. تمثلت عبقرية زرياب في مزجه بين المكونات المختلفة كالدواجن والأسماك والخضروات ليبتكر أطباقاً جديدة تجمع بين الحلو والمالح، مع تقديمه لحلويات شهية أصبحت جزءاً من المطبخ الأندلسي. ولم يكن هذا التطور مفاجئاً، فقد كانت بغداد في القرن التاسع الميلادي مركزاً لولادة الأدب المتخصص في الطبخ كما سجلها مؤلف محمد بن الحسن البغدادي في كتابه الشهير «كتاب الطبخ». يشهد هذا الكتاب على عظمة تراث الطهي العربي-الفارسي، الذي كان له تأثير كبير. وقد لاقى هذا

الكتاب شهرة واسعة بعد ترجمته إلى اللغة التركية بدءاً من القرن السادس عشر.

قرر زرياب إنشاء معهد موسيقي في قرطبة، حيث بدأت الموسيقى الأندلسية تتطور تدريجياً لتأخذ شكلاً مختلفاً بفضل مفهوم «النوبات» بشكل خاص، وهو مصطلح يعني «انتظار الدور». ويُعتبر زرياب هو مؤسس هذه السلسلة الموسيقية الشهيرة التي تتألف من ٢٤ جزءاً، جزء لكل ساعة من اليوم. كل نوبة تتكون من تسع حركات، لكل واحدة إيقاع خاص بها، وتتناسب هذه الحركات مع أنماط متنوعة. ومن هنا بدأت الموسيقى العربية الأندلسية في الظهور. إلى جانب كونه ملحنًا، يُنسب إليه تأليف ألف قصيدة موسيقية كانت تُعزف وتُغنى في الأندلس وأجزاء كبيرة من حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد توفي زرياب في عام ٢٣٨هـ / ٨٥٢م، وهو في ذروة شهرته.

شاعرات ومتمردات

«المرأة التي ترى أبعد من النجوم،
تأخذ بيد الرجل وتهديه بنورها»

جلال الدين الرومي، المثنوي المعنوي،

الكتاب الثالث، البيت ٣٧٦٥

شهدت الأندلس الإسلامية ازدهارًا لمواهب نسائية استثنائية قدّمت إسهامات بارزة في الأدب والشعر والفكر. من بين هؤلاء النساء نذكر: نزهون الغرناطية، شاعرة ذاع صيتها بجرأتها الأدبية وشخصيتها المتميزة. تميّزت بإتقانها لفن الشعر الهجائي، حيث كانت تتبادل الأبيات القوية مع الشعراء، وتُعبر ببلاغة عن قضايا مهمة تتعلق بمكانة المرأة في المجتمع. أثرت كتاباتها في تغيير الأنماط التقليدية السائدة. كذلك ولادة بنت المستكفي، التي عُرفت بلقب «سافو العرب» وسافو هي شاعرة الحب والجمال عند اليونان. بعد وفاة والدها، اختارت ولادة حياة مختلفة تمثل حرية الفكر والتعبير^(١). وكانت تستعرض قوتها واستقلالها عبر أبيات شعرية حفرتها على أكمّام ثيابها، تقول فيها:

(1) Osire Glacier. *Études Marocaines* [دراسات مغربية] Athabasca University, Alberta, Canada.

«والله إني لأصلح للمجد، وأمضي بعزي أفيد وأغنم»

و: «أمنح لمن أحب ودي، وأعيش بفخر على طريقي».

جسدت ولادة في حياتها نموذجًا للمرأة المستقلة التي تعبر عن طموحاتها بجرأة وشجاعة.

أما عائشة بنت أحمد القرطبية، فقد كانت من أبرز نساء عصرها، واشتهرت بحبها للأدب والاستقلال الفكري. فضّلت حياة العلم والإبداع على الزواج، وعُرفت بجودة شعرها وبراعة خطّها، حتى أصبحت المخطوطات التي كتبتها بيدها مثار إعجاب معاصريها. ونذكر كذلك حفصة بنت الحاج الركونية، شاعرة من غرناطة، أبدعت في كتابة الشعر منذ صغرها، وتميزت بتعبيراتها الأدبية الراقية ومعانيها العميقة. كانت كلماتها تحمل مشاعر صادقة وتفيض بالجمال اللفظي، مما جعلها من أبرز شاعرات الأندلس. أما رابعة العدوية، فهي من أكثر النساء تأثيرًا في التصوف الإسلامي. وُلدت في البصرة حوالي عام ٧١٨ ميلادية لعائلة متواضعة. ورغم صعوبات حياتها، كرّست رابعة نفسها لحب الله، وابتعدت عن زخارف الدنيا، لتصبح رمزًا للزهد والتقوى.

وعند وفاتها، قيل إنها طلبت من أصدقائها أن يفسحوا المجال لملائكة الرحمة، وقبل أن تفارق الحياة، ردّت الشهادة، وكأنها تسمع نداءً إلهيًا يدعوها للعودة إلى خالقها.

تأمل تاريخي

تبرز هذه الشخصيات النسائية إشراقة حضارية تعكس مكانة المرأة ودورها الفعال في المجتمع الإسلامي، حيث أتيحت لها فرصة الإبداع والتعبير عن فكرها في وقت كانت المرأة في أوروبا تعاني من القيود

المفروضة عليها من الكنيسة. هذه الأسماء ليست إلا جزءًا من إرث ثقافي غني تستحق دراسته والإشادة به.

الشعر في الفنون الإسلامية

كان الشعر دائمًا في طليعة الفنون الإسلامية، حيث مثل وسيلة راقية للتعبير عن المشاعر والأفكار. ومن أبرز أشكال الشعر العربي القديم القصيدة، التي تعود جذورها إلى العصر الجاهلي. تتألف القصيدة التقليدية من بنية متكاملة تبدأ بالوقوف على الأطلال، حيث يسترجع الشاعر ذكرياته مع الحبيبة ويعبر عن حنينه وألمه لفقدانها. يلي ذلك تصوير الرحلة في الصحراء، بوصف دقيق للدابة، سواء كان فرسًا أو جملاً، إلى جانب تصوير الحياة البرية والنباتات المحيطة. تنتهي القصيدة بالغرض الأساسي الذي يدور حوله النص، سواء كان مدحًا للقبيلة، أو هجاءً للأعداء.

أما المعلقة، فهي من أروع نماذج الشعر العربي القديم، وقد أصبحت مرجعًا ومصدر إلهام للشعراء اللاحقين. هناك نظريات متعددة حول سبب تسميتها بهذا الاسم. تشير إحدى النظريات إلى أنها كُتبت واختيرت أجملها في سوق عكاظ لتعليقها على جدران الكعبة تقديرًا لجمالها الفني. بينما ترى نظرية أخرى أن الاسم يُشير إلى ارتباط القصائد ببعضها البعض ضمن سلسلة أدبية متقنة تمثل نمطًا مثاليًا للشعر الجاهلي. هكذا يُبرز الشعر العربي القديم عبقرية فنية وأدبية فريدة، ويشكل أساسًا مهمًا لفهم تطور الأدب العربي والإسلامي.

مختارات من روائع العباقرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له طريقاً إلى الجنة».

حديث شريف

في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، برز العديد من العلماء الذين كانوا يترددون على «بيت الحكمة» في بغداد، من بينهم عالم الرياضيات والفلك الشهير محمد بن موسى الخوارزمي (ت. بعد ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، المعروف بأبي الجبر، والذي كان له دور أساسي في تطوير علم الرياضيات. كما اشتهرت أسماء بني موسى بن شاذان: محمد وأحمد والحسن، وُلد بنو موسى في كنف موسى بن شاذان الخراساني، أحد كبار علماء الفلك والرياضيات الذي عاصر زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد. بحسب الرواية الأرجح، وعندما وافته المنية، تكفل الخليفة المأمون برعاية أبنائه محمد وأحمد والحسن، فاحتضنهم في بيئة علمية ثرية. وبفضل ذكائهم الفذ وفضولهم اللامحدود نالوا إعجاب معلمهم، ومن بينهم الفلكي يحيى بن أبي منصور (ت. ٢١٥هـ/ ٨٣٠م)، الذي أطلق شرارة نبوغهم في علوم الفلك والرياضيات. سرعان ما صعد بنو موسى إلى مكانة مرموقة في بلاط المأمون، وامتلكوا ثروة طائلة مكّنتهم من توظيف عدد كبير من المترجمين لنقل العلوم إلى اللغة العربية. كان

هؤلاء المترجمون يتلقون راتبًا شهريًا يبلغ ٥٠٠ دينار لكل منهم. ويُذكر أن الدينار الذهبي الواحد كان يزن حوالي ٤,٢٥ غرام من الذهب الخالص في تلك الفترة^(١).

خصص آل موسى بني شاعر جزءًا كبيرًا من ثروتهم لاقتناء المخطوطات، حيث أوفدوا وكلاء متخصصين للبحث عنها في المقاطعات البيزنطية لجمع المخطوطات النادرة، وأحيانًا كانوا يتولون هذه المهمة بأنفسهم، في مزيج من حب العلم والسعي الدؤوب لخدمة المعرفة. في إحدى المرات كان أحد الإخوة الثلاثة، يُرجح أنه محمد، يتولى مهمة البحث عن المخطوطات شخصيًا في إحدى رحلاته، وعند مروره بمدينة حرّان الواقعة جنوب شرق تركيا حاليًا، تعرّف محمد على ثابت بن قُرّه (ت. ٢٨٨هـ / ٩٠١م)، وأعجب بفطنته نظرًا لإتقانه ثلاث لغات: الإغريقية، والسيانية (لغة الأم)، والعربية.

فيما يتعلق بأصول ثابت بن قرة، فهو ينحدر من عائلة أصلها من الصابئة ثم أسلمت، وتذكر بعض المصادر التاريخية أنه كان يعمل صيرفيًا (أي صرّافًا بلغتنا المعاصرة). عرض عليه محمد بن شاعر مصاحبته إلى بغداد للعمل كمترجم في بيت الحكمة، وهو اختيار يُظهر بصيرة وحكمة فائقتين من ابن شاعر.

عند وصوله إلى بغداد، انكبَّ ثابت على ترجمة أعمال كبار الرياضيين اليونانيين إلى العربية، من بينهم أرشميدس، وأبولونيوس من بيرجا^(٢)، وبطليموس كلاوديوس. كما لخص مؤلفات الطبيبان جالينوس

(1) Hugh Kennedy. *When Baghdad Ruled the Moslem World: The Rise and Fall of Islam's Greatest Dynasty* صعود [عندما حكمت بغداد العالم الإسلامي: صعود وأبوط أعظم سلالة في الإسلام] Boston, Da Capo Press, 2005.

(٢) ولد حوالي ٢٤٠ق.م، اشتهر بين معاصريه بـ «كبير المساحين»، يعتبر بحثه حول الهندسة الإقليدية بعنوان «المخروط» أحد أعظم البحوث العلمية في العالم القديم.

وهيبوقراط، وكتب في الفلسفة الأرسطية. إلى جانب ذلك، ألف ثابت أعمالاً أصيلة في الهندسة، ونظرية الأعداد، الموسيقى، والفلك، والطب، والفلسفة، ولذلك فهو يُعد وبحق ثابت نموذجاً فريداً للعالم الموسوعي الذي كان أحد سمات تلك الحقبة.

تُجسد أعمال ثابت روح العالمية التي كانت شائعة في تلك الفترة، مما جعله مؤسساً لسلسلة من العلماء، لم يكن تأثير ثابت بن قرة مقتصرًا على إنجازاته العلمية والبحثية الشخصية؛ بل امتد إلى ذريته التي أسهمت في إثراء العلوم العربية. فقد أصبح ابنه، سنان بن ثابت (ت. ٣٣١هـ/ ٩٤٣م)، طبيباً شخصياً لعدد من الخلفاء العباسيين وترأس عدة بيمارستانات (مستشفيات) في بغداد. أما حفيده، إبراهيم بن سنان (ت. ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)، فقد برز كواحد من أعظم علماء الرياضيات في القرن العاشر الميلادي.

لقد أظهرت مسيرة ثابت وأسرته الطرق المبتكرة التي اتبعها العرب في السعي وراء المعرفة. ومما يثير الإعجاب هو اهتمام العرب الشديد بالفلك، وهو أمر منطقي في ظل الحاجة إلى تحديد مواقيت الصلاة، واتجاه القبلة. وقد أعطى هذا الاحتياج الديني دافعاً قوياً لدراسة الفلك، وأسهم في الاعتقاد بأن الأجرام السماوية تؤثر على شؤون البشر وظروفهم. ومن هنا نشأ علم النجوم أو علم التنجيم، كجزء من علم الفلك المعروف أيضاً بعلم الهيئة، وهو العلم الذي يدرس تكوين السماوات. يمكن القول إن علم الفلك الغربي في العصور الوسطى لم يكن ليظهر لولا الترجمات العربية، حيث استكمل العرب ما بدأه الإغريق وأضافوا إليه إسهامات الفرس والهنود.

أما عن المصادر المسيحية، فقد عانت لفترة طويلة من هيمنة رجال

الدين المتخصصين الذين قصرُوا الأدب على مواضيع دينية، مثل الحياة الرهبانية أو سير القديسين، بينما تأخر ظهور النصوص القانونية الدنيوية حتى القرن الثالث عشر. أما الأدب في العصور الوسطى، فقد ركز بشكل أساسي على الروايات البطولية التي تسرد إنجازات الفرسان، مع غياب ملحوظ لأدب الرحلات البحرية.

على النقيض من ذلك، تميزت الحضارة الإسلامية بموسوعات علمية شاملة، ومنها أعمال أحمد بن ماجد، أحد أعظم الملاحين العرب في عصره الذي وُلد في جلفار (رأس الخيمة حاليًا) حوالي عام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م. منذ نعومة أظافره، وتحديدًا في سن السابعة، انكبّ البحار الصغير على دراسة الرياح، والتيارات البحرية، والمد والجزر، وحركة القمر، والنجوم، والشمس، بهدف تطوير مهارته في تحديد موقعه بدقة أثناء الإبحار في أعالي البحار. ترك لنا أحمد بن ماجد إرثًا علميًا قيمًا يتمثل في كتابه الشهير «كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد»، الذي ألفه عام ٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م. سنعود لاحقًا للحديث عن هذا الكتاب لما يحتله من مكانة بالغة الأهمية في تاريخ الملاحة البحرية.

على صعيد آخر، ومع التقدم الكبير الذي أحرزه المسلمون في ترجمة النصوص العلمية الأساسية إلى اللغة العربية، بدأ المسيحيون تدريجيًا يفقدون سيطرتهم على مجال الطب. وانتقلت مراكز العلم والتعليم الكبرى إلى مدن إسلامية بارزة مثل بغداد، البصرة، القاهرة، دمشق، قرطبة، طليطلة، بخارى، وسمرقند. أدى هذا التحول إلى ظهور مؤسسات علمية أشبه بالأكاديميات الحديثة، مثل «مجلس العلماء» الذي نشأ في غزون عام ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م تقريبًا. يُعد هذا المجلس نموذجًا أوليًا للأكاديميات العلمية التي لم تبدأ أوروبا في إنشائها إلا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

في اللغة العربية، يُطلق لقب «العالم»، على الباحث الذي يبرع في مختلف المجالات العلمية، سواء كانت طبيعية، رياضية، طبية، أو حتى شرعية، مما يعكس اتساع نطاق المعرفة في الحضارة الإسلامية مقارنة بالتصنيفات الضيقة التي كانت سائدة في الثقافات الأخرى آنذاك والتي كانت تقتصر على الشخص الذي يمتلك العلم في العلوم الدينية فقط.

لنُعد إلى بني موسى. يتضمن «كتاب الحيل» وصفًا لحوالي مئة اختراع من اختراعاتهم، حيث يصفون فيه أجهزة ميكانيكية، ولا سيما الآلات ذاتية الحركة التي تعمل بالبخار، أو تيارات الماء، أو المنافيخ (جمع منفاخ). ويبدو أنهم استحدثوا أيضًا آلة موسيقية تعتمد على الماء لتوليد الصوت تسمى أروغنا هيدروليكيًا. ومع ذلك، كان أعظم اختراعاتهم هو آلية تحويل الحركة الخطية للمكبس إلى حركة دوران باستخدام العمود المرفق (ذراع متصل بمكبس يُعرف حاليًا بعمود الكرنك، عندما يتحرك المكبس يحول حركته الترددية إلى حركة دورانية مثل عامود محركات السيارات المعاصرة). وصلت هذه التقنية الثورية إلى أوروبا في نهاية القرن الرابع عشر، ولا تزال تُعد جزءًا أساسيًا في مختلف المحركات الحديثة إلى اليوم.

إلى جانب ذلك، شاركوا في تجارب علمية جمعت علماء من مختلف الطوائف، وقد عيّنوا حنين بن إسحاق (ت. ٢٦٠هـ / ٨٧٣م)، النصراني النسطوري، مشرفًا على أعمال هؤلاء الباحثين. وكان هذا الفريق من العلماء خطوة سبّاقة في تاريخ البحث العلمي والعمل الفكري.

طلب الخليفة المأمون من بني موسى في إحدى المرات طلبًا مفاجئًا: «احسبوا لي محيط الأرض!» ولعلنا نتخيل ردة الفعل المتعجبة للأخوة الثلاثة. ومع ذلك، بدأوا في العمل على تلك المهمة. كان هناك من سبقهم في قياس محيط الأرض، حيث أجرى هذه الحسابات العالم

الإغريقي بطليموس كلاوديوس المعروف ببطليموس الفلكي قبل حوالي سبعة قرون، حيث قدر محيط الأرض بـ ١٨٠,٠٠٠ ستاديوم استنادًا إلى حسابات العالم الإغريقي الفلكي إراتوستينس الذي سبقه في هذا المضمار، وقدر محيط الأرض بـ ٢٥٠,٠٠٠ ستاديوم، أي حوالي ٣٩,٣٧٥ كيلومترًا.

ومع ذلك، في زمن بني موسى لم يكن هناك اتفاق دقيق حول قياس «الستاديوم» كوحدة قياس محيط الأرض. ولكنهم عرفوا أن حسابات بطليموس كانت تعتمد على فرضية بسيطة: إذا تمكنا من قياس درجة واحدة على سطح الأرض، كل ما علينا فعله هو ضربها في ٣٦٠ للحصول على قياس المحيط الأقرب للصحة. والحق أن أعمال بطليموس كلاوديوس في هذا المجال خطوة أساسية استفاد منها علماء مسلمون وعلى رأسهم بني موسى.

وتشير العديد من النصوص لفريق من أفضل الفلكيين الذي قاده الأخوة الثلاثة إلى الصحراء بالقرب من سنجار (التي تقع في شمال غرب العراق حاليًا)، مزودين بأجهزة الاستطلاع الفلكي، وأوتاد وحبال. من خلال حساباتهم الدقيقة، توصلوا إلى رقم تقريبي لمحيط الأرض يُقدر بـ ٣٩,٤٢٨ كيلومترًا، وهو أقل بـ ٦٤٧ كيلومترًا فقط من القيمة الدقيقة الذي توصلت إليه العلوم الحديثة وهي حوالي ٤٠,٠٧٥ كيلومترًا. وللتأكد من النتيجة الذي وصل إليها بنو موسى؛ أوفد الخليفة المأمون فريقًا آخر من الفلكيين للتحقق من قيمة محيط الأرض التقريبية، إلا أن الفريق الثاني توصل إلى نتيجة أقل دقة من الفريق الأول بقيادة بني موسى.

الأرض وكذلك البحار

«الأرض مدورة كتدوير الكرة،

والماء لاصق بها وراكد عليها ركوداً طبيعياً لا يفارقها»

الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

برز البحارة العرب كقوة مهيمنة على المحيطات من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر، مما أدى إلى تعزيز التواصل الثقافي بين الحضارات المختلفة، إلى جانب التبادل الثقافي والتجاري لمناطق تمتد من الهند إلى الخليج العربي وسوريا، وكذلك إلى الساحل الشرقي لإفريقيا، وجنوب شبه الجزيرة العربية، والبحر الأحمر، ومصر. خلال تلك الفترة، توسعت التجارة على سواحل المحيط الهندي وعلى طرق الصين، ما أدى إلى نشوء مدن تجارية جديدة على الساحل الشرقي لإفريقيا، مثل مومباسا وباراوا. وقد زار المؤرخ والجغرافي المغربي ابن بطوطة (ت. ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) مدينة مومباسا في القرن الثالث عشر، وأشار في كتاباته إليها باسم «منبسا». يُروى أن المدينة تأسست على يد شيخ مفيتا، أحد المسلمين من قبيلة السواحلية، ولهذا أُطلق عليها اسم «جزيرة مفيتا». أما باراوا، فقد كانت واحدة من أهم المراكز التجارية الإسلامية على الساحل الشرقي لإفريقيا، إلى جانب مقديشو التي لعبت دوراً محورياً كمركز تجاري للحضارة الإسلامية في المحيط الهندي.

كما توسّع النشاط التجاري العربي أيضًا ليصل إلى جزر سوندا، حيث عُثر في جزيرة جاوة على نقش عربي يعود إلى عام ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م. كما امتد هذا النشاط إلى مناطق أخرى مثل شبه الجزيرة الهندية الصينية في جنوب شرق آسيا، حيث تشير المصادر إلى أن قراصنة عرب قاموا بنهب ميناء خانفو (كانتون) في الصين عام ١٤١هـ/ ٧٥٨م. وبعد أربعة قرون، وصف الجغرافي الإدريسي (ت. ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) الرحلات السنوية للسفن الصينية التي كانت تجلب إلى الشرق بضائع مثل الحرير، والمخمل، والخزف، وأقمشة متنوعة. من جهة أخرى، حمل لتجار العرب من الإسكندرية سلعًا مثل المرجان، وأمشاط مصنوعة من الصدف، والمنتجات الزراعية كالحبوب لتبادلها في الجزر أو على سواحل المحيط الهندي بمنتجات تلك الدول. تشير النصوص العربية والصينية إلى أن العرب كانوا يبحرون بانتظام إلى الصين، حيث اكتشفوا نوع من أنواع السفن الصينية واسمها «جنك» والتي وصفها ابن بطوطة (ت. ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) بدقة في كتاباته. وعلى الرغم أن ابن بطوطة أشهر الرحالة العرب قضي عمره مرتحلًا بين البلدان، لكنه كان يعبر عن استيائه من بعض مظاهر السفر، مثل الازدحام على متن السفن والاختلاط أحيانًا مع الدواب. في إحدى رحلاته، ورغم تخطيطه للسفر مع صديق عزيز، فضّل أن يستقل مركبًا آخر، لأن هذا الصديق كان قد اصطحب جماله معه على السفينة!

تطورت كُتب الرحلات إلى نمط أدبي مستقل بذاته عند العرب منذ القرن الثامن الهجري/ الثالث عشر الميلادي، مقدمة سردًا فريدًا للمخبرات والمعارف المكتسبة من السفر. ومن أبرز الأمثلة: رحلة ابن جبير الكناني (ت. ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، المعروفة بعنوان «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، وهي رحلة أو مدونة سفر غنية بالملاحظات عن مشاهداته في رحلته إلى المشرق الإسلامي. ونذكر أيضًا كتاب «رحلة

السيرافي» أو رحلة سليمان السيرافي، وهو كتاب يرجع في الغالب إلى حوالي سنة (٢٣٧هـ=٨٥١م)، ويسرد رحلة التاجر سليمان السيرافي الذي سافر مرارًا بغرض التجارة إلى الهند والصين، ويصف المسارات التي امتدت من الخليج الفارسي وصولاً إلى الصين^(١). وهناك «كتاب عجائب الهند»، الذي جمع شهادات الرحلات البحرية للقبطان ابن شهريار، التي كُتبت بين ٢٨٧-٣٤٢هـ/ ٩٠٠ - ٩٥٣م، موثقًا ما شهدته البحارة المسلمون على سواحل المحيط الهندي. هذا بجانب كتاب الإدريسي (الشريف الإدريسي، ت. ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) الذي يُعد أحد أشهر الجغرافيين في التاريخ الإسلامي، وقد ضم وصفًا مفصلاً لرحلة بحرية كاملة من المغرب إلى فلسطين^(٢).

ووفقًا لما ورد في موسوعة الإسلام، أُحصيت أسماء أكثر من خمسين جغرافيًا في التراث العربي، مقسمين إلى فئتين رئيسيتين: الأولى هم المعنيون بالجغرافيا الرياضية والذين قاموا بدراسة موقع الأرض في الكون وتحديد مواقع المراقبين باستخدام أسس علمية دقيقة كعلماء الفلك، فقد كانوا روادًا في تطوير الملاحة الفلكية. أما الفئة الثانية فهم الجغرافيون الأدبيون أو الرحالة الذين اهتموا بجذب انتباه قرائهم من خلال وصف المعالم الجغرافية والعادات العرقية للشعوب. وكان من بين هؤلاء الجغرافيين أيضًا من خدم الخلافة العباسية من خلال سفرهم مثل

(1) Paul Charles-Dominique (éd.). *Notices et traduction de la "Relation de voyages"* [بيان وترجمة «سرد الأسفار»] In *Voyageurs Arabes* [رحالة عرب] et *Itinéraires des navires de l'Irak à la Chine* [مسارات السفن من العراق إلى الصين] Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade, 1995.

(2) R. Dozy et M. J. de Goeje (trad.). *Description de l'Afrique et de l'Espagne* [وصف إفريقيا وإسبانيا]، ١٨٦٦.

ابن خردادبة (توفي حوالي ٣٠٠هـ / ٩١٢م)، الذي عمل كمسؤول عن البريد والشرطة في القرن الثالث الهجري/ الحادي عشر الميلادي^(١).

كما بلور الجغرافي ابن الفقيه الهمداني (ت. ٣٤٠هـ / ٩٥١م) الجغرافيا كعنصر أدبي في كتابه الشهير «مختصر كتاب البلدان»، وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي نجد ابن حوقل أيضاً (ت. ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) كتب أشهر أعماله «صورة الأرض»، الذي قدّمه كنموذج للطبوغرافية المبنية على الملاحظة والرسم الدقيق.

أما وصف البحر المتوسط الذي أعده الجغرافي أبو الفداء إسماعيل بن علي (ت. ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)، فيبدو وكأنه كان ينظر إلى الخريطة أمامه لدقة تفاصيله^(٢). ومن الجدير بالذكر أن دخول المسلمين إلى منطقة شمال إفريقيا قام به رجال لم يكن لديهم أدنى خبرة في المعارك البحرية. وقد ورد في بعض المصادر ما نصه أن الخليفة عمر بن الخطاب (١٣- ٢٣هـ / ٦٣٤-٦٤٤م) كتب إلى قائده العام بعد فتح مصر ليسأله عن البحر وأحواله، فجاءه الرد: «إنه أزرق، شاسع، وخطير جداً». فقد نهى عمر بن الخطاب المسلمين من الاقتراب منه حينها، وإن صحت تلك الرواية فقد كان ذلك لفترة وجيزة للغاية في بداية عهد المسلمين بالبحر ومعاركه التي كانت تستلزم دراية وخبرة لم تكن متوفرة لديهم حينها. لكن مع مرور الوقت، أصبحت البحار الجنوبية (المحيطان الهندي والهادي) معبر لنشر رسالة الإسلام، حيث عبر المسلمون البحر الأحمر أولاً، ثم الخليج العربي إلى سواحل إفريقيا الشرقية، وصولاً إلى الصين شرقاً.

(1) Michael Jan de Goeje (éd. et trad.). *Kitab al-Masalik wa al-Mamalik* [كتاب المسالك والممالك] Leiden, 1889.

(2) M. Reinaud (éd. et trad.). *Géographie d'Aboulféda* [جغرافية أبو الفداء] Texte arabe publié d'après les manuscrits de Paris et de Leyde. Imprimerie nationale, 1840.

التعايش أم رفض الآخر؟

«وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»

حديث شريف

يُعدُّ انتشار الإسلام عبر العالم من الظواهر الفريدة في التاريخ البشري، يكفي أن نتأمل كيف احتاجت المسيحية إلى ثلاثة قرون بعد ظهور السيد المسيح عليه السلام حتى أصبحت ديانة الإمبراطورية الرومانية الرسمية في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول المعروف باسم ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥م).

لم يقتصر انتشار الإسلام على القوة العسكرية لقبائل الجزيرة العربية البدوية، بل شهد توسعاً استند إلى عوامل متعددة، منها التفاعل الثقافي والتجاري والتواصل الحضاري. ومع امتداد رقعة الإسلام، انضمت إليه مجتمعات جديدة، مثل الساسانيين في آسيا الوسطى، والسوريين والمصريين في شمال إفريقيا، والأمازيغ المغاربة الذين لعبوا دوراً بارزاً في تاريخ الأندلس. تزامن ذلك مع فترة ازدهار علمي ومعرفي، حيث كان العالم الإسلامي في طليعة النهضة الفكرية، في وقت كان الأوروبيون في العصور المظلمة يكافحون لتحسين ظروف حياتهم اليومية. فقد أسهم العلماء المسلمون في تطوير علم الفلك، واختراع علم الجبر، ووضع أسس الترقيم الحديث باستخدام الأرقام العربية، إلى

جانب ترجمة التراث العلمي والفلسفي اليوناني. هذه الإنجازات جعلت العالم الإسلامي مركزًا للإبداع الفكري والعلمي، مما أثرى الحضارة الإنسانية بشكل غير مسبوق.

لنا أن نتساءل: ماذا كان موقف هذه المناطق عندما دخل الإسلام بلادهم؟ الإجابة مذكورة في القرآن الكريم، وتحديدًا في سورة البقرة، الآية ٢٥٦ في قول الله العزيز الحكيم: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ». المبدأ الراسخ الذي أقره الإسلام بعدم إجبار الناس على اعتناق الدين، وهو ما يتسق مع تعاليم النبي محمد صلى الله عليه وسلم التي كانت تدعو دائمًا إلى احترام الأنبياء الذين سبقوه وتبجيلهم، مثل النبي عيسى أو إبراهيم أو موسى عليهم السلام أجمعين، وهو مصداق قول الله تعالى في الآية ١٣٦ من سورة آل عمران: «قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

بناءً على هذه المبادئ، اعتُبر المسيحيون واليهود في الإسلام «أهل الكتاب»، وأقر لهم وضعية «الذميين»، والتي تعني أنهم يعيشون تحت حماية الدولة الإسلامية مقابل دفع الجزية. هذه الجزية كانت بمثابة مساهمة رمزية مقابل ضمان أمنهم وحمايتهم. وعلى الرغم أنهم كانوا خاضعين لبعض القيود الاجتماعية، إلا أنهم تمتعوا بحرية دينية كاملة، مع حماية أرواحهم وممتلكاتهم وضمان استقلالهم في شؤونهم الشخصية. كما كان لهم قضائهم ومحاكمهم الخاصة، حيث يعيشون حياتهم اليومية وفقًا لمعتقداتهم وقوانينهم. وبالإضافة إلى ذلك، كانوا معفيين من المشاركة في الحروب التي تخوضها الدولة الإسلامية.

تمتعت تلك المجتمعات الذمية كذلك بحرية الاحتكام إلى شريعتهم

في شؤونهم الخاصة، حيث كان الأساقفة أو رجال الدين، مسؤولين عن فض النزاعات الداخلية. في بعض الأحيان، كان يتم الرجوع إلى القضاء الإسلامي لحل النزاعات التي تنشأ بين أفراد الطوائف المختلفة. مثال على ذلك هو القاضي والفقير «خير بن نعيم»، الذي عاش في مصر في القرن الثاني الهجري (٧٥١-٧٥٤م). كان هذا القاضي ينظر في قضايا الذميين، ويقبل شهادتهم بعد التأكد من مصداقيتها من خلال الرجوع إلى أفراد مجتمعهم من اليهود أو المسيحيين.

كما أشار المؤرخ والمستعرب الفرنسي أندريه ميكيل (١٩٢٩-٢٠٢٢) في أحد لقاءاته قائلاً: «كانت الحضارة الإسلامية قبل عام ١٠٠٠م حضارة تتمتع بمميزات لم تكن موجودة في الغرب - إذا كان يمكننا الحديث عن مصطلح الغرب بما نعرفه اليوم - حضارة تسامحت مع الديانات الأخرى على أراضيها».

بطبيعة الحال لم يكن انتشار الإسلام خاليًا من التحديات مثل الصراعات أو الحروب. وشهدت بعض المراحل استخدام القوة العسكرية لتحقيق أهداف التوسع شأن كافة الحضارات السابقة. ومع ذلك، يجب الإشارة إلى أن هذه السياسة لم تكن نهجًا عامًا متبعًا لانتشار الإسلام، حيث لعبت عوامل مثل التبادل التجاري، والتفاعل الثقافي دورًا محوريًا في تبني الإسلام دينًا من قبل شعوب مختلفة. كما أن سياسات الحكام تجاه أهل الذمة لم تكن ثابتة، بل تفاوتت بين فترات من التسامح وأخرى من التشدد وفقًا للظروف السياسية السائدة.

فعلى سبيل المثال في عهد بعض الخلفاء العباسيين، مثل الخليفة العباسي هارون الرشيد (حكم ١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م) نشهد سياسات متباينة تجاه الذميين. تشير بعض المصادر إلى أنه في عام ٨٠٦م، أصدر الرشيد أوامر تتعلق بتمييز الذميين في بغداد عن

المسلمين، شملت فرض ملابس مميزة لهم وتقييد وسائل تنقلهم. ومع ذلك، لم تكن هذه السياسات تمثل النهج العام في التعامل مع غير المسلمين، إذ شهدت الدولة العباسية فترات طويلة من التسامح والتعايش، وكان قرارًا يعكس حالة التوتر السياسي والعسكري بين الخلافة العباسية والإمبراطورية البيزنطية في تلك الفترة. ومع ذلك، ينبغي أن تُفهم هذه السياسات في سياق عصرها، حيث كانت العلاقات بين الطوائف الدينية تتأثر بعوامل سياسية وعسكرية معقدة.

أما خلال حكم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (حكم ٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢١م) فقد اتخذ بعض الإجراءات المتشددة تجاه المسيحيين واليهود، كان أبرزها تدمير عدد من الكنائس، ومن بينها كنيسة القيامة في القدس. ومن المهم الأخذ في الاعتبار أن سياسات الحاكم اتسمت بالتقلب الشديد بين سائر رعيته وليس فقط المسيحيين واليهود، مما دفع العديد من المؤرخين إلى التشكيك في حالته النفسية والعقلية. يُذكر أن هذه التصرفات لم تكن مقبولة حتى بين رعيته من المسلمين، حيث تسببت سياساته في معارضة داخلية وانتهت بفقدان السيطرة السياسية في أواخر حكمه. كما أن هذه السياسات لم تكن سمة دائمة للحكم الفاطمي، حيث تميزت فترات أخرى بسياسات أكثر تسامحًا، بل إن بعض الخلفاء الفاطميين الأوائل دعموا بناء الكنائس والأديرة، وشجعوا على التعايش بين مختلف طوائف المجتمع.

كما برزت تغييرات في السياسات القضائية المتعلقة بالتعامل مع غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية في القرن الرابع عشر، وكان من بين تلك القضايا تجارة الخمر. وفقًا لبعض المصادر التاريخية، أصدر بعض القضاة المغاربة فتوى تجرم بيع الخمر للمسلمين من قبل اليهود، حيث نصت على عقوبة الإعدام بحق المدانين، واسترقاق عائلاتهم. ما يُشير الانتباه أن هذه الفتوى عكست تغييرًا محوريًا؛ إذ لم تكن تجارة الخمر

مجرمة على هذا النحو في القرون الثلاثة التي سبقت ذلك. وبشكل عام، فإن العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة عبر التاريخ لم تكن خطأ واحدًا من الصراع أو الاضطهاد، بل تداخلت فيها عوامل سياسية واجتماعية أدت إلى فترات متباعدة من الانفتاح والتوتر.

وإذ قمنا بمقارنة تلك الأحداث السابقة بما حدث في محاكم التفتيش الإسبانية (١٤٧٨ - ١٨٣٤م) سنشهد فوارق ضخمة بين القمع الديني الشديد من المجتمع المسيحي الأوروبي في إسبانيا في العصور الوسطى وبين المجتمعات الإسلامية التي وفرت بيئة أكثر تسامحًا لليهود والمسيحيين مقارنة بأوروبا في تلك الفترة. قام هذا المجتمع المسيحي الأوروبي في إسبانيا بممارسات محاكم التفتيش الإسبانية باضطهاد المتحولين إلى المسيحية من اليهود والمسلمين الذين اشتبه في ممارستهم دياناتهم السابقة سرًا نظرًا لأنهم قد أُجبروا على اعتناق المسيحية. وكان توماس دي توركيمادا، أول مفتش عام في تلك الفترة، لعب دورًا رئيسيًا في تنفيذ هذه السياسات. كان يُنظر إلى هؤلاء المتحولين باعتبارهم تهديدًا دينيًا وسياسيًا، وأُخضعوا لتحقيقات قاسية شملت مصادرة الممتلكات والتعذيب والإعدام العلني.

هنا نجد المجتمع الإسلامي يظهر موقفًا أكثر تسامحًا تجاه اليهود والمسيحيين الذين يعاملون معاملة «أهل الكتاب». وخلال الفتوحات الإسلامية أيضًا تمتع اليهود والمسيحيون بمعاملة منصفة وتم منحهم حقوقهم كأقليات دينية وفقًا لنظام الذمة، الذي يتضمن الحماية القانونية والدينية مقابل دفع الجزية. بينما استقبلت العديد من الدول الإسلامية اليهود، بعد طردهم من إسبانيا، الذين وجدوا ملاذًا آمنًا هناك، مثل الإمبراطورية العثمانية ودول شمال إفريقيا.

مثال آخر نجده في قرارات المجمع المسكوني الحادي عشر الذي

عُقد في عام ١١٧٩م، حيث أصدر مجمع لاتران الثالث قرارات حازمة تتسم بالعنصرية الواضحة تتعلق بالعلاقات بين اليهود والمسلمين من جهة وبين المسيحيين من جهة أخرى. شملت هذه القرارات منع اليهود والمسلمين من توظيف خدم مسيحيين لأي غرض كان، بما في ذلك رعاية الأطفال أو الأعمال المنزلية. كما نصّ المجمع على أن أي مسيحي يعيش مع اليهود أو المسلمين سيكون عرضة للطرد الكنسي. قرر المجمع كذلك أن تكون شهادة المسيحيين مقبولة ضد اليهود في المحاكم، بينما وُضع نظام يشجع اليهود على اعتناق المسيحية بمنحهم حماية أكبر على ممتلكاتهم وضمان وضع اجتماعي أفضل. وفي حال عدم الامتثال لهذه القرارات، دعا المجمع الأمراء والسلطات المحلية إلى فرض هذه القوانين تحت تهديد الحرمان الكنسي.

وبنظرة شاملة لتلك الأحداث ومثلتها، يظهر التاريخ مرارًا أن التنوير والتقدم كانا ضحية لعقول شديدة التحفظ تخشى التغيير. هذه العقلية المتحجرة المنغلقة لا تزال تظهر في فترات مختلفة، تُعارض الأفكار الجديدة بدعوى الحفاظ على التقاليد، مثل الاعتقاد بأن الأرض مسطحة وليست كروية، مما أدى إلى معاناة العلماء والمفكرين الذين سعوا لتوسيع حدود المعرفة الإنسانية عبر التاريخ الإنساني، وبعضهم دفع ثمنًا غاليًا لنشر معرفته والإيمان برسائله للتغيير. لذا، فالجهل بهذا المعنى كان - ولا يزال - أحد التحديات الكبرى التي تواجه البشرية.

اللفز العظيم

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ

سورة البقرة آية ٤٥

بدافع من إيمان قوي ورؤية طموحة غير مسبوقة، انطلق العرب من شبه الجزيرة العربية، التي كانت حتى ذلك الحين منطقة معزولة نسبياً على الساحة العالمية، لتأسيس دولة نمت بسرعة وتحولت إلى إمبراطورية مترامية الأطراف. هذا التطور المذهل يثير تساؤلاً محورياً: ما الأسباب التي دفعتهم للخروج من أراضيهم ومواجهة الإمبراطوريتين العظيمين في ذلك العصر، الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية الساسانية؟

قد يُعزى ذلك جزئياً إلى عوامل اقتصادية وديموغرافية، حيث يُعتقد أن الضغط السكاني والموارد المحدودة ربما شجعا بعض القبائل على البحث عن أراضٍ جديدة أكثر خصوبة واستقراراً. ومع ذلك، لا توجد أدلة تاريخية تشير إلى موجات هجرة جماعية تفسر التوسع السريع بهذا الشكل.

الدافع الديني، بلا شك، كان عاملاً أساسياً. فقد ألهم الإسلام المسلمين الأوائل برسالته العالمية وحفزهم على نشر تعاليمه. لكن من

المهم الإشارة إلى أن الفتوحات الإسلامية الأولى لم تهدف إلى فرض الإسلام بالقوة، بل كانت تركز على إنشاء نظام سياسي واجتماعي يتيح حرية العبادة لأهل الذمة (المسيحيين واليهود) مقابل دفع الجزية، وفقاً للشرعية الإسلامية.

كما لعبت الدوافع المادية دوراً كذلك، إذ كانت الغنائم تُعد مكافأة مشروعة للمقاتلين في سبيل الله كما أقرها القرآن الكريم، لكنها لم تكن الهدف الأساسي وراء الفتوحات. بل كان الهدف الأكبر هو توسيع نطاق الدولة الإسلامية وتعزيز الاستقرار في المناطق التي تم فتحها. لكنها لم تكن أبداً المحرك الأول للقيام بالفتوحات، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً قال فيه: «طوبى للشام قلنا لأي ذلك يا رسول الله؟ قال: لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها»، كانت دمشق آنذاك مدينة عريقة ومزدهرة، تتمركز على أطراف الصحراء السورية، وتبعد نحو خمسين كيلومتراً عن البحر الأبيض المتوسط، وشكّلت نقطة التقاء رئيسية على طرق التجارة، ما منحها أهمية اقتصادية وحضارية على مر العصور.

وبالإضافة إلى ذلك، تؤكد المصادر الإسلامية والتاريخية على عقيدة القادة العرب وقوة جيوشهم، حيث كانوا يقاتلون تحت راية الإسلام وباسم الدين الجديد. ومما لا شك فيه أن إيمانهم برسالة الإسلام ونشره بين الناس كان دافعاً أساسياً ومحورياً، لكنه بمفرده لا يفسر الانتصارات المذهلة التي حققوها. من بين العوامل الأخرى التي لا يمكن إغفالها، الهدف السياسي لذلك التوسع. في ظل وجود إمبراطوريتين عظيمتين (البيزنطية والفارسية) تسيطران على المناطق المجاورة لشبه الجزيرة العربية في بداية عهد الحضارة الإسلامية، ربما أدرك النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن المواجهة كانت حتمية. في هذا السياق، يمكن النظر إلى الفتوحات الإسلامية الأولى كخطوة استباقية، تُعرف في التعبير

المعاصر بـ«الحرب الوقائية»، لتأمين الجزيرة العربية من أي تهديد مستقبلي، وضمان حرية المسلمين في ممارسة شعائهم، لا سيما في مكة وما حولها.

رغم ذلك، لا توجد دلائل صريحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتوسع الجغرافي خارج الجزيرة العربية قبل وفاته. تشير بعض المصادر التاريخية إلى صراعات محدودة بين المسلمين والغساسنة، حلفاء البيزنطيين، وكذلك مع البيزنطيين أنفسهم، لكنها لم تكن جزءاً من خطة تكوين إمبراطورية موسعة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم. في خطبة الوداع على جبل عرفات، ركز النبي صلى الله عليه وسلم على المبادئ الأخلاقية والإنسانية، مؤكداً على مبدأ الأخوة والمساواة بين البشر بقوله: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

أشار جاك بيرك، المستشرق الفرنسي البارز، في كتاباته إلى ديناميكية الإسلام في ذلك الشأن، حيث يذكر إن الإسلام يتميز بمجموعة من الأسس التي تبدو مترابطة، لكنها ليست متطابقة، ومنظمة دون اندماجاً كلياً. فهو يرى أن الإسلام يربط بين البعد الروحي والزمني، أو بين الدين والدنيا، بطريقة تحفظ استقلال كل منهما مع وجود علاقة تكاملية بينهما. كما أن الإسلام يربط بين الاعتبارات الدينية ومبادئ الحكم والسلطة دون أن يؤدي ذلك إلى خلط بينهما، مما يعكس قدرة الإسلام على تحقيق التوازن بين الدين والدولة^(١).

(1) Jacques Berque. *L'Islam face au défi* [الإسلام في مواجهة التحدي] Paris, Gallimard, 1980.

يثير تساؤل آخر حول الكيفية التي تمكّن بها عدد قليل من الجنود المسلمين، غير المزودين بشكل كامل بالعتاد والأسلحة، وغير المدربين بالمعايير العسكرية التقليدية في تلك الفترة، من السيطرة على مساحات شاسعة من الأراضي. من بين التفسيرات المحتملة لهذه المآثر الحربية، الوضع المتدهور لكل من الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية، اللتين عانتا من استنزاف هائل نتيجة الحروب المستمرة بينهما لأكثر من ربع قرن. كانت التوترات الداخلية أحد العوامل الرئيسية التي أضعفت الإمبراطورية الساسانية. فقد شهدت هذه الإمبراطورية انقسامات دينية بين عدة طوائف وأديان مثل المانوية^(١)، واليهودية، والمسيحية، والزرادشتية والتي كانت جميعها تواجه الدين الرسمي للدولة. إضافة إلى ذلك، كان المجتمع الفارسي يتميز بهيكلية صارمة وأرستقراطية، ما أدى إلى نزاعات متكررة بين الطبقات العليا وتفاقم الشعور بالظلم بين عامة السكان.

فيما يتعلق بالعالم البيزنطي، كانت الإمبراطورية البيزنطية تمر بفترة من الانقسامات الداخلية بسبب الخلافات الدينية بين طوائف المسيحيين مثل الهرطقات النسطورية والمونوفيسيتية^(٢)، التي اعترضت على العقيدة الأرثوذكسية السائدة. هذه الخلافات أدت إلى نزاعات دينية مستمرة كان لها تأثير كبير على استقرار السلطة في القسطنطينية وبقية الإمبراطورية. كان هناك انقسام داخلي شبه دائم بين الإمبراطوريات المهيمنة في العاصمة بيزنطة وفي المدن الكبرى مثل قطيسفون الواقعة بالقرب من بغداد الحالية في العراق. أما في مصر، فالأقباط، كان مذهبهم يختلف

(١) Mani. *Le Manichéisme* [المانوية] Empire sassanide, III^e siècle apr. J.-C.

(٢) النسطورية والمونوفيسيتية هما عقيدتان مسيحيتان قديمتان ظهرتتا نتيجة خلافات عقائدية حول طبيعة المسيح، لكنهما تختلفان في مواقفهما حول كيفية فهم اتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية في شخص المسيح.

عن المذهب السائد في الإمبراطورية البيزنطية (المذهب الأرثوذكسي)، لذلك واجه أقباط مصر في تلك الحقبة تمييزًا واضطهادًا دينيًا مستمرًا من قبل السلطات البيزنطية. هذا التمييز كان يشمل حرمانهم من بعض الحقوق الدينية والاجتماعية، مما جعل العديد منهم ينظرون إلى الفاتحين الجدد كمنقذين لهم. وقد قدمت السلطات الإسلامية لهم معاهدة تسمح لهم بالاحتفاظ بكنائسهم وممارسة عباداتهم في مقابل دفع الجزية، وهو ما كان له تأثير كبير إيجابي على موقفهم من الفتوحات الإسلامية.

لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنتَقِمُ الْأَعْظَمُ...

وَلِأَنَّ اللَّهَ قَدْ رَأَى مَا كَانَ يَقْتَرِفُهُ الرُّومُ مِنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ،

مِنْ نَهَبِ كَنَائِسِنَا وَدِيَارَاتِنَا، وَتَعْذِيبِنَا بِدُونِ آيَةٍ رَحْمَةٍ،

فَإِنَّمَا قَدْ أَتَى مِنْ مَنَاطِقِ الْجَنُوبِ بَنِي إِسْمَاعِيلِ، لِتَحْرِيرِنَا مِنْ نِيرِ الرُّومِ^(١)

شكّلت الفتوحات الإسلامية نقطة تحول في تاريخ الشعوب التي خضعت للحكم الإسلامي، ومن أبرز الأمثلة على ذلك وضع اليهود في إسبانيا. فعلى مدار حكم القوط الغربيين، تعرض اليهود لفترات من التمييز والاضطهاد، وعند دخول المسلمين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، رأى بعض اليهود فيهم فرصة للخلاص من القيود التي فُرضت عليهم، ويُعتقد أن بعض الجماعات اليهودية رحبت بالفتح الإسلامي على أمل تحسين أوضاعها. أما في شمال إفريقيا، فقد واجه الفاتحون المسلمون مقاومة من بعض القبائل الأمازيغية، كما حدث مع القوى السابقة مثل قرطاج وروما. غير أن هذه المقاومة لم تدم طويلاً، إذ اعتنق كثير من الأمازيغ الإسلام وساهموا في انتشاره داخل الأندلس وخارجها. ورغم

(١) ربّاط، إدمون (١٩٨٩). «المسيحيون في الشرق قبل الإسلام».

ذلك، احتفظوا بجوانب من هويتهم الثقافية، بينما تبّنوا اللغة العربية تدريجيًا على غرار بعض الشعوب الأخرى مثل الأتراك والفرس.

علاوة على ذلك، كان السكان المحليون مثقلين بالضرائب التي فرضتها الأنظمة الرومانية والبيزنطية السابقة. لذا، كان تخفيض الضرائب على يد العرب عند وصولهم إلى الأراضي الجديدة التي فتحوها له تأثير كبير في تحسين وضعهم وتثبيت أقدامهم، خصوصًا أن العرب استعانوا بأهل الحكم والإدارة من تلك البلاد في بداية حكمهم قبل تدعيم أوضاعهم لاحقًا بسبب عدم قدرتهم على إدارة الأنظمة البيروقراطية المعقدة التي وجدوها قائمة، لكنه كان أيضًا من أسباب قبول السكان المحليين لحكمهم. فيما بعد، سيستمر التوسع الإسلامي مع العثمانيين الذين سيغزون أوروبا، حيث ستنتهي إمبراطورية بيزنطة على أيديهم في ٢٩ مايو ١٤٥٣ مع سقوط القسطنطينية، ليواصلوا زحفهم حتى أسوار فيينا عاصمة النمسا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

العصر الذهبي

«الجهل يقود إلى الخوف،

الخوف يقود إلى الكراهية،

والكراهية تقود إلى العنف،

هذه هي المعادلة»

ابن رشد

أدى هذا التوسع الهائل في الأراضي الإسلامية إلى ولادة نهضة ثقافية وعلمية وفلسفية غير مسبوقة. في قلب هذه الأراضي، التي وُصفت أحياناً بأنها تحت «السيطرة الأجنبية»، نشأت حركة استنارة لن يشهد العالم مثيلاً لها حتى في عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر. رغم أن الإسلام وُلد في أوساط القبائل العربية البدوية في الأراضي الحجازية، إلا أنه ازدهر في المدن الكبرى مثل دمشق، بغداد، أصفهان، القاهرة، حلب، القيروان، فاس، وقرطبة. كانت هذه المدن، التي اتسمت بتنوع ثقافي وفكري ملحوظ، ملتقى للثقافات العربية، البيزنطية، الفارسية والتركية والسريانية، والديانات اليهودية والمسيحية.

في ظل هذه الأوساط المتنوعة نشأ جيل من المفكرين والفقهاء والعلماء، والمبدعين في مختلف المجالات الذين وجدوا الدعم والرعاية

في الدواوين الأميرية الكبيرة. بفضل هذا التفاعل الفريد بين الثقافات، ظهرت أفكار ثورية وابتكارية غيرت مسار التاريخ، وجميعها مستوحاة من مبدأ واحد: الحرية. كانت هذه الحرية تعني حرية التفكير، النقد، والنقاش. وقد عبر عن هذا المفهوم الفيلسوف ابن رشد وغيره من المفكرين المسلمين، مؤكدين أن «الإيمان لا يتناقض مع العقل، وأن الحقيقة الدينية والعلم متوافقان بشكل كامل». كان هذا العصر مميزاً بتقدير كبير للمعرفة، حيث امتد احترام المسلمين للكتب ليشمل كافة المؤلفات، سواء كانت فلسفية أو علمية، وهو ما ساهم في خلق عصر ذهبي ساعد في صياغة الفكر الإنساني العالمي.

ولفهم العمق الاستثنائي لهذه التجربة التاريخية، يجب أن نعود بالزمن لتتخيل المقاتلين العرب في القرن السابع الميلادي، في تلك الفترة كان الكثير منهم لا يعرفون القراءة أو الكتابة. ولا يتحدثون إلا العربية أو في أفضل الحالات السريانية. خلال وقت قصير من هذه الظروف وجدوا أنفسهم في زمن الفتوحات الإسلامية الأولى يتجولون في أرجاء مدن عظيمة لم يكونوا يعرفونها أو وطأتها أقدامهم مثل الإسكندرية، أفسس وبيرجاموم (مدينتان يقعان في آسيا الصغرى في تركيا والأناضول حالياً). وبعد ذلك توسعت رحلاتهم إلى مدن أخرى في قلب أوروبا مثل قرطبة، غرناطة، وطليطلة.

كان أمام هؤلاء الرجال خياران: إما أن يكتفوا بإرساء النظام والمراقبة دون تدخل لعالمهم الجديد في الأراضي التي دخلوها، أو أن يفتحوا على حضارات هذه البلاد ويتفاعلوا مع علومها وثقافتها، وقد اختاروا الخيار الثاني بالفعل وقرروا استيعاب علوم الأقدمين وترجمتها والابتكار فيها بما يناسب عصرهم واحتياجاتهم. تمامًا كما اختار القائد المقدوني الإسكندر الأكبر من قبلهم، فقد أدرك هؤلاء القادة أن الحكم لا يمكن أن يدوم بالقوة وحدها. كان المسلمين في البداية بطبيعة الحال أقل عددًا

مقارنة بالسكان المحليين، وكانوا متناثرين على مساحات شاسعة، مما دفعهم إلى اعتماد سياسة منفتحة على المعرفة والعلوم. في هذه المدن، سمعوا لأول مرة أسماء علماء وفلاسفة مثل أفلاطون، سقراط، أرسطو، جالينوس، فيثاغورث، بطليموس كلاوديوس، إقليدس، أرشيميدس، وأبوقراط. أدرك الفاتحون أنهم، ولأول مرة، أمام إرثاً علمياً وفلسفياً غير مسبوق. وكان موقفهم منه أنهم لم يقتصر الأمر معهم على التعلم منه، بل أعادوا إحياء هذه العلوم بالترجمة والتحرير والبحث والتنقيح وأضافوا إليها ابتكاراتهم الخاصة، فحفظوا الكثير من هذه المعارف من الاندثار إلى الأبد.

كان الفاتحين يتعاملون مع غير المسلمين بأسلوب قائم على التعايش، مكتفين بفرض الجزية، وتشجيع السكان على الاستمرار في زراعة أرضهم وإدارة شؤونهم. في الوقت نفسه، استعانوا بالمرجمين - خاصة من اليهود، الذين اشتهروا بمهاراتهم في الترجمة مثل يهود الإسكندرية، الذين كانت لهم براعة في اللغة اليونانية - إلى جانب المسيحيين السريان والعلماء اليونانيين لتمكينهم من اللغة اللاتينية، والذين ساهموا جميعهم بدورهم في نقل المعارف من لغاتها الأصلية إلى العربية.

التعلم، ومزيد من التعلم

في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ساهم الجدول الفلكي المعروف باسم «زيچ السندهند Zij al-Sindhind»^(١)، المقتبس من العلوم

(١) يصف هذا المصطلح في علم الفلك الفارسي والعربي مجموعة من الجداول التي تسمح بالتعرف وبإيجاد (عن طريق عدد من الحيل) موضع الأجرام في السماء في تاريخ بعينه.

الهندية، في نشر المعرفة الفلكية بين العرب. تضمن هذا العمل جداول لحركات الشمس والقمر وخمسة كواكب معروفة آنذاك، مع نحو ٣٧ فصلاً مخصصاً للتقويم والحسابات الفلكية، و١١٦ جدولاً ببيانات فلكية وتقويمية. هذه المعلومات كانت ذات قيمة هائلة للعرب، الذين اعتمدوا على مراقبة النجوم للتنقل في بيئتهم الصحراوية. هذا التقدم الفلكي استمر حتى القرن الخامس عشر، حيث تم بناء مرصد سمرقند في ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م. بفضل هذا المرصد، تم توثيق مئات النجوم التي ما زالت تحمل أسماء عربية، مثل «الدبران»، و«النسر الطائر»، و«سيف الجبار».

في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي تطور التعليم في العالم الإسلامي، وظهرت مؤسسات تعليمية في المدن الكبرى تشابه الجامعات في عصرنا الحديث. من أبرز هذه المؤسسات جامع القرويين في مدينة فاس بالمغرب الذي تأسس عام ٢٤٥هـ / ٨٥٩م على يد فاطمة الفهرية، وتحول لاحقاً إلى مؤسسة تعليمية مرموقة، وتُعتبر أقدم جامعة مازالت قائمة في العالم وفقاً لليونسكو. لاحقاً، تأسس جامع الأزهر في القاهرة في عام ٣٥٩هـ / ٩٧٠م على يد خلفاء الفاطميين ليصبح هو الآخر جامع وجامعة تعليمية مرموقة مازالت منبعاً للعلوم الشرعية إلى اليوم. هذه المؤسسات جذبت العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، الذين كانوا يقطعون مسافات طويلة للنهل من معارف أشهر المعلمين والعلماء، كما أشار ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان»، الذي احتوى على حوالي ١٣,٠٠٠ مدخل.

وُلد ياقوت الحموي، الموسوعي والجغرافي البارز، حوالي عام ٥٧٤هـ / ١١٧٨م في بيزنطة، وقد صار عبداً في طفولته وتم شراؤه في بغداد من طرف تاجر كتب سوري الأصل. تلقى ياقوت في بغداد تعليمًا عاليًا جعله مثقفاً بارعاً بجانب عمله كوكيل عن تجارة سيده، الذي أعتقه

حوالي عام ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م، فعمل في نسخ الكتب، وبدأ رحلة طويلة من الترحال عبر الجزيرة العربية، سوريا، مصر، خراسان، ومرو التي زارها قبل الغزو المغولي، وخلال رحلته التي دامت ما يقرب من سبعة عشر عامًا أنجز العديد من الأعمال الأدبية والعلمية لم تصلنا بالكامل، من بينها «معجم الأدباء»^(١) الذي يسجل فيه سيرة ذاتية وقائمة مؤلفات لأكثر من ١٢,٧٠٠ مؤلف حتى وقته، و«معجم البلدان»، الذي أتمه عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م، والذي يضم أسماء الأماكن الجغرافية مرتبة أبجديًا، مصحوبة بتعليقات موثقة بعناية تفوق عصره على الأصعدة التاريخية والاجتماعية.

وما زلنا في بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حين قام العالم العبقري الخوارزمي ببحث علمي حول تقنية الحساب الهندية، التي تعتمد على النظام العشري المكون من تسعة أرقام بالإضافة إلى الصفر. نشر هذا البحث تحت عنوان «كتاب الجمع والطرح». ورغم فقدان النص الأصلي، فقد نَجَت منه ترجمة لاتينية في القرن الثاني عشر، والتي ساعدت على نقل «الأرقام العربية» إلى الغرب، رغم أن الغرب تأخر ١٥٠ عامًا في تبني هذا النظام. وخلال الفترة الممتدة من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري/ القرن الثامن إلى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، والتي شهدت ازدهار العالم الإسلامي في العديد من المجالات، كانت المراكز العلمية والثقافية في الشرق تُعتبر المحرك

(١) ياقوت الرومي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣ André Miquel. *La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XI^e siècle* 4 vols. Paris, Ecole des hautes études en sciences sociales, 1967-1988.

الرئيسي للتقدم الاقتصادي والثقافي، بينما كان الغرب يعاني من الركود الثقافي والعلمي بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية وسيادة العرب.

في تلك الحقبة أيضًا، كانت الأراضي محل السيطرة الإسلامية تُعتبر من أكثر المناطق أهمية اقتصاديًا، سواء من خلال إنتاجها الزراعي أو من خلال تنظيمها التجاري المتقدم. لعبت الموانئ الإسلامية دورًا محوريًا في التجارة العالمية، حيث قدمت للعالم سفنًا حديثة بمعايير تلك الفترة وموانئ متطورة وبحارة مهرة، مما ساعد على تسهيل الملاحة في الخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي. كما ساهمت موانئ سوريا ومصر، وعلى رأسها ميناء الإسكندرية، في تسهيل التجارة عبر النقل النهري في نهر النيل. وفي إسبانيا، لعب نهر غوادالكيفير دورًا مماثلًا، إلى جانب الموانئ في صقلية وجبل طارق بأوروبا.

وفي مجال العلوم الإنسانية وبالتحديد في الأدب؛ أُلّف العديد من الكتاب والشعراء قصصًا شاعرية أصبحت فيما بعد علامة في تاريخ الأدب العربي، مثل «كليلة ودمنة» لابن المقفع و«قيس وليلى» لابن الملوّح. كما حظيت العديد من أشهر الشخصيات الأدبية العربية بشعبية واسعة في جميع أنحاء العالم حتى يومنا هذا، مثل شهرزاد، وعلاء الدين، وعلي بابا والأربعين حرامي، وكذلك سندباد البحار. بينما تعد «ألف ليلة وليلة» من أبرز الأعمال الأدبية العربية التي لا تزال تتمتع بشعبية عالمية، وهي مرآة للتراث الثقافي العربي تضم قصصًا أسطورية تم سردها ومعالجتها بما يتناسب مع الثقافة العربية، كما عكست تلك القصص تعدد مصادرها وألوانها الأدبية. في المقابل، وفي نفس الفترة، كان الغرب يعاني من تجاهل أو إغفال للمعارف العلمية القديمة؛ حافظت الحضارة الإسلامية على هذا التراث وعملت على نشره وتطويره.

وبالإضافة إلى ذلك، شهد الشعر في هذه الحقبة استكشافاً لموضوعات جديدة؛ في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، برز الشاعر العربي المتنبي كشاعر عظيم يخلد الانتصارات الكبيرة لحكامه ويشيد بمناقبهم، مع احتفاظه باعتزازه بنفسه واستقلاليتته. أما أبو العلاء المعري، فقد عبّر عن رؤية فريدة تمزج بين التأمل والتحدي والتعبير عن معاناة الإنسان. رغم فقدانه البصر في سن مبكرة، فقد ترك بصمة فكرية عميقة عبّرت عن نظرتة الفلسفية تجاه الأديان والوجود.

من جهته، استخدم أبو نواس، أبرز شعراء عصره، موهبته الكبيرة وعلاقاته الوثيقة مع الخلفاء لتجديد الشعر العربي، وامتاز بجراته في تناول موضوعات غير تقليدية، حيث عبّر عن الحياة بكل جوانبها بصدق وشفافية. كما أبدع في وصف مشاهد الفرح واللهو دون أن يتقيد بقواعد الشعر التقليدي، مما أضفى طابعاً متجدداً على الشعر العربي. ونذكر أيضاً الإمام ابن حزم، القاضي والفقيه، الذي ابتكر في كتابه «طوق الحمامة» مجموعة من القواعد والتصورات حول الحب والعلاقات العاطفية من زاوية فلسفية وعقلانية عميقة.

لذا، لا يمكن إنكار المكانة الرفيعة التي يحتلها العلم والمعرفة في التراث الإسلامي. فقد حثّ القرآن الكريم على طلب العلم، وجعل السعي وراء المعرفة واجباً دينياً على كل مسلم. ففهم معجزة الله في الخلق يستوجب التأمل في شواهد صنعه في الأرض، مما يعمّق إدراك الإنسان لعظمة الخالق الواحد. ومن هنا، تجسد السعي نحو المعرفة كعنصر أساسي في الفكر الإسلامي، مع التركيز على ما نعرفه اليوم بعلم الأستيمولوجيا (دراسة نظريات المعرفة)، التي احتلت مكانة محورية في الدراسات الفكرية الإسلامية. كما قال المؤرخ الفرنسي موريس لومبار:

«الحضارة الإسلامية في عظمتها الأولى كانت بوتقة زمنية وجغرافية، وخطّة تقاطع، ومناخ هائل، ولقاء مذهش»^(١).

وفي مجال العمارة الإسلامية والتصميم، شهدنا تصاميم هندسية تميزت بالفن الرفيع والدقة البالغة التي نادرًا ما نجد له مثيلاً في عمارة الحضارات الأخرى. وقد أدت كراهية تصوير الكائنات الحية -سواء كانت صوراً آدمية أو حيوانية- في الفن الإسلامي إلى دفع المعمارين والفنانين المسلمين إلى استخدام زخارف مبتكرة ودقيقة في منشآتهم مثل الزخارف النباتية والهندسية بجانب الخط العربي في الكتابات والنقوش. هذه الزخارف الفنية تعكس الفهم العميق للمسلمين لفنون التصميم الهندسي وتتماشي مع العقيدة والثقافة الإسلامية.

جسور الثقافة

لو كانت الطباعة أو الإنترنت متوفرة في العام ١٠٠٠م، لما احتجنا لطرح تساؤلات حول كيفية انتقال المعارف المدونة باللغة العربية إلى الغرب. لكن في غياب هذه التقنيات الحديثة، كان لابد من البحث عن طرق أخرى تناسب هذا العصر. كان ذلك ممكناً بفضل جهود مجموعة من «رجال الظل»، أولئك المترجمين الذين عملوا بصمت في مكتبات بغداد، الإسكندرية، طليطلة، ودمشق ببراعة لا تقل عن الحرفيون المتفانون في عملهم، وكان الكثير منهم مجهولي الهوية بالنسبة لنا، وبعضهم عملوا لقاء أجور زهيدة، وعلى الرغم من ذلك كانت مساهماتهم حاسمة في الحفاظ على التراث العلمي والفلسفي ونقله عبر ثقافات ولغات متعددة، ومن هنا يمكن لنا أن نتخيل صعوبة المهام التي

(١) Maurice Lombard. *L'Islam dans sa première grandeur* الإسلام في عظمتها الأولى [Paris, Flammarion, 1971].

اضطلعوا بها. وإذا كان في عصرنا الحديث ترجمة أعمال فلسفية معقدة مثل «معاهدة الروح» لأرسطو أو «كتاب علمي دقيق كـ» «المجسطي» لبطليموس الفلكي إلى لغات مثل الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو العربية تُعدّ مهمة شاقة وتتضمن تحديات كبرى، للحد الذي قد يجعل أولئك المترجمين يقضون ليالي طويلة في مواجهة تعقيدات اللغة والمصطلحات العلمية، فكيف لنا أن نتخيل صعوبة تلك المهمة للمترجمين العرب في تلك الفترة؟

لم تكن ترجمات المترجمين الأوائل، بطبيعة الحال خالية من الأخطاء. مثل ما حدث مع ابن سينا. كان قد قرأ كتابًا يُعتقد أنه «اللاهوت» لأفلاطون، وقرأ صفحاته أكثر من أربعين مرة، حتى أنه حفظ كل كلمة فيه. ومع ذلك، ظل النص بالنسبة له غامضًا وغير مفهوم. كان ابن سينا يرى في أفلاطون رمزًا للعبقرية والإحاطة الفريدة بالمعرفة في عصره، لكنه بدأ يشك في أن المشكلة قد تكون في الترجمة نفسها. لاحقًا، اكتشف أن النص الذي كان يقرؤه لم يكن لأفلاطون، بل هو كتاب «التاسوعات» للفيلسوف اليوناني أفلوطين، الذي تم ترجمته خطأً ونُسب إلى أفلاطون. استغرق ابن سينا سنوات لاكتشاف هذا الخطأ، مما يظهر مدى صعوبة وتعقيد عملية نقل المعرفة عبر الثقافات واللغات. وفي الوقت نفسه، ظهر هؤلاء الرجال المميزون بالحدس والشغف الذين تمكنوا من البحث عن إرث علمي وفلسفي غير معروف، وقرروا تكريس حياتهم لإعادة اكتشاف هذا التراث، وترجمته وحمايته من الضياع أو الازدراء الذي لحق به في أوقات سابقة، واختاروا قضاء حياتهم في نقل المعرفة.

في هذا السياق، من المثير للاهتمام الإشارة إلى قصة جيريرت من أورياك المعروف لاحقًا باسم البابا سيلفستر الثاني بابا فرنسا. من الصعب تحديد مكان أو سنة ولادته بدقة، لذا تبقى التقديرات هي المرجع

الوحيد، يُعتقد أنه وُلد في منطقة أكويتانيا (جنوب غرب فرنسا) حوالي عام ٩٤٥م، لعائلة متواضعة الأصل. بدأ تعليمه في دير البينديكتين جيروود في أورياك. وكجميع الأطفال المُكرّسين للدير (الأطفال الذين يتم تقديمهم لخدمة الدير)، تعلّم جيربيرت أصول الحياة الرهبانية، حيث شارك في الصلوات الطقسية وتعلم القراءة من خلال المزامير وكتابة النصوص على ألواح الكتابة.

وفي حوالي عام ٩٦٧م، زار الكونت الكتالوني بوريل الثاني دير أورياك أثناء رحلته إلى منطقة رويرغ بجنوب فرنسا، حيث كان ينوي مقابلة زوجته المستقبلية، وقرر بوريل القيام بتحويل مساره إلى أورياك ليتسك أمام ذخائر القديس جيروود. يُكمل الراهب ريشر من ريمس سرد القصة^(١):

«تم استقبال بوريل بحرارة كبيرة من قبل رئيس الدير، الذي سأله أثناء الحديث إذا كانت إسبانيا تضم رجالاً ضالعين بشكل كبير في المعارف والفنون. وعندما أجاب الدوق بسرعة وبشغف، أقنعه رئيس الدير على الفور بأخذ أحد الرهبان من الدير لتعليمه العلوم. لم يرفض الدوق، بل وافق بسخاء على الطلب وأخذ جيربيرت معه بموافقة الإخوة».

وهكذا، وجد جيربيرت الشاب نفسه في عام ٩٦٧م في مدينة فيك، على بُعد حوالي خمسين كيلومتراً من برشلونة. كان تحت رعاية شخص ذو حكمة كبيرة ويُدعى «هاتون» الذي كان أسقف المدينة منذ حوالي عشر سنوات. وهناك تعرّف لأول مرة على ما كان يُعرف آنذاك بـ«الرباعية»، أي العلوم الدنيوية الأربعة في عصره: الحساب والهندسة

(1) *Histoire de France (888-995)* [تاريخ فرنسا (٨٨٨ - ٩٩٥)] Paris, Les Belles Lettres, 4 vols., dernier volume s'arrêtant en juin 995.

والموسيقى وعلم الفلك، من خلال مخطوطات لاتينية مترجمة من العربية.

لا نعرف الكثير عن مدرسة فيك، باستثناء أنه على بُعد حوالي ٢٠ كيلومتراً، كان هناك دير سانت ماري دي ريبو Monasterio de Santa Maria de Ripol ويقع في مدينة ريبول بكتالونيا شمال إسبانيا، الذي كان مركزاً علمياً ويحتوي على مكتبة تضم العديد من المخطوطات العلمية والأدبية التي من المحتمل أن جيربيرت اطلع عليها. كما يُرجح أنه سافر إلى برشلونة لتوسيع معارفه والاستفادة من تأثير الأندلس القريب.

بعد ثلاث سنوات من الدراسة، في عام ٩٧٠م، رافق جيربيرر الكونت بوريل في رحلته إلى روما. حيث قرر الذهاب في رحل حج إلى قبر القديس بطرس ومقابلة البابا يوحنا الثالث عشر، بالإضافة إلى الإمبراطور أوتو الأول. وفي تلك المناسبة، قدم بوريل جيربيرت إلى البابا. ووفقاً لما رواه الراهب ريشر؛ أعجب البابا بـ «ذكاء جيربيرر وحرصه على التعلم». لاحقاً، أصبح جيربيرر رئيس أساقفة ريمس في عام ٩٩١م، ثم انتُخب في الثاني من أبريل عام ٩٩٩م ليصبح البابا سيلفستر الثاني. قبل تنصيبه، حاول إدخال الأرقام العربية إلى المسيحية، بعد أن تعرف عليها في كتالونيا، حيث كانت الثقافة العلمية الإسلامية مؤثرة بشكل كبير على تلك المنطقة حيث كانت خلافة قرطبة سائدة على جزء كبير من إسبانيا، وكان هذه الترقيم العشري مستخدماً من قبل التجار العرب ومذكوراً في أطروحات مترجمة، من بينها بالتأكيد كتاب «الجمع والطرح» للخوارزمي، الذي ساهم في إدخال النظام العشري إلى أوروبا.

ولكن، وعلى نحوٍ مفاجئ، قوبلت محاولة جيربيرر دورياك لإدخال الأرقام العربية بمعارضة شديدة من قبل طبقة الرهبان في أوروبا. هؤلاء الرهبان، الذين احتكروا التعامل بالأرقام الرومانية باستخدام المعداد أو

«الأباكوس» ولم يسمحوا لأحد سواهم باستعمال الأرقام الرومانية، لذلك رفضوا نظام الترقيم الجديد القادم من العالم الإسلامي، واعتبروه تهديدًا لهيمنتهم.. كانت الأرقام العربية في نظرهم تحمل في طياتها رائحة الحرب والهزيمة.

لاحقًا، ساهم في نقل المعرفة العلمية العربية إلى أوروبا أديلارد الباثي Adélarde Bath، الفيلسوف الإنجليزي المولود حوالي عام ١٠٧٥م. كان أديلارد من أوائل الأوروبيين الذين فسّروا المعارف العلمية العربية وعرّفوا أوروبا عليها. يُعتقد أن أديلارد تعلم اللغة العربية في صقلية أو إحدى مدنها وهي سيراكيوز، التي كانت تحت التأثير الإسلامي في تلك الفترة، وربما لاحقًا في أنطاكية. في كتاباته، ذكر أديلارد أنه أمضى حوالي سبع سنوات في فلسطين، حيث تواصل مع العلماء المسلمين هناك الذين قدموا له المشورة في بحوثه. ومن بين معلميه البارزين، ذكر «رجل عجوز من طرسوس»، كان متخصصًا في التشريح وبارعًا في الطب العربي. قام هذا المعلم الحكيم بتدريب أديلارد على تقنيات التشريح المعقدة، بما في ذلك استخدام مياه جارية لغمر الجثث، مما يساعد على إزالة الأنسجة اللينة بلطف وكشف الشبكة المعقدة من الأوعية الدموية والأعصاب في الجسم، وهي تقنية متقدمة جدًا مقارنة بالتشريح في أوروبا في ذلك الوقت.

كان من بين أوائل النصوص العربية التي أثارت اهتمام الفيلسوف الإنجليزي أديلارد الباثي كتاب «الطلاس» للعالم ثابت بن قرة، الذي قام بترجمته إلى اللاتينية أثناء إقامته في أنطاكية. ولم يتوقف اهتمامه عند هذا الكتاب، حيث وسع نطاق ترجماته ليشمل نصوصًا علمية أخرى شهيرة. عند عودته إلى إنجلترا، قدم أول ترجمة لاتينية لمؤلف «عناصر إقليدس»، اعتمادًا على النسخة العربية التي ترجمها الحجاج بن يوسف. تابع أديلارد ترجمة ودراسة نصوص عربية مهمة مثل الجداول الفلكية

للخوارزمي، و«سنتيلوقيوم»^(١) أو «حكم بطليموس»، وهي مجموعة مكونة من مائة حكمة أو قاعدة تتعلق بالتنبؤات الفلكية والتنجيم.

أما عند عودته إلى إنجلترا، فقد كُلف أديلارد بتعليم هنري الثاني، وريث العرش الإنجليزي، حيث اعتمد في تدريسه على النصوص العربية التي ترجمها. أَلَف كتابه الشهير «الشكوك الطبيعية» (Quaestiones naturales)، الذي يتضمن ٧٦ مناقشة حول موضوعات مثل علم الأرصاد الجوية، علم الفلك، علم النبات، وعلم الحيوان، مستندًا إلى العلوم العربية.

شملت إسهاماته الأخرى دراسات حول المعداد والإسطرلاب، بالإضافة إلى ترجمة لجداول فلكية عربية. أثرت هذه الترجمات وأعماله تأثيرًا عميقًا في إنجلترا وأوروبا عامة، حيث مهدت الطريق لإدخال العلوم العربية واليونانية إلى الغرب، وساهمت في نهضة العلوم في العصور الوسطى.

ألا يدين الغرب بشيء للحضارة العربية الإسلامية؟

في عام ٢٠٠٨، صدر كتاب بعنوان: «أرسطو في جبل القديس ميشيل: الأصول اليونانية لأوروبا المسيحية» لمؤلفه المؤرخ الفرنسي للعصور الوسطى «سيلفان جوجنهايم». يطرح الكتاب رؤية نقدية تتحدى السردية التقليدية بشأن إسهام الحضارة العربية الإسلامية في تطور الثقافة

(١) سنتيلوقيوم بطليموس، المعروف أيضًا بـ «Centiloquium» أو «كتاب المئة حكمة»، هو مجموعة نصوص تُنسب إلى العالم اليوناني بطليموس. يتناول هذا العمل مواضيع تتعلق بعلم التنجيم، حيث يحتوي على مائة حكمة أو قاعدة تتعلق بالتنبؤات الفلكية والتنجيمية. كان هذا النص يُعتبر من الأساسيات في دراسة علم التنجيم في العصور الوسطى.

الأوروبية، حيث أغفل الاحتفاء بفضل الحضارة على الإسلامية على تطور الثقافة الأوروبية إلى تجاهل إسهام الإغريق والرومان والتطور العلمي خلال عصر النهضة. يصف جوجنهايم الفترة ما بين القرن الثامن والثالث عشر باعتبارها «عصور الظلام»، زاعمًا أن الإسهامات العلمية والفكرية التي تُنسب إلى الحضارة الإسلامية اعتمدت في مجملها على مصادر يونانية ورومانية سابقة، مع التركيز على كتابات أفلاطون وأرسطو.

وهو وصف استخدمته أيضًا مؤرخة وباحثة أخرى متخصصة في تاريخ العصور الوسطى، ريجين بيرنود، التي أكدت أن هذه القرون هي أزمنة مظلمة. تضيف بيرنود: «لم تكن العلوم والفكر العربيان إلا استنادًا إلى مصادر موجودة مسبقًا، ومخطوطات سمحت ببناء هذه المعرفة من دراسات أفلاطون وكتّاب آخرين من الأقدمين، وليس عكس ذلك، كما فعل البعض؛ ويعود الخطأ إلى كتبنا المدرسية التي تذكر ابن سينا أو ابن رشد، ولكن تتغاضى تمامًا عن شخصية مثل إيزيدور دي سيفي».

هذا الادعاء يُثير تساؤلات عدّة، حيث يُعرف إيزيدور دي سيفي بموسوعته الشهيرة Etymologiae أو علم أصول الكلمات -التي اعتُبرت مرجعًا أساسيًا للمعرفة في العصور الوسطى الأوروبية-، فلماذا يتم مقارنة هذا القديس بابن رشد؟ فإذا كان ابن رشد يتكرر ذكره في الكتب المدرسية (وهو أمر غير مؤكد)، فإن السبب يعود إلى التأثير العميق الذي أحدثته تعليقاته على أعمال أفلاطون وأرسطو عندما وصلت إلى الغرب. لقد ساهمت هذه التعليقات في خلق جدل فكري واسع، خاصة مع ردود الفعل التي جاءت من شخصيات مسيحية بارزة مثل القديس توما الأكويني. هذه النقاشات أدت إلى شهرة ابن رشد في العالم المسيحي، وأسست لتيار فكري وفلسفي جديد عُرف بالأفرووية (Averroism) مستمد من تفسيرات وشرح الفيلسوف العربي الأندلسي ابن رشد لفلسفة

أرسطو، التي حاول من خلالها التوفيق بين الفلسفة والدين، الذي أثار جدلاً كبيراً في الأوساط الأكاديمية آنذاك، مثل جامعة باريس (السوربون لاحقاً).

جدير بالذكر أن الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) كان قد أصدر مرسوماً يمنع تدريس الفلسفة قبل حوالي أربعين عاماً من ميلاد إيزيدور دي سيفي. كما أن فلسفة أفلاطون كان محظور تدريسها في جامعة باريس عام ١٢١٠، وهو ما يوضح مدى تعقيد العلاقة بين الفلسفة والدين في أوروبا خلال تلك العصور.

ونود إلى أن نشير إلى إن ابن رشد (أفيرويس) لا يحظى بمكانة كبيرة أيضاً في الكتب المدرسية العربية. بالإضافة إلى ذلك، يصف سيلفان جوجنهايم الفكر الإسلامي باعتباره لا يعزز التفكير الفلسفي، وأن المعارف العلمية التي طورها العلماء المسلمون في ذلك الوقت لم تكن مقاربة للعلم الحديث الذي نعرفه اليوم، بل كانت أشبه بجمع المعارف دون بحوث أساسية حقيقية. ويضيف جوجنهايم: «إن تأثير الحضارة العربية الإسلامية بالفكر اليوناني لم يكن ظاهرة عامة تؤثر في المجتمع ككل، بل بقي محصوراً ضمن بعض النخب الفكرية. كما أن اللغة العربية، كلغة سامية، لم تكن قادرة تماماً على ترجمة الفلسفة اليونانية بدقة تعكس تفاصيلها المعقدة».

سابقاً ضد التيار المتفق عليه من قبل غالبية المؤرخين الأكاديميين؛ يزعم جوجنهايم كذلك أن «جزءاً كبيراً من معرفة الفلسفة الإغريقية القديمة لم يتم إنقاذه من النسيان ونقله إلى أوروبا الغربية المسيحية عند فجر النهضة بواسطة العالم الإسلامي؛ بل كان معروفاً في الغرب طوال الوقت، مباشرة، دون انقطاع ودون وسيط». ويضيف أن خلال الفترة التي يشار إليها بعصور الظلام (من القرن السابع إلى الحادي عشر

الميلادي)، كان هناك استمرارية في الغرب في الاهتمام بالمعرفة الإغريقية بدلاً من الجهل والتخلف الذي يُزعم أنه كان سائداً.

هذه الآراء تثير نقاشاً واسعاً حول مدى دقة هذه المزاعم. فالواقع يشير إلى أن العلماء المسلمين كابن رشد وابن سينا وغيرهم لم يكتفوا بنقل المعارف القديمة؛ بل قاموا بتطويرها وابتكار إضافات فلسفية وعلمية أثرت بعمق في النهضة الأوروبية. أما اللغة العربية، فقد أثبتت عبر قرون قدرتها على التعبير عن أعقد المفاهيم الفلسفية والعلمية، خاصة من خلال الترجمات التي صدرت عن «بيت الحكمة» في بغداد والتي كانت حجر الأساس في حفظ التراث اليوناني ووصوله إلى اللغة اللاتينية وبخاصة حين كان الفلسفة وعلومها علم محظور في أوروبا في تلك الفترة بحسب قول جوجنهايم نفسه.

وفي مقالة نُشرت في مجلة الكورييه أنترناسيونال (Courrier International) بتاريخ ٢٩ يوليو ٢٠٠٤، حملت عنوان: «لا، الغرب لا يدين بشيء للعرب»، طُرحت رؤية تُشكك في مدى تأثير الحضارة العربية الإسلامية على النهضة الأوروبية والتطور الغربي الحديث. يرى كاتب المقال أن هناك إصراراً من بعض المفكرين العرب والمسلمين على الترويج لفكرة «الحضارة العربية المجيدة»، والتي - وفقاً لهذه الرؤية - انتهت مع سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، وتوقف العرب بعدها عن الإبداع باستثناء بعض المجالات المحدودة.

يؤكد المقال على ضرورة إعادة النظر في هذه الفكرة، إذ يعترف بأن العرب، مثلهم مثل الصينيين والفرس والهنود، ساهموا في الحضارة الإنسانية، لكنه يثير التساؤل حول مدى تأثير هذه الإسهامات في تشكيل الحضارة الغربية الحديثة. وي طرح تساؤلات حول الدور الحقيقي لعلماء

مثل ابن سينا، وابن رشد، وابن خلدون في التقدم الأوروبي، معتبراً أن أوروبا لم تكن بحاجة إليهم لتحقيق نهضتها.

كما يستشهد المقال بآراء الفيلسوف والمؤرخ إرنست رينان (١٨٩٢-١٨٢٣)، الذي قدم طرحاً جدلياً حول العلاقة بين الإسلام والعلم في محاضراته بجامعة السوربون عام ١١٨٣هـ/ ١٨٦٣م، حيث رأى أن الفلسفة التي كُتبت بالعربية لم تكن عربية أو إسلامية في جوهرها، بل كانت امتداداً للفكر الإغريقي، وأن العديد من الفلاسفة الذين كتبوا بالعربية لم يكونوا من أصول عربية. هذه الرؤية، رغم طابعها النقدي الحاد، تعكس جدلاً أوسع حول تقييم تأثير الحضارة الإسلامية في مسيرة التطور العالمي، وهو موضوع لا يزال يثير نقاشات أكاديمية متباعدة حتى اليوم.

وفي كتابها لقاء بين رينان والإسلام، الصادر عن مطابع مدينة رين الجامعية^(١)، تشير «سمر مجائس» إلى المفارقة في اختيار الفيلسوف والمؤرخ إرنست رينان لموضوعات أبحاثه، حيث يبدو أنه انشغل بدراسة الشعوب السامية ولغاتها رغم موقفه المتحفظ تجاهها. فمنذ عام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م، سعى رينان للحصول على كرسي أستاذية اللغة العبرية في الجامعة الفرنسية، وعندما تحقق له ذلك عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م، ألقى في درسه الافتتاحي خطاباً أثار جدلاً واسعاً بسبب موقفه المتشدد من الشعوب السامية، وهو موقف يشوبه رؤية عنصرية واضحة حاول إلbasها ثوب البحث العلمي ولم يفلح في ذلك.

(١) أستاذة لغة عربية، درست اللغة والثقافة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت، من ١٩٨٦ إلى ١٩٩٨. تتناول أبحاثها الاستشراق الفرنسي والفكر العربي خلال عصر النهضة العربية. أنظر كتابها: *Ernest Renan et l'Orient: Ambiguïté d'une relation passionnée* [إرنست رينان والشرق: غموض علاقة شغوفة] Septentrion, France, 1997.

مثل هذه الطروحات ليست جديدة؛ إذ تبني بعض الباحثين آراءً تقلل من دور الحضارة الإسلامية في التطور العلمي والفكري الذي شهدته أوروبا. غير أن هذا التصور يتجاهل حقيقة أن «نقل المعرفة وحفظها» كان دائماً عنصراً أساسياً في تطور البشرية، كما أنه كان الوسيلة التي حفظت للعالم الكنوز الفكرية القديمة، وأمكنت من إتمام تراكم المعرفة المؤدية إلى تطويرها. فليس الغرض من دراسة تاريخ الحضارات أن تُصوّر على أنها كيانات متصارعة، حيث يُضخّم دور حضارة على حساب أخرى، بل إن المعرفة المنشودة بطبيعتها هي إرث إنساني مشترك، لا يقتصر على أمة أو دين بعينه، كما أشار بذلك ابن خلدون في كتابه «المقدمة»، حيث تناول تطور العلوم وأثرها عبر العصور.

وإذا كانت بعض الأصوات تصف إسهامات العلماء المسلمين في العلوم والفلسفة باعتبارها مجرد «حلقة وصل في تاريخ المعرفة»، فكيف يمكن تفسير التأثير العميق لمؤلفات مثل كتاب القانون في الطب لابن سينا، الذي ظل مرجعاً أساسياً لتعليم الطب في أوروبا حتى القرن ١١هـ/ ١٧م، حيث طُبِعَ أكثر من خمس وثلاثين مرة خلال القرنين ٩هـ/ ١٥م و ١٠هـ/ ١٦م؟ أو كيف يمكن التقليل من أثر ترجمات النص المعروف باسم «Liber de Bona Fortuna» هو نص منسوب لأرسطو لتفسير الخير المطلق، وترجم للعربية وأعيد شرحه من قبل الفلاسفة المسلمين، التي كُتِبَت في بغداد في القرن ٣هـ/ ٩م، وأثرت لاحقاً على الفكر الأوروبي في القرن ٧هـ/ ١٣م، لدرجة تأثر الفيلسوف توما الأكويني به كما تأثر بابن سينا؟

هذه النماذج وغيرها تؤكد أن التراث العلمي والفكري العربي ليس مجرد «جسر عبور» في حلقة تاريخ المعارف؛ بل هو نتاج تفاعل معقد بين الحضارات، حيث تتلاقى الأفكار وتتطور عبر الأزمان، بما يتجاوز

التصنيفات المحددة التي تحاول حصر الإنجازات ضمن حدود جغرافية أو ثقافية ضيقة.

كيف يمكن إذنًا تصنيف إرث الفارابي؛ ذلك الذي لُقّب بـ «فيلسوف العرب»، وهو الذي ألّف أكثر من ٢٥٠ كتابًا، وأسس للفكر الأرسطي في العالم الإسلامي؟ وكيف يُمكن التغاضي عن عبقرية البيروني، الذي تمكّن من حساب نصف قطر الأرض باستخدام الرياضيات المثلثية، مقدّرًا إياه بـ ٦,٣٣٩,٦ كيلومترًا، وهو رقم اقترب كثيرًا من القيم الحديثة، وذلك قبل أن يُعاد حسابه في أوروبا خلال عصر النهضة بسة قرون؟

وماذا عن ابن النفيس، الذي سبق وليام هارفي بأكثر من ثلاثة قرون في اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، وكشف عن مسار الدم في الشرايين التاجية والرئتين؟ هل يُمكن إنكار إسهاماته في الطب، أو التقليل من شأنها؟

وهل يُعقل أن نعامل الخوارزمي - الذي أسس لعلم الجبر وأدخل نظام الترقيم العشري - وكأنه مجرد رياضي مبتدئ؟ وهل يمكن إنكار دور جابر بن حيان، الذي أسهم في اكتشاف أحماض الهيدروكلوريك، والنيتريك، والستريك، والطرطريك، والخلّيك، وأرسى قواعد التقطير الكيميائي، فضلًا عن تطوير معدات مخبرية مثل «الألميك»؟

وهل يمكن التقليل من شأن إسهامات أبي القاسم الزهراوي، أحد أعظم جراحِي العصور الوسطى، الذي وضع أسس علم الجراحة، وابتكر العديد من الأدوات الطبية، ومنها الأدوات الجراحية الخاصة بالعمليات المعقدة؟ أم أن علينا التغافل عن البيمارستانات (المستشفيات) المتخصصة في الطب النفسي التي أُقيمت في فاس منذ القرن ٢هـ / ٨م، وفي القاهرة عام ٢٦١هـ / ٨٧٤م، بينما لم يظهر أول مستشفى للأمراض

العقلية في الغرب إلا بعد أكثر من أربعة قرون بمستشفى بيثلم الملكي (Bethlem Royal Hospital)، في ضاحية لندن تحت اسم بيثلم التي كان يُعرف شعبياً باسم Bedlam.

وماذا عن بيمارستان مجمع قلاوون في القاهرة، الذي شُيد في العصر المملوكي في القرن ٧هـ / ١٣م ليستوعب قرابة ثمانية آلاف مريض، وكان يُعدّ من أكثر المنشآت الطبية تطوراً في زمانه؟ أو عن عليّ الموصلي، طبيب العيون الذي مارس الجراحة عام ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م، وكان أول من ابتكر تقنية علاج إعتام عدسة العين (الماء الأبيض) باستخدام إبرة مجوفة للشفط، وهي التقنية التي لم يُعد اكتشافها في الغرب إلا بعد أكثر من سبعة قرون، حين توصل الطبيب الفرنسي ميشيل بريسو إلى فهم طبيعة المرض عبر التشريح، ولم يُطبّق أسلوب الشفط عملياً حتى عام ١١٦٣هـ / ١٧٥٠م؟

وأي مكانة يمكن أن نخصّصها في تاريخ الطب لموسوعة التصريف، التي ألفها أبو القاسم الزهراوي في ثلاثين جزءاً، وكانت مرجعاً طبياً رئيسياً في أوروبا على مدى ستة قرون، مثلها مثل كتاب القانون في الطب لابن سينا؟ وهل يمكن إنكار ريادته في وضع لوحات توضيحية للأدوات الجراحية مع شرح استخدامها، أم أن علينا الافتراض - بغير دليل - أنه استند إلى «مصادر سابقة» دون إبداع أو إضافة؟

وأخيراً، ماذا عن العشرات من الكلمات العربية التي دخلت إلى اللغات الأوروبية، محملة بإرثها العلمي والثقافي، مثل الجبر، والخيمياء، والمناخ، والمشربية، والقائد، والمخزن، والزعفران، والبرتقال، والبطيخ، وغيرها الكثير؟ بل وحتى أسماء بعض النباتات والأعشاب مثل الخرشوف (alcachofa)، والحبق (albahaca)، والزعفران

(azafrán)، والزيتون (aceituna)، التي بقيت شاهدة على هذا التلاقح الحضاري العميق.

هل ينبغي علينا إنكار الأثر العميق للغة العربية في اللغات الأوروبية مجرد إرضاء المستهزئين؟ ماذا عن مئات الكلمات الفرنسية والإسبانية ذات الأصل العربي، التي لا تزال شاهدة على ذلك التراث الثقافي والعلمي؟

لقد لخص سير جون غلوب (Sir John Bagot Glubb)، المعروف بغلوب باشا، والذي كان ضابطاً بريطانياً وقائداً عسكرياً بارزاً، اشتهر بقيادته الجيش العربي الأردني أو ما يُعرف بـ الفيلق العربي خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، هذه الإشكالية بدقة عندما كتب: «إن تاريخ التقدم، ذلك الصعود المذهل للإنسان من حالة بدائية إلى الحداثة، يفقد وضوحه عندما يُشوّه تسلسله الزمني بحذف قرونٍ بأكملها، أو بتقديم عناصر مجزأة ومختزلة، تُنتقى هنا وهناك وفقاً لتحيزاتنا العاطفية أو نزعتنا القومية الضيقة».

فلنتذكر أنه في الوقت الذي سعت فيه السلطات الدينية والعلماء المنغلقيين فكرياً في أوروبا في عصر ما قبل عصر النهضة إلى محو المعارف القديمة، كان العلماء المسلمون قد استوعبوا تلك المعارف وطوّروها منذ قرون، وأضافوا إليها بصمتهم الخاصة، فقد نقضوا بعض الثوابت، وأعادوا تشكيل المناهج البحثية العلمية، أو حتى ابتكروا مناهج بحثية جديدة بالكامل.

في حقبة كان فيها أي نشاط فكري في أوروبا مُجبراً على الانصياع التام لسلطة الكنيسة، وكان الإبداع العلمي يُقابَل بالرفض والقمع، تميّز العالم الإسلامي بمناخ مختلف تماماً. فقد كان بيئة خصبة جمعت بين علماء دين مستنيرين، من الفقهاء والمفكرين، لم يروا في البحث

والاستقصاء أي تهديدًا للإيمان، بل على العكس، اعتبروه جزءًا أصيلاً من التقدّم. وبهذا المناخ من التعايش، تحققت الطفرات والمآثر التي غيرت مجرى تاريخ العلوم.

هذه تحديداً هي الرسالة التي يرغب في نقلها هذا الكتاب: استعادة الذاكرة التاريخية، ودحض السرديات المجتزأة التي تهتمش الإرث العربي الإسلامي، وإعادة الاعتبار لحلقة جوهريّة في مسار الحضارة الإنسانية.

رواد المعرفة وحملة مصادر الإبداع

الطب

لا شك أن بدايات الطب عند العرب كانت جزءاً من التراث الشعبي، شأنها شأن الثقافات الأخرى. كان هذا الطب الشعبي يعتمد على التقاليد المتوارثة والتجارب المحلية، التي قد تعود بجذورها إلى حضارات قديمة مثل حضارة بلاد الرافدين، حيث تشير النصوص المكتوبة الأولى المتعلقة بالطب إلى قانون حمورابي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. هذا القانون، الذي يعد من أقدم القوانين المدونة في التاريخ، نظم مهنة الطب وحدد أجور الأطباء والمسؤوليات التي تقع عليهم في حال وقوع أخطاء طبية. أما في شبه الجزيرة العربية، فقد اعتمدت الممارسات الطبية على العلاجات البدائية المستمدة من البيئة المحلية، مثل استخدام النباتات الطبية كالحبة السوداء المعروفة باسم حبة البركة، التي أظهرت الأبحاث الحديثة قدرتها على تعزيز دفاعات الجسم وتنظيم الالتهابات. كما استخدموا الجرجير، المعروف بخواصه المدرة للبول والمضادة للأكسدة. أما نبات السنا، فقد اشتهر بقدرته على تحسين حركة الأمعاء. كما امتدت الممارسات العلاجية البدائية لتشمل استخدام منتجات طبيعية أخرى مثل حليب الإبل لعلاج الجروح وتخفيف آثار الحروق وضربات الشمس.

لم تكن جميع العطور التي اشتهر بها العرب ذات منشأ عربي خالص؛ فقد استورد العرب العديد من مواد صنعها الخام، خاصة من بلاد فارس والهند، حيث لعبت هذه الروائح دورًا كبيرًا في إضفاء طابع الفخامة آنذاك. وفيما يخص الطب، يوضح الطبيب والمؤرخ ابن أبي أصيبعة أن معظم المعارف الطبية الإنسانية نمت من خلال التجربة والصدفة. بدأت هذه المفاهيم بالتشكل عند ملاحظة الظواهر الطبيعية وربطها بأسباب ونتائج، ثم استنبطت منها بالتدريج القواعد والمبادئ. مع مرور الزمن، وتراكم المعرفة الطبية عبر المجتمعات القبلية، وصولاً إلى من كانوا يُعرفون بـ«المعالجين» أو «السحرة» في ذلك الزمان. ومن الجدير بالذكر أن الأحاديث النبوية الشريفة أوصت بالعناية بالصحة والحفاظ على الجسد وشجعت على النظافة المستمرة؛ إذ إن الجسد في الإسلام أمانة لصاحبه وله حرمة يجب أن يتم احترامها. وبحلول القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بدأ العلماء المسلمون في جمع الأحاديث النبوية ذات المضمون الطبي في مؤلفات مستقلة عُرفت بـ«الطب النبوي»، لتكون مرجعًا مهمًا في مجال العناية بالجسد والصحة من منظور إسلامي. تضمنت محتويات كتب «الطب النبوي» نصائح عملية لعلاج مختلف الأمراض، إلى جانب وصفات للعلاجات، فعلى سبيل المثال من أبرز ما ورد فيها الحديث النبوي الشريف: «تداووا، فإن الله لم يخلق داءً إلا وخلق له دواء، إلا داءً واحدًا: الشيخوخة».

من ناحية أخرى، يُجمع المؤرخون على أن أول طبيب عربي بارز هو الحارث بن قلادة، الذي وُلد في القرن السادس الميلادي في الطائف بمنطقة الحجاز. يُعتقد أنه تعلم الطب في مدينة جنديسابور في بلاد فارس. تخصص الحارث في علم نظافة وصحة الجسد، وقد استقبل عددًا من المرضى الذين أرسلهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعالجهم. يُنسب إلى الحارث بعض التوصيات الطبية التي أصبحت

تقاليد شائعة عند الأطباء العرب بعده، مثل عدم تناول الطعام بعد الاستحمام أو بعد الشبع، وكان يُشيد بالفوائد الصحية للبن والفاكهة والعسل وزيت الزيتون.

بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، انطلقت الفتوحات الإسلامية وبدأ العرب في التفاعل مع الثقافات المختلفة التي وجدوها، فالتقى بعض العرب الفاتحين مع الجيل الأخير لعلماء مدرسة الإسكندرية الطبية^(١) التي كانت قد أسست تقاليد طبية متينة في العصور السابقة. هذه المدرسة كانت قد احتفظت بالكثير من أعمال الأطباء اليونانيين الأوائل مثل أبقرات وجالينوس، الذين كان لهما تأثير كبير على الطب في العالم القديم.

كانت تعاليم أبقرات وجالينوس محظورة ومرفوضة في ذلك الوقت من قبل الكنيسة المسيحية لعدة قرون. ومع الفتوحات الإسلامية بدأت هذه التعاليم الطبية، التي كانت ما زالت محفوظة بالمراكز الطبية الهامة في الأناضول مثل مدينة إزمير وأفسوس وبرغامون، في الوصول إلى العرب. بالإضافة إلى ذلك احتوت هذه المدن على مراكز علمية مشهورة تشكل محطة رئيسية لتعلم الطب مثل مزار أسكولابيوس إله الطب في الأساطير اليونانية القديمة. مع مرور الوقت أصبحت موسوعة جالينوس الطبية، التي تحتوي على ستة عشر مجلدًا، المرجعية الطبية الرئيسية لدى الأطباء العرب واحتلت مكانة بارزة في كتبهم وبحوثهم الطبية الجديدة. وقد صارت هذه الكتب أساسًا لتعليم الطب، وشكلت موضوعًا للعديد من الأعمال الطبية التي كتبها العلماء المسلمون. لذا، يجدر بنا الإشارة

(١) يشير تعبير «المدرسة السكندرية» - إلى المنهج الذي أنشأه بانتيانس السكندري حوالي عام ١٨٠ - إلى مدارس مختلفة (لاهوتية وفلسفية) كانت جزءًا من نفس الحركة الفكرية التي كان قلبها النابض في الإسكندرية.

أن الطب الذي درسه العرب وطوروه لم يكن «طَبًّا عربيًّا» بالمعنى الحرفي، إذ لم يكن الأطباء العرب هم من أسسوا هذه المعارف من البداية، بل لأن اللغة العربية أصبحت الوسيلة التي تم بها تدوين هذه العلوم ونقلها وتطويرها.

الفلسفة

لم يكن الفكر العربي قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية قد خطا خطوات واسعة في ميدان الفلسفة، بل اقتصر على التأمل في الطبيعة وحياة الإنسان ومصيره من خلال صياغة الألغاز والحكم. وعندما بدأ التساؤل العقلي يأخذ مكانه، تمثلت الإجابة على تلك التساؤلات غالبًا في صورة استسلام لإرادة الله دون محاولة للبحث عن تفسير أعمق.

لاحقًا ومع بدء التفاعل مع الفلسفة اليونانية، وخاصة عبر ترجمات النساطرة والسريان، وجد العرب أمامهم منظومة فلسفية متماسكة مثل تلك التي قدمها أفلاطون وأرسطو. سعوا إلى تطوير هذه الفلسفة بما يتماشى مع عقيدتهم الإسلامية، فعملوا على تأويل بعض الأفكار أو تقديمها بطريقة لا تتعارض مع الشريعة. لتجنب معارضة المناهضين للفلسفة، قُدمت الفلسفة باعتبارها حكم مستمدة من المعرفة الإنسانية وليست نتاج العصور اليونانية القديمة. ولهذا السبب، أطلق على الفلاسفة اليونانيين لقب «القدماء»، مع تجنب وصفهم بأنهم وثنيين. ولم يكن غريبًا أن تحمل العديد من المؤلفات الفلسفية الإسلامية عناوين تشير إلى الحكمة بدلاً من الفلسفة، مثل كتاب الفارابي «الجمع بين رأيي الحكيمين: أفلاطون الإلهي وأرسطوطاليس»، وكتاب ابن رشد «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال».

في كلتا الحالتين، أشار الفارابي وابن رشد إلى الفلاسفة بوصفهم حكماء، وأدرجهم ضمن سلسلة ممتدة من الشخصيات التي أثرت

الفكر الإنساني على مر العصور، بدءًا من الأنبياء، مرورًا بمجوس الهند وفارس، وصولاً إلى فلاسفة اليونان. ومع ذلك، بالنسبة للعارفين بجوهر الفلسفة، كانت تعاليم أرسطو، شأنها شأن تعاليم المدارس الفكرية الأخرى، تمثل حقيقة عليا. أما العقائد الدينية الراسخة والإيمان العام الذي يعتنقه الناس، فقد كان يُنظر إليه على أنه خطوة رئيسية⁽¹⁾ تمهد الطريق نحو استيعاب تلك الحقيقة الفلسفية.

بدأت الفلسفة لعلماء المسلمين وكأنها أفكار عليا ولدت من التأمل وإعمال العقل، فمثلاً أظهر الفيلسوف العربي الكندي استقلالاً فكرياً واضحاً عن الفلسفة اليونانية، حيث تبني فكرة أن العالم خلقه الله من العدم، خلافاً لفكرة «أزلية العالم» التي تبناها بعض الفلاسفة اليونانيين. نلاحظ نفس النزعة الاستقلالية في فكر فلاسفة مسلمين آخرين، مثل الرازي، الذي خالف أرسطو في عدة قضايا جوهرية. كان مفهوم الفلسفة عند المسلمين أكثر شمولاً مقارنةً بالتقاليد التحليلية الحديثة، إذ امتد ليشمل المسائل العلمية الكبرى، مع تمييزها عن العلوم التقليدية بتركيزها على المبادئ العامة للمعرفة بدلاً من التفاصيل. أما دراسة الفلسفة ذاتها، فقد كانت تهدف في الأساس إلى غاية عملية: وهي فهم الكون وموقع الإنسان منه، للوصول إلى أفضل طريقة للحياة. ومع مرور الزمن، تبنت الأجيال اللاحقة من الفلاسفة المسلمين توجهات متباينة، مما أضاف تنوعاً فكرياً إلى التراث الفلسفي اليوناني-الإسلامي.

سعى ابن رشد إلى استعادة جوهر فلسفة أرسطو الأصيلة، محاولاً تقديم تفسير متزن يجمع بين العقل والنقل. وعلى صعيد آخر، جمع

(1) T. J. de Boer. *L'Histoire de la philosophie en Islam* في تاريخ الفلسفة في الإسلام
Traduit de l'anglais par Edward R. Jones. *Études médiévales*
[دراسات قروسطية].

محيي الدين بن عربي بين التصوف والفكر الإسلامي، واعتبر الإنسان أسمى انعكاس للطبيعة الإلهية، والنبى محمد صلى الله عليه وسلم أكمل إنسان على وجه الأرض. ورغم أن العالم العربي-الإسلامي لم يكن يمتلك تراثاً فلسفياً خاصاً قبل انتشار الفكر اليوناني؛ فإنه نجح في تأسيس مدرسة فلسفية متميزة، استمدت أصولها من الفلسفة الإغريقية والهلينستية، وتناولت بإبداع العلاقة المعقدة بين العقل والإيمان. وقد بلغت هذه المدرسة أوج ازدهارها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قبل ظهور الفلسفة الغربية في العصور الوسطى، حينما تألقت بأسماء عقول عربية لامعة مثل الكندي، الفارابي، ابن سينا، وابن رشد، الذين طوروا فروع الفلسفة اليونانية، مثل الميتافيزيقا، المنطق، الفلسفة الطبيعية، والأخلاق. أبدع هؤلاء الفلاسفة بأسلوب فريد أظهر قدراتهم التحليلية وبعدهم نظرهم. إن تاريخ الفلسفة الإسلامية يمثل قيمة فريدة لأنه شكّل المحاولة الأولى لاستيعاب الفكر اليوناني في سياق ثقافي جديد. كما تجدر الإشارة إلى تأثير الفلاسفة اليهود الذين كانوا يكتبون بالعربية، خصوصاً في الأندلس، حيث تأثروا بالفكر الإسلامي وتأثر بهم المسلمون. وكان هناك تشابه ملحوظ بين محاولات التوفيق بين الفلسفة والدين لدى كل من موسى بن ميمون وابن رشد، مما يعكس تقارباً فكرياً في قضايا العقل والإيمان.

بماذا تدين الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى للعرب؟

تبدو الإجابة على هذا السؤال معقدة، حيث تدين الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى للعرب بتجديد مزدوج غير مسار الفكر الأوروبي. أولاً، أعاد الفلاسفة المسلمون تقديم أرسطو بصورة أشمل وأدق، مما أتاح للغرب التعرف على منطق وفيزيائه وميتافيزيقاه بشكل غير مسبوق. ثانياً، قدمت كتابات ابن رشد تفسيراً فلسفياً خاصاً للمذاهب الأرسطية،

باعتبارها تجسد الحقيقة العليا، مما أثر بعمق على الفكر اللاتيني في العصور الوسطى. وكما أوضح علي بن مخلوف الفيلسوف المغربي والباحث في الفلسفة الإسلامية، كانت الفلسفة العربية في العصور الوسطى مصدرًا لنشأة فلسفة أخرى، وهي «الفلسفة الغربية»، التي ازدهرت خلال عصر النهضة الأوروبية وامتدت إلى فلسفات القرنين السابع عشر والثامن عشر^(١). ويضيف آلان دي ليبيرا، أحد كبار المتخصصين في الفلسفة العربية، أن فلاسفة الأندلس المسلمين لم يكونوا مجرد ناقلين للفكر الإغريقي، بل أنتجوا فلسفة أصيلة تخدم مجتمعهم وعصرهم^(٢).

الرياضيات

على الرغم من الانتقادات التي وجهها بعض الباحثين أمثال إرنست رينان والفيزيائي والفيلسوف بيير دوهيم (١٨٦١- ١٩١٦)، اللذين اعتبرا الرياضيات العربية مجرد انعكاس أو استنساخ للعلم اليوناني؛ إلا أن هذا الرأي يتجاهل إسهامات العرب الفريدة التي أحدثت ثورة في المجال. استمر هذا الادعاء لفترة طويلة (ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا) أن العرب لم يجلبوا إضافات حقيقية للعلم الإغريقي التقليدي، كما أن علماء الرياضيات بينهم كانوا يفتقرون إلى الدقة!

وإذا حاولنا مجازاة هذا المنطق المعتل، سنكون قد أغفلنا العديد من الابتكارات في تاريخ علم الرياضيات، فعلى سبيل المثال، أسس

La philosophie arabe, de ses origines grecques à sa présence européenne: (١)

migration et acclimation [الفلسفة العربية، من أصولها اليونانية إلى حضورها

الأوروبي: الهجرة والتأقلم]. Dans *Rue Descartes* 2014/ 2 (n°81), pp. 24-37.

(2) Alain de Libera. *Philosophie* [مجلة الفلسفة] 27 septembre 2012.

الخوارزمي علم الجبر كفرع مستقل عن الرياضيات، مقدّمًا منهجًا جديدًا تمامًا وغير مرتبط بأي تقليد حسابي سابق. كان هذا الابتكار في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي نقطة تحول حاسمة، مهدت الطريق لتطورات رياضية هائلة ستوالى عبر العصور منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

وماذا عن الأرقام الهندية التي ساهم الخوارزمي (ت. ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) في إدخالها إلى العالم الإسلامي، ومنها إلى الغرب، لتُحدث ثورة في نظام الأعداد العشرية؟ وماذا عن إسهامات البتّاني (ت. ٣١٧هـ/ ٩٢٩م) الذي أدخل استخدام الجيب في الحسابات الرياضية والفلكية، ووضع جداول دقيقة للجيب والمماس، مما رسخ دعائم علم المثلثات؟ وكذلك الكامل الحاسب^(١)، أول عالم رياضيات استخدم الأعداد غير النسبية كحلول ومعاملات للمعادلات، وهو ما استند عليه الرياضي الإيطالي الشهير ليوناردو فيبوناتشي -المُلقب بأبو الرياضيات الأوروبية- في تطوير تقنياته الرياضية لاحقًا. أما الكراجي (ت. ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)، فعلى الرغم من استلهامه أعمال من سبقوه، إلا أنه كان صاحب الفضل في تحرير علم الجبر من الارتباط بالعمليات الهندسية، ليضع أساس المنهج الجبري الحديث القائم على العمليات الحسابية الرمزية. وبالنسبة لعمر الخيام (ت. ٥١٥هـ/ ١١٢٣م)، فإن من لم يقرأ رسالته في الجبر قد يجهل إنجازاته الكبير في استخدام هندسة إقليدس لحل المعادلات من الدرجة الثانية والثالثة، كما أنه كان رائدًا في اقتراح حلول للمعادلات

(١) ويُعتقد أن هذا اللقب يُشير إلى عالم رياضيات مسلم عاش في القرن الثالث أو الرابع الهجري (التاسع أو العاشر الميلادي). يُنسب إليه تطوير واستخدام الأعداد غير النسبية في حل المعادلات ومعاملاتها، وهو من بين العلماء الذين مهدوا الطريق أمام تقدم علم الجبر والرياضيات في العالم الإسلامي.

التكعيبية، متجاوزًا بذلك منهج الخوارزمي، وهو ما اعتبره علماء الرياضيات نقلة نوعية في هذا المجال.

الملاحه

فيما يتعلق بالملاحه، كانت الجغرافيا العربية، مثل الجغرافيا المسيحية في نهاية العصور الوسطى، تعتمد بشكل رئيسي على أعمال العالم اليوناني بطليموس الفلكي. لكن العلماء المسلمون تعاملوا مع هذه الأعمال بطريقة مستقلة عن الغرب. فقد قام الخوارزمي، في كتابه «تكوين الأرض»، بتصحيح وتحسين الخرائط التي وضعها بطليموس، ما جعله يقدم خرائط أكثر دقة من تلك التي اقترحها الفلكي اليوناني. وكانت واحدة من أبرز التحديات التي واجهها الملاحون في تلك الفترة الرؤية الخاطئة للقارة الإفريقية التي عرضها بطليموس، حيث صورها كأنها تمتد بشكل لا نهائي نحو الغرب وتلتقي بجنوب شرق آسيا من الشرق، مما جعل المحيط الهندي يبدو كبحر محصور. هذه الرؤية كانت تعني أنه لا يوجد اتصال بحري مباشر بين البلدان المطلة على المحيط الأطلسي والهند وجنوب شرق آسيا، ما لم يتم عبور المحيط في منطقة شاسعة بعيدًا عن الجزء المرئي من العالم وتغطي الجزء الأكبر من الأرض. على الرغم من أن العديد من الجغرافيين المسلمين تبنوا هذا الرأي، بما فيهم محمد الإدريسي الذي كان له تأثير كبير على الجغرافيا الأوروبية، إلا أن علماء آخرين لم يتفقوا مع هذه الرؤية. فقد أشار العديد من الجغرافيين المسلمين إلى التقليد الأقدم والأكثر رسوخًا لجغرافي آخر من العصور القديمة، وهو سترابون (٦٠-٢٠ ق.م). الذي أظهرت خرائطه قارة إفريقيا أصغر بكثير، ومحاطة بالمحيط. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك بعض الجغرافيين الذين اعتقدوا أن بطليموس قد يكون على خطأ في تصوراتهِ، مما دفعهم إلى تقديم رؤى مختلفة حول شكل الأرض وتوزيع

المحيطات. على سبيل المثال، اقترح الجغرافي ابن خردادبه^(١) (ت. حوالي ٢٠٥-٣٠٠هـ / ٨٢٠-٩١٣م) في كتابه «كتاب المسالك والممالك» الذي يعود إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أن جزءاً من الأرض كان مغطى بالمحيط العظيم الذي يحيط باليابسة، مما يوحي بوجود طريق بحري من المحيط الأطلسي إلى الشرق، وهو ما يتناقض مع تصور بطليموس.

ينتمي ابن خُرداذبَه إلى عائلة زرادشتية الأصل، إلا أنه اعتنق الإسلام لاحقاً، عُيِّن في خدمة البريد وجمع المعلومات للخلافة في المقاطعة المركزية لولاية الجبال، وهي مقاطعة قديمة تقع في غرب وسط بلاد فارس الوسطى، ثم في سامراء وبغداد خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. تميّز ابن خُرداذبَه باتساع معرفته واهتمامه بمختلف جوانب الحياة، إذ كتب في مجالات شتى مثل التاريخ، الأنساب، الجغرافيا، الموسيقى، وفنون الطهي. هذا التنوع في اهتماماته يعكس شغفه بالحياة الاجتماعية والثقافية لعصره. وقد ذُكر في المصادر العربية الخاصة بالسير الذاتية أنه أَلَف ما لا يقل عن تسعة كتب، مما يبرز مكانته بين العلماء والمؤلفين في ذلك العصر. وفي عهد الخليفة المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م)، الذي كان قريباً منه، قام ابن خُرداذبَه بإنجاز هام في مجال الجغرافيا، حيث ترجم كتاب بطليموس الجغرافي إلى العربية.

(١) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خُرداذبَه. هو ابن عبد الله بن خُرداذبَه، وهو قائد عباسي بارز، وهو ابن أحد الزرادشتيين الذين اعتنقوا الإسلام. عُيِّن ابن خُرداذبَه «مديراً للمناصب والاستخبارات» لمحافظة جبال في شمال غرب إيران في عهد الخليفة العباسي المعتصم (الذي حكم من ٨٦٩ إلى ٨٨٥م). وبهذه الصفة، عمل ابن خُرداذبَه كمدير بريد الخليفة وجاسوس شخصي في المقاطعة.

كانت المساهمة الأبرز لابن خُرْداذبَه في مجال الجغرافيا من خلال مؤلفه الشهير «المسالك والممالك». ورغم أن النص الكامل للكتاب لم يصل إلينا، إلا أن النسخة المختصرة التي وصلت إلينا منه تُظهر بوضوح تفوقه في الجغرافيا الإقليمية والوصفية والاقتصادية والسياسية. ولا يقتصر الكتاب على وصف العالم الإسلامي في عهد العباسيين، بل يتجاوز ذلك ليشمل المناطق التي لا تخضع لحكم المسلمين، مقدِّمًا وصفًا غنيًا لاستكشافات وحكايات المغامرات وعجائب العالم.

ركز ابن خُرْداذبَه بشكل كبير على الوصف التفصيلي للطرق وأنظمة المواصلات في المناطق المأهولة من العالم، معتمدًا على مصادر متعددة، منها سجلات الدواوين الرسمية والروايات المباشرة من التجار والرحالة والبحارة العرب. استند أيضًا إلى مصادر فارسية قديمة، مما جعل كتابه مرجعًا أساسيًا للجغرافيين اللاحقين. اتخذ العراق، وبالأخص بغداد، مركزًا لوصف الطرق في كتابه. فمن بغداد، استعرض الطرق البرية والبحرية الممتدة في الاتجاهات الأربعة؛ إلى الشرق وصولاً إلى آسيا الوسطى والطريق البحري نحو الهند والصين، إلى الغرب نحو شمال إفريقيا وإسبانيا، إلى الشمال: امتدادًا إلى أذربيجان والقوقاز، وإلى الجنوب حتى جنوب الجزيرة العربية. لذلك، أصبح هذا الكتاب مصدرًا لا غنى عنه من مصادر المعرفة للجغرافيين والرحالة اللاحقين، فضلًا على أن الكتاب يشير إلى صلة جغرافية هامة بين المحيط الهندي والمحيط الأطلسي، حيث أوضح ابن خُرْداذبَه أن «المحيط يحيط بالأرض كالحلقة»، مع اتصال بحر الروم [البحر الأبيض المتوسط] وبحر فارس [المحيط الهندي] بالمحيط.

كما ألمح إلى فكرة إحاطة المحيط بإفريقيا من خلال وصفه للمناطق الصحراوية الواقعة جنوب السودان، إذ قال: «إن [المناطق الممتدة] بين قفار السودان والمحيط إلى الجنوب صحاري مقفرة. ولم أسمع عن أي

سكان أو حيوانات أو نباتات تعيش في هذه الأجزاء، ولا يُعرف مدى هاتين المنطقتين القاحلتين حتى المحيط».

نذكر أيضًا أبو زياد البلخي (٢٣٦-٣٢٢هـ / ٨٥٠-٩٣٤م)، هو عالم جغرافي ورياضي من طراز استثنائي، أسهم إسهامًا فريدًا في تطوير علم الخرائط. أسس المدرسة البلخية لرسم الخرائط الأرضية في بغداد، حيث قدم نموذجًا جديدًا يدمج بين التصور العام للأرض وبحارها وجبالها وأنهارها وبين التركيز على تفاصيل دقيقة خاصة بالعالم الإسلامي. اعتمد البلخي على فكرة تقديم إطار عام للأرض كمدخل، إلا أن جوهر مشروعه تمثل في تخصيص رسم تفصيلي لبلاد الإسلام. كان هذا التحول فريدًا من نوعه، إذ أعاد تعريف مفهوم «الإقليم». ففي حين كان الإقليم في الخرائط اليونانية القديمة يشير إلى المناطق السبع المتعاقبة المحاذية لخط الاستواء، رفض البلخي هذا المفهوم باعتباره نظريًا بحتًا، وقام باستبداله بتعريف جديد. أصبح الإقليم عنده يعني منطقة جغرافية كبرى أو «بلدًا» ضمن العالم الإسلامي. وبالإضافة إلى ذلك، تميزت الخرائط في أطلس البلخي بأسلوب فريد لم يكن يعتمد على خطوط الطول والعرض المعتادة؛ بل استخدم أشكالاً رمزية مألوفة مثل الطيور لتصوير البلدان.

لم يكن الغرض من هذه الخرائط عرض بيانات جغرافية مجردة؛ بل كان هدفها الأساسي تقديم تمثيل مرئي وملاموس يعكس طبيعة العالم الإسلامي ككيان حيّ وفاعل. كان هذا الأسلوب تغييرًا جذريًا في طريقة رسم الخرائط، حيث لم يكن الرسم نتيجة نهائية لربط النقاط الجغرافية المحددة مسبقًا، بل كان نقطة الانطلاق. شكل البلدان في أطلس البلخي لم يكن تصميمًا بيانيًا مجردًا بل تمثيلًا بصريًا يهدف إلى ترسيخ الفهم بأن الجغرافيا ليست مجرد خطوط وأرقام، بل انعكاس ملموس للأرض ذات ارتباط بمناطق الثقافة والحضارة في تلك الفترة.

وفي حوالي عام ٣٣٩هـ / ٩٥٠م، اعتمد الإصطخري^(١) على أطلس البلخي كأساس لعمله الجغرافي، حيث وصف مناطق شاسعة من العالم، بدءاً من الجزيرة العربية والخليج العربي والمحيط الهندي، وصولاً إلى شمال إفريقيا، إسبانيا، مصر، وإقليم الشام-فلسطين، بالإضافة إلى البحر الأبيض المتوسط، العراق، وبلاد فارس (إيران حالياً) والهضبة الإيرانية، وحتى بلاد ما وراء النهر. شمل وصفه أيضاً أقاليم أرمينيا والقوقاز، وصحراء خراسان، وسيستان وبلاد ما وراء النهر. غير أن الإصطخري لم يكتفِ بمجرد نقل أطلس البلخي، بل أجرى تغييرين جوهريين على هذا العمل، فأولاً عكس العلاقة بين الخريطة والنص؛ فبينما في أطلس البلخي، كانت الخريطة العنصر الأساسي، بينما كان الشرح موجزاً للغاية ومجرد إضافة توضيحية. قلب الإصطخري هذا المفهوم رأساً على عقب، حيث منح النصوص شرحاً موسعاً وتحليلياً جعلها العنصر الرئيسي، بينما أصبحت الخرائط مجرد أدوات توضيحية. بهذا التحول، نجح الإصطخري في نقل الأطلس من كونه مجموعة من الخرائط إلى موسوعة جغرافية متكاملة.

اهتمت جغرافيا الإصطخري بشكل مكثف بوصف بلاد الإسلام، حيث ركز على وصف الأرض بما تضمه من جزر وأنهار وبحار، مع إعطاء أهمية خاصة للبحار المتاخمة للدول الإسلامية. وعلى الرغم من أن هذا الجانب لم يقدّم جديداً يُذكر مقارنةً بأعمال من سبقوه؛ إلا أن تطوره الأساسي تجلّى في طريقة صياغة النص وتنظيم محتواه. ابتعد الإصطخري عن تقديم النصوص الجغرافية كبانوراما عامة تضم مختلف الموضوعات التي تناولها أسلافه، بل ركز في عمله على الملاحظات المباشرة التي جمعها من خلال رحلاته الشخصية. وبينما لم يرفض تماماً

(١) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذ به، الإصطخري. ٨٥٠-٩٥٧.

الاستفادة من معلومات الكتب القديمة، إلا أن عمله أظهر اعتمادًا أكبر على الملاحظات الشخصية كمنهج أساسي لكتابه.

تمثل الابتكار الجوهري الذي قدّمه الإصطخري في تنظيم الرحلة كمصدر رئيسي للمعلومات، وتسجيل الملاحظات الشخصية كأساس لبناء النص الجغرافي. تأثر ابن حوقل، خليفة الإصطخري، بهذا النهج الجديد، لكنه اتخذ منه مسارًا مختلفًا. استبدل ابن حوقل الكثير من معلومات الإصطخري بملاحظات شخصية اعتبرها أكثر دقة، متجاوزًا سلفه في العديد من المواضيع. ورغم هذا التعديل، يبقى الإصطخري هو من يستحق الفضل في وضع الأسس لهذا التحول الكبير، حيث فتح طرقًا جديدة لتطوير علم الجغرافيا.

أما البيروني فقد أثار فرضية مثيرة حول وجود طريق بحري مختلف، حيث وصف الطبيعة الجبلية للسواحل الجنوبية لإفريقيا وما يميزها من طقس عاصف، قائلاً: «ولكن هذا لا يمنع من التقاء [أي المحيط الهندي] بالمحيط جنوب هذه الجبال. فقد تم اكتشاف آثار هذا الملتقى، رغم أنه لم يره أحد من قبل». هذا الطرح يعكس إيمان البيروني بأن اليابسة المأهولة بالسكان محاطة بالمياه من جميع الجهات. ومن الجدير بالذكر أن معظم الجغرافيين المسلمين تبنا الاعتقاد بوجود طريق بحري يربط المحيط الأطلسي بجنوب شرق آسيا. غير أن المفهوم البطلمي الذي كان يرى أن إفريقيا تمتد شرقًا بشكل مواز لآسيا ظل حاصرًا أمام المحاولات العملية لاكتشاف هذا الطريق. على الرغم من هذه القيود النظرية، شهدت الملاحة العربية في المحيط الهندي تطورًا ملحوظًا مع مرور الوقت، مما ساعد البحارة العرب على تحقيق إنجازات كبيرة في استكشاف المحيطات واستخدام الطرق البحرية بفعالية.

حظي ثلاثة من رواد الملاحة العربية بتقدير كبير، وأطلق عليهم ابن

ماجد لقب «الأسود الثلاثة». هؤلاء هم محمد بن شاذان، وسهل بن عبّان، وليث بن كهلان. وقد وردت في كتابات سليمان المري (القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) أوصاف دقيقة ومفصلة للسواحل، والرياح، والطرق البحرية التي تربط بين شرق إفريقيا والهند وسومطرة. استوحى المري معلوماته من ابن ماجد، الذي يُعتقد^(١) أنه أرشد فاسكو دا غاما من ماليندي على الساحل الشرقي لإفريقيا إلى كلكتا. من المهم التأكيد، كما هو غالبًا مذكور في المصادر التاريخية الغربية والشرقية على حد سواء، أن العرب والمسلمين كانوا من المؤثرين الرئيسيين في تاريخ الملاحة البحرية.

نذكر أيضًا كيف شكّل المسار البري لطريق الحرير، الذي عبرت قوافله الصحاري الشاسعة من آسيا إلى أوروبا، ثنائيًا مهمًا للطرق البحرية التي اعتمدها الملاحون العرب لربط طرفي العالم القديم، من رأس فينيستر في أوروبا الغربية إلى الصين في أقصى الشرق. ورغم شهرة هذا الطريق البري، فإن الطرق البحرية كانت ذات أهمية مماثلة، بفضل تطور صناعة السفن العربية في العصور الوسطى، التي تفوقت بشكل كبير على نظيراتها الأوروبية الغربية لقرون. فالسفن العربية، التي استمرت قرابة ستة قرون في الصدارة، لم تكن مجرد قوارب خشبية بسيطة، بل كانت تمثل تجسيدًا متقنًا للمعرفة التقنية والممارسات البحرية المتقدمة للحضارة الإسلامية. ولم يقتصر البحارة العرب على الإبحار بمحاذاة السواحل العربية فقط، بل وصلوا إلى الموانئ الكبرى في جنوب الصين. وتؤكد الأوصاف الدقيقة الواردة في أعمالهم ذلك، حيث اعتمدوا على «الزيج»

(١) راجع العمل الممتاز لصاحب السمو الدكتور سلطان بن محمد القاسمي. مذكرة للمؤرخين حول براءة ابن ماجد، تحقيق الدكتور سلطان بن محمد القاسمي. الشارقة، ٢٠١٣.

أو الخرائط النجمية التي أعدها علماء الفلك المسلمون، مما ساعدهم على الملاحة الدقيقة عبر المحيطات.

كما شملت خرائط البورتولان (Portolan Charts)، وهي نوع من الخرائط البحرية التي ظهرت في العصور الوسطى، معلومات دقيقة عن الخطوط الساحلية، ظروف المد والجزر، اتجاهات الرياح، وأحوال الطقس، إلى جانب تقسيم البحر إلى مربعات تمثل خطوط الطول والعرض، مما جعلها أدوات أساسية للملاحة البحرية. كما استخدم الملاحون المسلمون البوصلة، التي يعود تاريخ اختراعها إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. كان للملاح العربي الشهير ابن ماجد الذي أتقن استخدامها الفضل في تطويرها وإضافة ابتكارًا مميزًا لها، حيث ألحق إبرة مغناطيسية بعلبة معدنية أطلق عليها اسم «حجر القدر»، مما جعلها أكثر دقة وفعالية في الإبحار. إلى جانب ذلك، اعتمد الملاحون على أداة «الكمال»، وهي أداة لقياس ارتفاع النجوم فوق الأفق. ساعدتهم هذه الأداة في تحديد خطوط العرض بدقة، مما عزز قدرتهم على الإبحار في المحيطات المفتوحة والتنقل بين القارات.

وبطبيعة الحال لا نعرف بالتفصيل جميع تقنيات الملاحة التي اعتمد عليها البحارة المسلمون، لكن من المؤكد أنهم كانوا يعتمدون على النجوم والمعالم الطبيعية للتنقل. بالإضافة إلى ذلك، كانت التوجيهات الملاحية تنتقل عبر الأجيال بشكل شفهي في صورة قصائد مقفاة، مثل أشعار ابن ماجد، التي اشتهرت في هذا المجال. من ناحية أخرى، وعلى عكس الاعتقاد السائد، لم يكن الإسطرلاب العربي التقليدي يُستخدم في الملاحة البحرية آنذاك بسبب حركة السفينة غير المستقرة، أما الإسطرلاب البحري فهو نوع متطور من الإسطرلاب التقليدي، وقد طُوّر لاستخدامه في الملاحة البحرية في البرتغال في وقت لاحق. علاوة على ذلك، لضمان السلامة من تهديدات القراصنة أو لمواجهة الحوادث

مثل العواصف أو التسربات، كانت السفن تسير في قوافل، بحيث تستطيع سفينة مساعدة الأخرى عند الحاجة.

كما برز الخليج العربي كطريق تجاري رئيسي بديل للبحر الأحمر في العصر العباسي، إذ أصبح الممر الذي تتدفق عبره ثروات و سلع بلاد فارس والهند والصين التجارية. كان هذا الطريق البحري يستخدمه ملاحو الشرق الذين استُدرجوا بواسطة ازدهار المدن العريقة مثل نينوى وبابل وسلوقية وقطيسفون. ومع توسع الإسلام إلى الضفة المقابلة للخليج وتوغله في الهند، انخرط الساحل الغربي لشبه القارة الهندية بالكامل في التجارة البحرية. كما شاركت الموانئ الواقعة على بحر العرب ومدخل الخليجين في نشاط تجاري دائم اعتمد إلى حد كبير على السفن العربية التي هيمنت على هذه الطرق المائية.

هل هناك أي دليل على سفر الملاحين العرب حتى الهند؟

في حوالي القرن التاسع الميلادي، وصل سوري يُدعى توما قانا مع ٧٢ شخصًا، غالبيتهم من المسيحيين الكلدان، إلى ساحل كيرالا، حيث أسسوا ما أصبح لاحقًا مدينة كولام الساحلية^(١). وتاريخيًا، جذبت كيرالا المستوطنين المسيحيين والمسلمين واليهود لأكثر من ألف عام. وتوضح الأساطير التي تعود إلى القرن السادس عشر على الأقل إلى وصول المسيحيين واليهود في القرن الأول الميلادي، والمسلمين في زمن النبي محمد في أوائل القرن السابع الميلادي. عبر الوافدون الجدد عن رغبتهم

(١) يرتبط تقليد هجرة توما إلى الهند بانتشار المسيحية هناك في القرن الأول الميلادي، حيث تعود كنيسة القديس توما إلى هذا التقليد. تتبع هذه الكنيسة الليتورجيا السريانية الشرقية، مما يعكس التأثير المباشر لكنيسة المشرق الآشورية والتقاليد السريانية القديمة.

في الحصول على أراضٍ لزراعة النبيذ، وقد منحهم الزعماء المحليون الأراضي لهذا الغرض. ومن الجدير بالذكر أن الملوك الهنود كانوا عادة ما يمنحون الامتيازات على شكل ألواح نحاسية منقوشة، تحمل حقوقًا اقتصادية ودينية واجتماعية للتجار الأجانب. وكانت تُعرف هذه الألواح باسم «تاريسابالي». في هذه الحالة، كانت هناك خمسة ألواح نحاسية منقوشة بثلاث لغات: المالايالامية القديمة، والعربية، والكلدانية (السريانية). وتُحفظ أربعة من تلك الألواح في ديفالوكام آرامانا التابع لكنيسة السريان الأرثوذكس في مالانكارا، بينما توجد لوحتان صغيرتان في آرامانا بولاثين (ثيروفالا) التابعة لكنيسة مار توما السريانية في مالانكارا.

وإلى الجنوب من غوا، عُثر على نقش يعود إلى القرن الثاني عشر يشير إلى تاجر مسلم، ربما كان من أصحاب السفن الأثرياء، الذي أسس مسجدًا في غوا بتمويل من الضرائب التي تم جمعها في الميناء. وفي سريلانكا، تشير النقوش الكتابية إلى وجود إسلامي كبير منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي فصاعدًا. بالإضافة إلى ذلك، تم العثور على حطام سفينتين عربيتين في بحر جاوة: وهما حطام سفينة بيليتونغ التي تعود إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وحطام سفينة سيريبون التي تعود إلى الربع الأخير من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكان كل منهما محملًا بشكل رئيسي بالخزف الصيني. في الختام، لا يسعنا إلا أن نتذكر اسم البحار الأسطوري السندباد، الذي لا تزال مغامراته تشكل مادة للأحلام حتى اليوم. ورغم أنها أسطورة بلا شك، إلا أنها ليست بعيدة عن الحقيقة.

العباقرة

أبو علي الحسين بن سينا المعروف بابن سينا (٤٢٨-
٣٧٠هـ / ٩٨٠-١٠٣٧م)

ماذا كانت حالة الطب في الغرب قبل ابن سينا؟

قبل ميلاد ابن سينا، كان الطب في الغرب في حالة من التدهور الشديد. فقد انطفأت شعلة العلم، وأصبح وهج المعرفة محصوراً داخل جدران الأديرة، حيث حُفظت الكتب بصعوبة بعيداً عن أيدي العامة. وكان الطب في ذلك الوقت مجالاً يتولاه الكهنة، وقد اقتصر على ممارسات تقليدية تعتمد على التجريب الأعمى. غالباً ما لجأ رجال الدين إلى التضرع والصلوات والماء المقدس وتوسلات القديسين، ما جعلهم أقرب إلى الممارسين للطقوس للعقائدية.

يُعدّ ابن سينا، دون شك، من أبرز الشخصيات التي مثلت الطب العربي الإسلامي. سيرته الشخصية - التي تميزت بتعقيدها - عُرفت بشكل أساسي من خلال مصدر واحد، وهو السيرة الذاتية التي أملاها ابن سينا نفسه على صديقه وتلميذه أبو عبيد الجوزجاني^(١) (توفي بعد

(1) 'Abd al-Wahid ibn Muhammad al-Juzjani. *hayat Ibn Sina: Critical Edition and Annotated Translation* [حياة ابن سينا : طبعة نقدية وترجمة مشروحة] Traduit et édité par Gohlman, W. State University of New York Press, 1974.

٤٤٠هـ / ١٠٤٨م). هذه السيرة كانت مصحوبة بشروح أضافها الجوزجاني، وقد جُمعت لاحقًا في كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة (٦٠٠-٦٦٨هـ / ١٢٠٣-١٢٧٠م). من المهم الإشارة إلى أن أغلب التواريخ المذكورة في هذه المصادر غير مؤكدة. كما أن جميع الروايات اللاحقة استندت إلى ما جاء في السيرة الأصلية التي وضعها الجوزجاني، مع إضافات متفرقة تحتاج إلى التحقق قبل اعتمادها كمصدر تاريخي.

هذا الرجل الذي حمل ألقابًا مثل «أمير الأطباء» و«الشيخ الرئيس» منذ سن مبكرة، كان شخصية استثنائية جمعت بين الإعجاب والحسد، والحب والكراهية. لقد أظهر ابن سينا اعتزازًا واضحًا بعبقريته، التي لم يتردد في التعبير عنها بجرأة ربما اعتُبرت وقاحة في زمانه. وعلى الرغم من أنه استلهم الكثير من أعمال الطبيب الكبير محمد بن زكريا الرازي (٣١٣-٤٢٧هـ / ٩٢٥-١٠١٦م) المعروف في الغرب بـ«رازس»، إلا أنه لم يتوان عن انتقاده علنًا قائلاً: «كان ينبغي أن يقتصر على اختبار البراز والبول!»

اتسم ابن سينا باستقلالية فكرية لا تعرف حدودًا، وكثيرًا ما أثار الجدل بتجاهله للتقاليد الدينية. فقد كان عاشقًا للحياة، مفرطًا في التمتع بمباهجها. مما جعله عرضة للانتقاد الدائم. يروي الجوزجاني في إحدى ملاحظاته: «لطالما أدهشني انغماس سيدي في الملذات دون أي شعور بالذنب، بينما كان يرفض مخالفة الشريعة الإسلامية بتحريم أكل الميتة. ربما كان هذا الرفض لأسباب تتعلق بالصحة العامة أكثر منه التزامًا دينيًا».

على الرغم من عبقريته، كان ابن سينا شخصية معقدة، تجمع بين الانعزالية والكآبة. أظهر احتقارًا للأمرءاء في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كان يسعى بشدة للحصول على دعمهم ورعايتهم. أما عن أصوله، فقد أفصح عن القليل فقط، مكتفيًا بالقول إن والده كان من بلخ (في

شمال أفغانستان حاليًا)، وقد انتقل إلى بخارى في عهد الأمير الساماني نوح بن منصور (توفي ٣٨٧هـ / ٩٩٧م). ويُعتقد أنه والده تولى إدارة بلدة صغيرة تدعى خرميثان، التي اندثرت حاليًا من الخرائط. وربما كان دوره مقتصرًا على حفظ الأمن وجمع الضرائب.

كانت قرية أفشانة، أو أفشونة، التي تبعد مسافة قصيرة عن خارميثان وقرية من بخارى (التي تقع الآن في أوزبكستان)، المحطة التي شهدت اللقاء بين عبد الله، والد ابن سينا، وسيتارة، المرأة التي أصبحت زوجته. الغريب أن ابن سينا، أثناء إملائه لمذكراته على تلميذه وصديقه الجوزجاني، أشار فقط إلى اسم والدته دون ذكر اسم والده. في شهر صفر من عام ٣٧٠هـ (أغسطس-سبتمبر ٩٨٠م)، وُلد الطبيب والفيلسوف الذي سيُخلد اسمه في التاريخ، بينما وُلد شقيقه الأصغر، محمود، بعد ذلك بخمس سنوات. ولأسباب غير معروفة، قررت الأسرة الانتقال إلى بخارى. والد ابن سينا، عبد الله، تأثر ببعض القادمين من مصر الذين حاولوا نشر المذهب الإسماعيلي^(١) في تلك الفترة، ويبدو أن هؤلاء الوعاظ أقاموا مع الأسرة لفترة من الزمن. يقول ابن سينا عن ذلك: «استمع أبي لوصف المصريين للنفس والعقل حسب تصورهم لهما. وكذلك أخي. أما أنا فسمعتهم، وفهمت ما كانوا يقولونه، ولكن نفسي رفضت هذا المذهب».

(١) الإسماعيلية فرقة من الشيعة ظهرت بعد وفاة الإمام جعفر الصادق (توفي ٧٦٥م/ ١٤٨هـ)، حيث انقسم أتباعه حول من يخلفه. بدايات الإسماعيلية تعود إلى القرن الثامن الميلادي، ولكنها لم تصبح قوة سياسية بارزة إلا مع قيام الدولة الفاطمية. تطور المذهب الإسماعيلي في بلاد فارس، العراق، اليمن، وشمال إفريقيا، وكان للفاطميين وجود قوي في هذه المناطق. وقد ظهرت سلالة إسماعيلية أسسوا الدولة الفاطمية (٩٠٩م - ١١٧١م)، واتخذوا القاهرة مقرًا لهم بعد تأسيسها عام ٩٦٩م. لهذا السبب، أُطلق على بعض الإسماعيليين لقب «المصريين» بسبب ارتباطهم بالفاطميين الذين جعلوا مصر مركزًا لحكمهم.

كان الكتاب المفضل لعبد الله، والد ابن سينا، عملاً بعنوان «رسائل إخوان الصفاء»، وهي موسوعة علمية فلسفية موسعة كتبت باللغة العربية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ونُسبت إلى جماعة سرية تُعرف باسم إخوان الصفا وخلان الوفا. تتألف الرسائل من ٥٢ رسالة موزعة على أربعة أقسام رئيسية، تغطي مختلف المعارف التي كانت متداولة في تلك الفترة، مثل علم الأعداد والرياضيات والمنطق وعلوم الطبيعيات والعلوم العقلية، بالإضافة إلى علم الفلك والتنجيم، والمنطق والفكر الفلسفي وكذلك الفلسفة الروحانية والصوفية. كيف حصل عبد الله على هذا الكتاب؟ وأين وجده؟ هذه أسئلة ما زالت بلا إجابة واضحة.

كان المنزل الذي نشأ فيه ابن سينا غنياً بالحوارات الفكرية حول الفلسفة والهندسة والحساب الهندي، حيث اعتنى الأب بتعليم ابنه تلك العلوم بنفسه. عندما بلغ ابن سينا الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، وصل إلى بخارى رجل يُدعى أبو عبد الله التتيلي، الذي وُصف بأنه فيلسوف، رغم أن المصادر لا تقدم سوى القليل من المعلومات عنه. رحب والد ابن سينا بهذا الفيلسوف في منزله، وكلفه بتعليم ابنه. الجدير بالذكر أن ابن سينا كان قد أظهر نبوغاً منذ سن مبكرة؛ إذ أتقن الفقه تحت إشراف العالم إسماعيل الزاهد، وهو من علماء أهل السنة المعروفين في بخارى. وبالإضافة إلى ذلك، تمكن في سن العاشرة من حفظ القرآن الكريم كاملاً عن ظهر قلب.

يذكر في كتابه «نظرة على أصناف الأطباء»، ابن أبي أصيبعة اسم الطبيب ابن نوح القُمري، الذي كان يعمل في بلاط الأمير المنصور السمعاني، قائلاً: «أخبرني الشيخ والإمام شمس الدين أن الشيخ الرئيس (ابن سينا) كان قد التقى بهذا الطبيب القمري في سن الشيخوخة، وحضر دروسه واستفاد من علمه الطبي». ومع ذلك، يظل هذا الادعاء

محل شك كبير لعدة أسباب، وأولها: رواية ابن سينا نفسه، إذ يتناقض هذا الادعاء مع ما ذكره ابن سينا عن نفسه، حيث صرح قائلاً: «الطب ليس بعلم صعب، وقد برعت فيه في وقت قصير جداً»، مما يوحي بأنه تعلم الطب بطريقة ذاتية. وثانيًا: لم يرد ذكر القمري إطلاقاً في السيرة الذاتية التي أملاها ابن سينا على تلميذه وصديقه الجوزجاني. وثالثًا حتى لو كان اللقاء قد حدث، فإنه بالتأكيد لم يستمر طويلاً، حيث توفي القمري عام ٣٨٠هـ / ٩٩٠م بينما كان عمر ابن سينا آنذاك عشر سنوات فقط. في تلك المرحلة المبكرة من حياته، كان ابن سينا قد بدأ تعليمه مع العالم أبو عبد الله النتيلي، الذي قدم إليه كتاب «إيساغوجي» لـ بورفيربوس. يُعتبر هذا الكتاب، الذي شرح منطق أرسطو بطريقة مبسطة، من أكثر الأعمال شعبية في ذلك الوقت، وظل يُستخدم على نطاق واسع في الشرق والغرب لعدة قرون، واشتهر بأنه أهم مصدر لكل من يريد أن يفهم أساسيات منطق أرسطو. تميز ابن سينا بذاكرته الاستثنائية وبقوته العقلية الفائقة، مما جعله يدهش أستاذه بسرعة تعلمه. بعد ذلك، بدأ النتيلي في تدريسه كتاب «العناصر» لـ إقليدس، وهو العمل الذي يُعد حجر الزاوية في علم الهندسة. وكما ذكر ابن سينا: «درست معه الأشكال الهندسية الأولى، ثم واصلت حل المسائل الصعبة بمفردي».

ويتابع ابن سينا في سيرته الذاتية قائلاً: «عندما وصلنا إلى دراسة كتاب المجسطي لبطليموس، ولما فرغنا من دراسة المقدمة، أشار إليّ النتيلي بالمسائل وقال لي: (اعتن بقراءتها وحلها بنفسك، ثم عرضها عليّ حتى أشرح لك ما هو صواب وما هو خطأ)». لكن سرعان ما انقلبت الأدوار، حيث يختتم ابن سينا بكل صراحة: «لقد نجحت في ذلك، ولكن النتيلي لم يستطع أن يفهم الحلول التي قدمتها له، فاضطرت أن أشرحها له». يمكننا تخيل الإحباط الذي شعر به النتيلي أمام عبقرية تلميذه الصغير، مما أدى في نهاية المطاف إلى انسحابه من

تدريسه. في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، اتخذ ابن سينا قرارًا بالاتجاه نحو دراسة الطب، حيث يقول: «بدأت في قراءة جميع الكتب التي كتبت في هذا الموضوع».

من بين الكتب التي رجع إليها ابن سينا في دراسته للطب، قد تكون هناك عدة مصادر أساسية كان يعتمد عليها مثل «كتاب الحاوي في الطب» للرازي: هذا الكتاب هو موسوعة طبية تحتوي على ٢٢ جزءًا، ويُعرف الكتاب أيضًا في اللاتينية باسم «كونتيننس ليبير»، وكان مصدرًا أساسيًا في طب القرون الوسطى. ومن المحتمل أيضًا أنه عاد إلى مخطوطات كتاب «المسائل في الطب» لابن إسحاق أو «كتاب الملنخوليا» لإسحاق بن عمران^(١). برع ابن سينا في الطب بسرعة شديدة، لدرجة أن الأطباء البارزين في منطقته بدأوا يستشيرونه. وكان يذهب كل يوم إلى الليمارستان^(٢) في بخارى، حيث كان يُمارس الطب مباشرة، ويحقق تقدمًا كبيرًا في تشخيص الأمراض واختيار العلاجات. كما يذكر ابن سينا قائلاً «على مدى عامين، وعلى ضوء الشموع، كرست نفسي للقراءة والكتابة. وعندما كانت تعترضني مشاكل تبدو لي غير قابلة للحل، كنت أذهب إلى المسجد للعبادة والتضرع إلى الخالق بخشوع وخضوع، حتى يلهمني الحل ويحول الصعب إلى سهل. ثم أعود إلى العمل، حتى ينال مني الإرهاق. ثم، لاستعادة طاقتي، كنت أتوقف بعض الوقت ثم أعود إلى طاولة العمل. وأحيانًا كنت أراجع الأسئلة أثناء نومي فتأتيني الإجابات. حافظت على الدراسة المتواصلة

(١) هذا هو الكتاب الوحيد الباقي من مؤلفات إسحق بن عمران. وهو موجود في مكتبة Bayerische Staatsbibliothek في ميونيخ.

(٢) كلمة فارسية الأصل تعني مستشفى ومعناها «محل المريض». كانت للليمارستانات في العصور الوسطى دورًا لعلاج الأمراض وكانت أيضًا معاهد لتدريس الطب.

والاعتماد على التأمل والصلاة حتى ترسخت علوم الطب في ذهني، وكل ما مكنتني من الوصول إلى مستوى عالٍ من الإتقان في هذا المجال منذ سن مبكرة (في السادسة عشرة) ومن بعدها لم أتعلم شيئاً جديداً.

انتقل ابن سينا بعد ذلك إلى دراسة الميتافيزيقيا لأرسطو، وهو المجال الذي ظلّ يشكّل تحدّيًا له لفترة طويلة. يذكر في سيرته قائلاً: «لقد قرأته أكثر من أربعين مرة، حتى حفظت النص عن ظهر قلب، وما زلت لم أفهمه». وكان يبدو أن فهمه للميتافيزيقيا ظل بعيد المنال رغم إصراره المتواصل. وفي يوم من الأيام، بينما كان في حي المكتبات، صادف بائعاً يعرض عليه كتاباً بثلاثة دراهم فقط، وقال له إن صاحب الكتاب في حاجة إلى المال. ورغم تردده في البداية، قرر ابن سينا شراء الكتاب. ولدهشته، اكتشف أن الكتاب كان لأبي نصر الفارابي، وكان يتناول موضوع الميتافيزيقا. وفي اليوم التالي، وامتناناً لله قرر أن يقدم صدقات للفقراء، تعبيراً عن فرحه وامتناناً لما تحقّق له من معرفة؛ فبفضل الفارابي استطاع ابن سينا فهم كتاب أرسطو.

في عامه السادس عشر، وقع حدث مهم كان له دور كبير في تعزيز وتوسيع معرفته. وصل ساع إلى منزل ابن سينا، ليطلب منه التوجه بسرعة إلى الأمير نوح بن منصور، أمير بخارى، الذي كان يعاني من مرض غامض لم يتمكن أي طبيب من تشخيصه. وهذا الطلب يشير إلى أن ابن سينا لم يكن فقط قد بدأ ممارسة الطب في سن مبكرة، بل كان قد أصبح معروفاً بمهاراته في هذا المجال. على الرغم من أن ابن سينا لم يذكر أي تفاصيل عن تشخيصه للمرض أو العلاج الذي قدمه، إلا أنه بعد عدة أيام انتشرت الأخبار في خراسان بأن الأمير قد شفي. استدعى الأمير نوح الطبيب الشاب وسأله عن مكافأته. وبكل تواضع، طلب ابن سينا «الولوج إلى المكتبة الملكية السامانية». ورغم استغراب الأمير من هذا الطلب البسيط، وافق على الفور. وهكذا، دخل ابن سينا إلى المكتبة

التي كانت مخصصة للنخبة فقط، حيث أصبح بإمكانه دراسة الفقه وكافة العلوم المعروفة في عصره، بالإضافة إلى الاطلاع على الأعمال المعرفية العظيمة التي خلفها الإغريق القدماء. كانت المكتبة تحتوي على العديد من الكتب النفيسة، خاصة الترجمات العربية لأعمال جالينوس وأبقراط. وفي هذا المكان، اكتشف ابن سينا مخطوطات لم يكن قد سمع بها من قبل، ولم تتح له الفرصة للعثور عليها مرة أخرى، مما جعل هذه الفترة نقطة تحول كبيرة في مسيرته العلمية.

في سن الحادية والعشرين، ألف ابن سينا أول كتاب له بناءً على طلب جاره أبو الحسن العروضي، وهو شاعر وخبير في العروض^(١)، الذي طلب منه كتابًا جامعًا في العلم المعروف باسم «المجموع أو الحكمة العروضية»^(٢). ما إن انتهى من الكتابة حتى زاره رجل يُدعى أبو عبد الله بن أبي بكر، ينتمي إلى أسرة كبيرة من خوارزم، وكان شغوفًا بالفقه والقرآن والزهد. طلب منه أن يعلق على تلك العلوم، مما يثير الظن أنه كان يتقاضى أجرًا مقابل هذا النوع من الأعمال.

في فترة زمنية قصيرة، ألف ابن سينا كتابه «الحاصل والمحصل» في عشرين كتيبًا، وفيما بعد كتب «البرُّ والإثم» لشرح بعض المسائل عن الأخلاق لرجلٍ فقيه يقال له أبو بكر البرقي وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عنده فلم يعد يعرفهما أحد يَنتسخ منهما. من خلال مراجعة عناوين الأعمال التي ألفها، والتي اختفى معظمها للأسف، نلاحظ أنه كان يتمتع بقدرة هائلة على العمل والإبداع. هاتان الصفتان ظللتا تميزانه طوال

(١) مجموعة من القواعد المنظمة لكم حروف العِلَّة المستخدمة في تركيب الأبيات، بالأخص في القصائد الإغريقية واللاتينية.

(٢) يُعتقد أن كتاب «المجموع أو الحكمة العروضية» (وهي موسوعة مختصرة تبحث في جميع أنواع المعرفة) منسوب لابن سينا.

حياته، حتى في أيامه الأخيرة. وإذا أردنا تلخيص حياته، فإن كلمة واحدة تكفي: الترحال.

في عام ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م، وعندما بلغ ابن سينا الثانية والعشرين من عمره، قرر مغادرة بخارى والتوجه إلى قورقندج (التي تعرف اليوم بأورغنش في خوارزم). ووفقًا لبعض كتاب سيرته، كان رحيله بسبب اتهام ملفق من بعض الحاقدين عليه، الذين ادعوا أنه أضرم النار في المكتبة الملكية ليستأثر بما تحتويه من معارف. ومع ذلك، من الصعب تصديق هذا الاتهام، فلماذا انتظر خمس سنوات لارتكاب جريمته. من المرجح أن هناك أسبابًا أكثر واقعية وراء قراره بالرحيل. أحد الأسباب الرئيسية هو وفاة والده في ذلك الوقت، وكذلك تدهور السلالة السامانية التي كانت تحكم بخارى، مما جعله يفقد الحماية السياسية التي كانت توفرها له العائلة الحاكمة. إضافة إلى ذلك، كان ابن سينا يحمل رسالة تزكية من أبي الحسين السهيلي، وزير أمير جورجانديج أبو العباس مأمون بن مأمون (الملقب بمأمون الثاني)، وهو أمير مخلص للعلم والعلماء.

في قورقندج، وجد ابن سينا بيئة علمية خصبة حيث قابل العديد من العلماء المرموقين. من بينهم كان البيروني، وهو عالم موسوعي، وأبو سهل^(١)، وهو طبيب وفيلسوف معروف. كما التقى بابن الحمّر، الذي كان كبير مدرسة الأرسطيين في بغداد قبل أن ينتقل إلى غورجانديج.

أما في غورجانديج، كرّس ابن سينا وقته للكتابة والتعليم والتمريض. هذه المرحلة كانت حافلة بالإنتاج العلمي والفكري. فقد ألف العديد من الأعمال في مجالات متنوعة، أبرزها: مختصر في النبض، وقصيدة في

(١) أبو سهل (توفي حوالي عام ١٠١٠) أحد أطباء هذه الحقبة كان له الفضل فيما تحقق من تقدم في الطب من خلال كتاباته، وما كان له من تأثير على علماء كبار على غرار البيروني وابن سينا الذين تتلمذوا على يديه.

المنطق، وتفنيداً للتنبؤات المستقبلية المبنية على الأبراج المعروفة باسم «تفنيد التنجيم القضائي»، رسالة في الزهد وفي هذا الكتاب يعرض حالة الوعي التي يتسم بها الزهد. كما كتب كتاباً فلسفياً بعنوان «المَلَكات الإنسانية والتخوفات التي تقابلها»، بالإضافة إلى العديد من القصائد التي تركز على التأملات الفلسفية حول الحكمة والعظمة الإنسانية واسمها «العظمة والحكمة»، بالإضافة إلى رسالة عن «الحزن وأسبابه».

اضطر ابن سينا إلى مواجهة الواقع القاسي مجدداً وكأنه كُتب عليه ألا يستريح أبداً. في غضون عام ٤٠٧هـ / ١٠١٧م لم يكن أمام ابن سينا خيار سوى الفرار وبداية رحلة جديدة. كان علي بن مأمون قد تلقى رسالة من ألد خصومه الحاكم محمود الغزنوي^(١) (٣٦١-٤٢١هـ / ٩٧١-١٠٣٠م)، المعروف بصرامته وقسوته والذي أصدر أمراً تجاه العلماء الذين لا يرضخون لإرادته بمن فيهم ابن سينا.

كان ابن مأمون يدرك جيداً القوة العسكرية لهذا الطاغية، الذي أثبت قوته عدة مرات في الماضي من خلال تدمير البنجاب. كما كان يعلم أيضاً أن محمود الغزنوي كان ينتظر أي حجة للانقضاض على غورجانديج وخلعه، وعليه استسلم لأمره. وكذلك استسلم البيروني وغيره من العلماء، بل إن بعضهم كان مسروراً بالخضوع له، ما عدا ابن سينا. فقد كان من غير المعقول بالنسبة له أن يضع نفسه في خدمة حاكم ينتمي إلى سلالة مسؤولة عن أشنع الجرائم. وشاركه في رأيه رجل واحد فقط، وهو الطبيب النسطوري أبو سهل المسيحي (ت. ٤٠١هـ / ١٠١٠م). وفقاً لبعض الروايات، وافق البيروني على الذهاب مع العلماء إلى غزنة، إلا أن ذلك يتعارض مع البيانات التي يسجلها في كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، فحين ورد الاستدعاء لهؤلاء العلماء، كان

(١) الاسم الكامل: أمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتيجين.

البیروني قد غادر غورجانج منذ عام إلى الجورجانية، التي لم تكن بعيدة عن كاث عاصمة خوارزم. وحتى إن كان موجودًا في ذلك التوقيت، وبالنظر إلى الازدراء الذي كان يكتّه لمحمود الغزنوي، يصعب تصور انصياعه لهذا الاستدعاء.

بعد التشاور بينهما، قرر ابن سينا وأبو سهل المسيحي الفرار إلى جرجان، معقل السلطان قابوس بن وشمكير الزیاري^(١) (ت. في ٤٠هـ/ ١٠١٢م)، الذي كان معروفًا بشعره ورعايته للفنون. للوصول إلى جرجان، كان عليهما قطع مسافة تقارب ألف كيلومتر عبر صحراء دشت الكيفير، وهي صحراء قاحلة لا نهائية، حيث تلسع الشمس الرمال الجافة. ومع ذلك، بدا لهما أن أي خيار أفضل من الخضوع لأوامر السلطان محمود الغزنوي. لا توجد تفاصيل كثيرة عن هذه الرحلة الشاقة، إلا أن المأساة سرعان ما وقعت: واجه الرجلان عاصفة رملية أودت بحياة أبو سهل المسيحي. ولم تلبث هذه الكارثة أن تبعثها أخرى، إذ علم ابن سينا عند وصوله إلى جرجان أن السلطان قابوس قد اغتيل ضحيةً لمؤامرة سياسية. في تلك اللحظة المؤلمة، قال ابن سينا كلماته الشهيرة:

لما عظمتُ فليس مصرٌّ واسعي... لما غلا ثمني عدمتُ المُشتري

رغم كل هذه المآسي، بقي ابن سينا في جرجان وهو يعاني من الحمى والمرض. لا نملك تفاصيل دقيقة حول كيفية تعافيه أو الموارد التي اعتمد عليها، لكننا نعلم أنه التقى في جرجان بأبو عبيد الجوزجاني، الذي سيصبح فيما بعد تلميذه وتابعه المخلص ومؤرخ سيرته. وسط هذه الظروف الصعبة، أضاعت حياة ابن سينا بصداقة جديدة

(١) وهي سلالة فارسية حكمت طبرستان على ضفاف بحر قزوين من ٩٣١ إلى ١٠٩٠.

مع أبو محمد الشيرازي، وهو رجل وصفه الجوزجاني بأنه كان «محباً للعلوم» وشغوفاً بصحبة العلماء. كان أصله من شيراز، لكن أسباب إقامته في جرجان تظل غير معروفة. تأثر الشيرازي بشخصية ابن سينا إعجاباً، فاستضافه في منزل قريب من منزله، مما أتاح للشيخ الرئيس فرصة للراحة والعمل.

تدريجياً، أصبح منزل ابن سينا في جرجان مركزاً رئيسياً لتجمع المثقفين والعلماء. كان لا يمر يوم دون أن يلتقي بصديق جديد أو يتلقى سؤالاً من تلميذ أو فيلسوف حول موضوع من موضوعات المعرفة. وقد أدهشتهم قدرة ابن سينا على تقديم الإجابات المتعمقة والشاملة، لكنهم شعروا بالحزن لأن هذه المعرفة ستظل محصورة في دوائرهم الخاصة دون أن تُنقل إلى الأجيال القادمة. لذلك، طلب منه المعجبون بحكمته وعلمه به أن يكتب إجاباته، فوافق على طلبهم وبدأ في تدوين رسائل علمية، مثل «رسالة الزاوية»، و«أصل النفس وعودتها»، و«التعريفات».

وفي هذه الأثناء، شرع ابن سينا في العمل على ما سيصبح أعظم أعماله: موسوعة طبية ضخمة، تُعد مرجعاً كاملاً لجميع معارف الطب في عصره، تضم ملاحظاته واكتشافاته وتفسيراته. تتألف هذه الموسوعة من خمسة كتب تحتوي على ما لا يقل عن مليون كلمة، تم تقسيمها إلى فصول وتقسيمات فرعية. يتناول الكتاب الأول المبادئ العامة للطب، والتركيبات الأساسية لجسم الإنسان وصحته ومرضه. أما الكتاب الثاني، فيعالج تصنيفاً أبجدياً لـ ٧٦٠ دواء بسيطاً (يتكون من مكون واحد). يتناول الكتاب الثالث الأمراض التي تصيب الأعضاء والأطراف، ويصنفها «من الرأس إلى القدم». في حين يغطي الكتاب الرابع الأمراض التي تؤثر على الجسم ككل، مثل الحميات والجروح والعضات والسمنة وفقدان الوزن. وأخيراً، يناقش الكتاب الخامس الأدوية المركبة مثل المراهم والتحاميل والأشربة، وهو مخصص للعطارين. سُمي هذا العمل

الموسوعي «كتاب القانون في الطب» أو اختصاراً «القانون»، والذي أصبح بمثابة دليل مرجعي رئيسي في الطب لطلاب الطب عبر العصور. تُسجل هذه الموسوعة أهم إنجازات الأطباء من مختلف الحضارات^(١)، مثل الأطباء اليونانيين والهنود والفرس والعرب.

كانت سعة أفق ابن سينا، وصرامته المنطقية في التفكير، ودقته ووضوحه الشديد في العرض، وطريقته المبتكرة في تناول المشكلات الرئيسية وكذلك في صياغة وحل مشكلات جديدة، وأصالة تفكيره، جعلت من كتاب «القانون» عملاً لا يضاهى. بعد اختراع الطباعة بالحروف المتحركة، أصبح «القانون» ثاني أكثر الكتب نشرًا بعد الكتاب المقدس. ومن أكثر ما يلفت الانتباه هو تحليل ابن سينا لتأثير الأدوية، حيث قال:

«يجب أن تعلموا - بالإضافة إلى ما سبق أن علمتموه - أننا عندما نقول عن دواء ما إنه معتدل، فإننا لا نعني بذلك أنه معتدل اعتدالاً مطلقاً، لأن ذلك مستحيل. ولا نعني بذلك أنه معتدل كاعتدال بدن الإنسان، لأنه لو كان كذلك لكان جزءاً من جوهر الإنسان. وإنما نعني أن الدواء إذا تعرض لفعله في درجة الحرارة الطبيعية الموجودة في بدن الإنسان، فإنه يتصرف كتصرف بدن الإنسان في اختلال الاعتدال، زيادة أو نقصاناً، بحيث لا يؤثر في البدن تأثيراً يخل باعتداله. لذلك يمكن اعتباره معتدلاً بالنظر إلى تأثيره على جسم الإنسان. وبالمثل، عندما نقول عن دواء ما إنه حار أو بارد، فإننا لا نعني أن مادته شديدة الحرارة أو شديدة البرودة، أو أنه أكثر حرارة أو برودة من جسم الإنسان؛ لأن

(١) وضع ابن سينا فيما بعد نسخة مختصرة من «القانون»: «أرجوزة في الطب» أو «قصيدة في الطب»، تتألف من أكثر من ١٢٠٠ بيت من الشعر، وكان الهدف منها أن تُحفظ عن ظهر قلب.

الدواء المعتدل حينئذ يكون له تكوين مشابه لتكوين الإنسان. وإنما المقصود أن بدن الإنسان يصبح بتأثيره أكثر حرارة أو برودة من حالته العادية. ولذلك يكون الدواء تارة باردًا بالنسبة إلى بدن الإنسان، وحارًا بالنسبة إلى بدن الحية، وتارة حارًا بالنسبة إلى بدن الإنسان، وباردًا بالنسبة إلى بدن الحية. ويجوز أيضًا أن يكون الدواء بالنسبة إلى بدن زيد أسخن منه بالنسبة إلى بدن عمرو. ولذلك ينبغي لمن يصف دواءً بهدف تعديل الخواص (السلوك النفسي للفرد) ألا يقتصر على دواء واحد إذا لم يكن ناجحًا.

ما يشرحه لنا ابن سينا، الذي سبق عصره بألف ومائتي سنة، لا يعدو أن يكون ما نسميه اليوم «الآثار غير المرغوب فيها» وسبب نجاح بعض العلاجات على شخص دون آخر. يروي الجوزجاني قائلًا: «كان الطلاب يجتمعون كل مساء في منزله، بينما كنت أتناوب أنا على قراءة «كتاب الشفاء»، ويقرأ آخر «القانون».

مع نهاية عام ٤١٠هـ / ١٠١٤م أو بداية عام ٤١١هـ / ١٠١٥م، تلقى اتصالاً من شيرين، السيدة النبيلة التي كانت تدير شؤون مدينة الري^(١). وبعد أن سمعت بوجود ابن سينا في جرجان، طلبت خدماته، ليس من أجل نفسها، بل من أجل ابنها مجد الدولة رستم، الذي كان يبلغ من العمر حوالي ١١ أو ١٢ سنة، وكان يعاني من مرض يُعرف بـ «السودة»، الذي يُطلق عليه في الوقت الحالي الانهيار العصبي. كانت هذه الحالة طبيعية نظرًا للظروف الصعبة التي عاش فيها الفتى، الذي فقد والده (فخر الدولة) وهو في سن الرابعة، وكان مجبرًا على تحمل وصاية والدته، وهي امرأة مستبدة وطموحة، ترفض دائمًا التنازل عن السلطة لابنها الذي

(١) على بعد حوالي ٨ كيلومترات من طهران الحالية. كانت واحدة من أهم أربع مدن في «بلاد الجبل».

كان يحلم بالتخلص منها. ذهب ابن سينا إلى الري وعاش هناك حتى جاء شمس الدولة، أخو مجد الدولة، الذي تحالف مع السيدة، واستولى على المدينة في أبريل ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م، وألقى بالفتى في السجن. يضيف الجوزجاني باختصار، كما اعتاد في سرد رواياته التي عاصرها مع ابن سينا: «وقعت أحداث ألزمت سيدي بالرحيل إلى قزوین ثم إلى همدان». من المعروف أن شمس الدولة كان يعاني من التهاب القولون المزمن. ولذلك، فمن المحتمل أنه، نظرًا لسمعة الشيخ الرئيس، كان يرغب في أن يعيده معه إلى همدان، المدينة التي كان يحكمها.

والحقيقة أن هذه الفترة كانت معقدة للغاية من الناحية السياسية، إذ شهدت حروبًا وانقلابات ومؤامرات وصراعات داخلية. لذلك، لن نخوض في تفاصيل هذه الأحداث. دعونا نتذكر فقط أنه ذات مرة في همدان، بعد أن عالج ابن سينا شمس الدولة، أغدق عليه الأمير بالتكريم، وعينه وزيرًا كمكافأة رفيعة لمجهوده. ولكن؛ لماذا وافق هذا العالم والفيلسوف على الاقتراب من برائن السياسة؟ لا يسعنا سوى التكهن. والتفسير الوحيد الذي يتبادر إلى الذهن هو أنه لم يستطع الرفض، فالأقوياء من أصحاب السلطة لا يحبون أن تُرفض عطاياهم. عند وفاة شمس الدولة في سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م، خلفه ابنه سماء الدولة، وأجبر ابن سينا أيضًا على الاحتفاظ بمنصبه. وللمرة الثانية، وافق ابن سينا، على الأقل ظاهريًا، وأجاب طلبه.

إذ فهم ابن سينا أنه إذا لم يرد أن تسحقه يد السياسة، فعليه بالهرب. لذا، فكر في التقرب من علاء الدولة، أمير أصفهان (الذي كان ابن عم السيدة شيرين)، وفي عام ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م، شرع في تبادل المراسلات السرية معه. لكن هذا لم يكن ليتم دون أن يلتفت إليه الجواسيس والخونة. وعندما علم المسؤولين بمراسلاته المتبادلة، ألقى القبض عليه

في فترة وجيزة. واتهم بالخيانة العظمى، وسُجن في قلعة فردجان خارج همدان. هناك، بقي في السجن لمدة أربعة أشهر طويلة، استغل خلالها عزله دون كلل أو ملل لكتابة كتاب «حي بن يقظان»^(١)، فضلاً عن رسالة حول المغص، وأخرى عن علاجات القلب.

ولكن في عام ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م، قرر علاء الدولة تغيير موازين القوى في همدان ووضع حدًا لحكم «سما الدولة». فقام بإطلاق سراح ابن سينا ودعاه إلى اللحاق به إلى أصفهان، حيث منحه الأمير «ما يستحقه مثله من الاحترام والتقدير»، على حد تعبير الجوزجاني.

في النهاية، قضى ابن سينا السنوات المتبقية من حياته في أصفهان، وكان عمره ٤٣ عامًا حين أصبح الطبيب الخاص للأمير. رافق الأمير في معظم حملاته، وأهدى إليه أحد آخر مؤلفاته، وهو «الدانشنامه» أو كتاب العلوم، الذي ترجمه محمد الغزالي إلى العربية في عام ٥٠٥هـ/ ١١١١م تحت عنوان «مقاصد الفلاسفة». لكن على الرغم من أن ابن سينا احتفظ بجميع قواه العقلية، فإن صحته البدنية لم تكن على نفس الحال. ففي إحدى هذه الرحلات، على الطريق المؤدية إلى همدان، وافته المنية في عام ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م بعد مرض طويل، تخللته فترات من التعافي والانتكاسات. وقبل وفاته، قال للجوزجاني: «إن الوالي الذي كان يدير جسدي بشكل جيد طوال هذه السنوات لم يعد، للأسف، في حالة تسمح له بمواصلة مهمته... أعتقد أن الوقت قد حان لطبي خيمتي». كان في السابعة والخمسين من عمره حين وافته المنية، ودُفن في وسط مدينة همدان.

(١) وفي نهاية القرن الثاني عشر، استخدم ابن طفيل العنوان نفسه لكتابة روايته الشهيرة. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا التشابه، فإن الروايتين مختلفتان تمامًا.

نذكر أيضًا في سيرة ابن سينا العلمية بعض الروايات التي تصف استخدامه لبعض الإجراءات العلاجية النفسية ناجحة وفعالة. ورغم أن هذه الحكايات لا يمكن التحقق من صحتها، فإنها تظل جزءًا من إرثه الطبي المثير. على سبيل المثال، تروي إحدى تلك الروايات أن أميرًا شابًا كان يعاني من مرض غامض، مما سبب قلقًا شديدًا لوالده. وكالعادة، قام ابن سينا بفحصه المعتاد وبدأ في تحسس نبض الأمير أثناء محاورته له بأسئلة ذات طبيعة عامة، ثم انتقل إلى أسئلة أكثر خصوصية. وعندما سألَه عن حياته العاطفية، نفى الأمير وجود أي مشاكل، لكنه في لحظة مفاجئة تسارع نبضه. فقال له ابن سينا: «أنت تقول إنه ليس لديك أي مشكلة، ولكن جسدك يقول العكس». هنا، اعترف الأمير بعلاقة عاطفية سرية، فأوصاه ابن سينا بأن يسعى للزواج من محبوبته. ومع ذلك، لا نعرف على وجه اليقين صحة تلك الرواية.

كما حاول ابن سينا علاج الاكتئاب والحزن من خلال إدخال تغييرات جذرية في نمط حياة المرضى، إضافة إلى العلاجات الطبيعية التي شملت ما يقارب ثلاثين عشبة طبية. من خلال هذه الأساليب، يمكننا أن نتبين حجم تأثيره على مر العصور. فقد أقام ابن سينا صرحًا فريدًا من الأعمال الطبية المتفردة في عمقها وجودتها، وعرف أثره في العالم الإسلامي والمسيحي على حد سواء. كان علمه واسعًا، وانتقل تأثيره إلى أوروبا المسيحية حيث تم تطبيق تعاليمه وعلاجاته في إسبانيا وإيطاليا وجنوب فرنسا حتى القرن الرابع عشر. ولقد ظل كتابه «القانون في الطب» مرجعًا أساسيًا للعرب ولغيرهم من الأطباء، وظل يُعتمد عليه في أكبر الجامعات الأوروبية في البلاد التي لا تدين بالإسلام طوال العصور الوسطى. يُعتبر هذا العمل ليس أكثر من مصدرًا ومرجعًا طبيًا، بل أيضًا رسالة فلسفية قيّمة تتقاطع مع المنطق، والطبيعة، والميتافيزيقا. فقد أتاح ابن سينا للمجتمع العلمي مرجعية غنية ومركزة، كما قدم نتائج تجارب

عملية واستنتاجات شخصية، والتي تبلورت فيما أسماه «الفلسفة الشرقية».

بطبيعة الحال، كتب العديد من الباحثين في فترات زمنية مختلفة أعمالاً ضد ابن سينا. ربما كان أشهرهم الشهرستاني (ت. ٥٤٨هـ / ١١٥٣م)، مؤلف كتاب «رسالة في الأديان والمذاهب»، الذي قام بتأليف كتابين دحض فيهما أطروحات ابن سينا الرئيسية. كما كتب عالم دين آخر، هو ابن الأثير (٥٦٠-٦٢٧هـ / ١١٦٠-١٢٣٣م)، سارداً أحداث سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٧م، ومشيراً إلى الأسماء التي توفيت في تلك السنة: «في شهر شعبان من تلك السنة، توفي أبو علي ابن سينا الفيلسوف المشهور، صاحب المصنفات المعروفة عن مذاهب الفلاسفة. خدم الأمير علاء الدولة. ومما لا شك فيه أن هذا الأمير كان كافراً، ولذلك تجرأ ابن سينا في مملكته على تأليف كتبه المشوبة بالبدع التي كانت تخالف الشرائع الإلهية».

وقد استمر التصعيد في العداء ضد الفلاسفة والعلماء، وكان ابن سينا هدفاً مفضلاً لهذا العداء، حتى عصر النهضة. وكما هو الحال دائماً مع الجهل البشري، في عام ٩٣٢هـ / ١٥٢٦م، في جامعة بازل، وجه فيليبوس أوريليوس ثيوفراستوس بومباستوس فون هوهنهايم Philippus Aureolus Theophrastus Bombastus von Hohenheim، المعروف باسم الدكتور باراسيلسوس (Paracelsus) وهو كيميائياً ومخترعاً، ضربة جديدة ضد فكر ابن سينا. وكان من دعاة ما أسماه الطب «المحكم» -الطب المتقن الذي يعتمد على التجربة والملاحظة الدقيقة-، وقد تسببت آراؤه في حرق نسخة من «القانون» في فناء الجامعة.

لمحة عامة عما يدين به الطب لابن سينا

قدم ابن سينا وصفاً دقيقاً لنظام القلب البطيني وصماماته، كما وصف مرضي الجدري والحصبة، وهما مرضان لم يكن يعرفهما عباقرة الطب

الإغريقين مثل أسكولابيوس وأقرانه. ولقد قام بتحليل مرض السكري بطريقة مشابهة لتحليل الأخصائي الإنجليزي توماس ويليس (١٦٢١-١٦٧٥) بعد سبعة قرون من عصره. كان ابن سينا أيضاً أول من وصف بشكل صحيح تشريح عضلات العين البشرية، واعتبرت تفسيراته قريبة من المفهوم المعاصر للطريقة التي تحكم أداء العين. ومن بين اكتشافاته المثيرة كان افتراضه بوجود كائنات دقيقة في الماء والغلاف الجوي التي تنقل بعض الأمراض المعدية، وهو ما أكدته الأبحاث المخبرية في القرن الثامن عشر على يد العالم الهولندي أنتوني فان ليفر هوك (١٦٣٢-١٧٢٣). في مجال العلوم التطبيقية، ساعد التزام ابن سينا بالتجريب في مكافحة العلوم الخفية والنهوض بالكيمياء والطب العملي. فقد أنكر قيمة السحر والطلاسم والتعاويذ والشعوذة، ورفض علم التنجيم باعتباره عديم الفائدة. وكان يرى أن الوسيلة الوحيدة للتنبؤ بالمستقبل هي «الوحي والإلهام»، ولكنه اعتبر هاتين الظاهرتين النفسيتين قابلتين للتفسير العلمي. وعلى الرغم من أن ابن سينا لم يُتَح له الوقت لممارسة الطب لفترة طويلة، إلا أن مهاراته الاستثنائية في الملاحظة في علم الأمراض مكنته من تحقيق العديد من الاكتشافات في هذا المجال. فقد تمكن من التمييز بين التهاب السحايا واضطرابات الأوهام الأخرى، كما وصف نوعين من شلل الوجه، وقَدَّم وصفاً دقيقاً لقرحة المعدة، بالإضافة إلى تمييزه بين التهاب الجنبه والتهاب المنصف والخراج الحجابي. وقد شرح بدقة دور القلب في الدورة الدموية، وتنبأ بدور الفئران في انتشار الطاعون.

وكان ابن سينا من أوائل من اهتموا بالأمراض النفسية، حيث حدد أعراضها بدقة، وأخيراً، نحن مدينون له بابتكار سلسلة كاملة من الإجراءات التشخيصية التي تُعد من أسس الطب الحديث. فقد كانت ملاحظاته عن النبض ذات أهمية كبيرة، حيث أدرج ٦٠ متغيراً بسيطاً و٣٠ متغيراً معقداً، ولم يزد العلم الحديث على تحليله إلا كمالاً. ومن

أشهر اكتشافاته كانت طريقة القرع على الجسد، التي تتمثل في الكشف عن الأمراض الداخلية من خلال ضربات قصيرة وحادة بالإصبع على الجسم، والتي ارتبطت باسمه، على الرغم من أن الطبيب النمساوي ليوبولد أوينبروغر Leopold Auenbrugger (١٧٢٢-١٨٠٩) أعاد اكتشافها لاحقًا. ويمكننا ذكر العديد من الأمثلة الأخرى التي تدل على عبقريته في هذا المجال.

ابن زهر (أبو مروان عبد الملك بن زهر)

وُلد ابن زهر في إشبيلية بالأندلس خلال فترة حكم المرابطين (٥٤١-٤٤٨هـ/ ١٠٥٦-١١٤٧م)، وهي حركة إسلامية سنية ظهرت حوالي ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م بين قبائل الأمازيغ في المغرب، أسسوا إمبراطورية قوية امتدت من غرب إفريقيا حتى الأندلس. على الرغم من أن المصادر التاريخية تشير إلى أن مولده كان في إشبيلية، فإنها لم تحدد تاريخ ميلاده بدقة، وهو أمر شائع في ذلك الوقت بسبب غياب نظام تسجيل المواليد بين العرب. كما أن المسلمين لم يولوا اهتمامًا كبيرًا بتسجيل أعمارهم أو توثيق تواريخ ميلادهم، إما نتيجة الإهمال أو الخوف من الخرافات. فعلى سبيل المثال، كان الرد السائد عند سؤالهم عن أعمارهم: «من كتب الله له ستين سنة لن يموت في الأربعين»^(١). مع ذلك، يمكن تحديد تاريخ ميلاده بشكل تقريبي. نظرًا لأن العائلات الثرية - مثل عائلة ابن زهر - كانت تزوج أبنائها في سن مبكرة، وبما أن ابنه أبو بكر وُلد عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، فمن المحتمل أن يكون عمره حينها حوالي

(1) Mohammad ibn Cheneb. *Proverbs arabes de l'Algérie et du Maghreb* [الأمثال العربية في الجزائر والمغرب العربي] Paris, Éditions Leroux, 1905.

عشرين سنة. وبذلك، يُرجح أن ابن زهر وُلد بين ٤٨٣ و ٤٨٦هـ / ١٠٩٠م و ١٠٩٣م. أما عن الاسم المستعار الذي أطلقه عليه الأوروبيون في العصور الوسطى، مثل «أبوميرون» أو «أفينزوار»، فالأرجح أن الاسم العربي «أبو مروان» تحوّل إلى «أبوميرون»، وأن «ابن زهر» أصبح «أفينزوار». يعود نسب العائلة إلى الجد الأكبر زهر، الذي حمل جميع أبنائه ونسله الكنية «ابن زهر»، والتي استمرت جيلاً بعد جيل.

غير معروف بالتحديد متى بدأ أحفاد ابن زهر بالانتشار في أرجاء الأندلس، حيث لم يعتبر المؤرخون العرب هذه المعلومات ذات أهمية كبرى. ومن المصادر القليلة التي تناولت حياته كتاب: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة (ت. ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م)، و«التكملة لكتاب الصلة» للمؤرخ ابن الأثير (٥٩٥-٦٥٨هـ / ١١٩٩-١٢٦٠م). ورغم أن ابن زهر اكتسب معارفه الأدبية والقانونية والدينية من خارج إطار العائلة، فإن تعليمه الطبي كان بيد والده، أبي العلاء زهر بن عبد الملك الإيادي. ومن الأخطاء الشائعة التي يرددها بعض المؤرخين الادعاء بأن ابن زهر درس في جامعة قرطبة، التي كانت لم تُؤسس إلا في عام ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م، حيث لم تكن هناك مدرسة للطب في إسبانيا الإسلامية.

بالإضافة إلى اهتمامه الواسع بمجالات الجراحة، برع ابن زهر في علاج أمراض الرأس والأذنين والأنف والفم والرئتين والقلب، فضلاً عن دراسته لأنواع الحميات والأوبئة المختلفة. وتُظهر ممارسته الطبية دقة وجراحة نادرين في عصره. ذات يوم، بينما كنت أناقشه (يروي ابن رشد) حول الانصباب التاموري (تراكم السوائل حول القلب)، أذهلني معرفته غير العادية بعلم التشريح. في لحظة خاصة، اعترف لي بشرط أن أحفظ السر أنه كان يقوم أحياناً بتشريح جثث الموتى، وهو أمر نادر في العالم

الإسلامي آنذاك، إذ كان يُعتبر مخالفاً للشرعة الإسلامية التي تحرّم هذه الممارسات بشكل صارم.

كانت معرفته العميقة وعلمه الواسع مصدر انبهار لكل من عرفه. توسلت إليه أن يدون هذه المعرفة ليستفيد منها العالم. رفض في البداية، مشيراً إلى انشغاله وضيق وقته. لكنني لم أستسلم، وكررت طلبي بإلحاح. وبعد فترة، جاءني ذات يوم وهو يحمل مجلدين كبيرين بعنوان «كتاب التيسير في مداواة والتدبير»، وقال لي بتواضع شديد: «هاك يا بني، على بركة الله»^(١).

تناول ابن زهر في عمله البديع وصف كل داء من حيث مسبباته وعلاجه، كما يصف كل عضو بشري من منظور دقيق قائم على الملاحظة والخبرة. ومن بين الحالات التي وصفها مرض الأسوآب^(٢)، وهو قمل صغير يزحف تحت جلد اليدين والفخذين والقدمين، ويخرج حياً عند حك الجلد، وهو صغير جداً بحيث يصعب رؤيته بالعين المجردة. خلافاً لغيره من الأطباء، ركّز ابن زهر على أهمية الملاحظة السريرية والخبرة المباشرة كأفضل أساس للممارسة الطبية. وكان يشدد على ضرورة فحص المريض سريرياً قبل وصف أي علاج، مما جعله رائداً في منهجية الطب التشخيصي. كما برع ابن زهر في علاج أمراض الجهاز الهضمي، وابتكر طرقاً جديدة للعلاج، مثل إدخال أنبوب في القناة الممتدة من الحلق إلى المعدة^(٣) لإطعام مريض يعاني من سوء

(١) يقول ابن زهر نفسه في ديباجة كتابه: «ويشهد الله أنني ما ألّفت هذا الكتاب إلا لضرورة مُلْحَكة ناشئة عن النقص المطلق في هذا النوع من المصنفات من جهة، والأوامر الصارمة والرسمية (من ابن رشد) التي دعتني إلى تأليفه».

(٢) هذه هي طفيليات الجرب.

(٣) من الواضح أن ابن رشد قد شهد تغذية المريء بالأنبوب.

التغذية، وهو إجراء متقدم لعصره. كما أوضح لي ذات مرة حالة مريض استفرغ وربما بحجم تفاحة كان قد أتى من جزء من الأمعاء الغليظة، مشيرًا إلى المرض الذي نتج عن هذه الحالة^(١).

وقبل تأليفه كتاب «التيسير»، استدعي ابن زهر إلى المغرب، وتحديدًا إلى مراكش، لعلاج الأمير علي بن يوسف بن تاشفين (ت. ٥٣٧هـ / ١١٤٣م)، ابن مؤسس الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين (حكم ٤٥٣-٥٠٠هـ / ١٠٦١-١١٠٦م). خلال تلك الفترة، ألّف ابن زهر للأمر كتاب «الاقتصاد». ومع ذلك، حدث ما أدى إلى أن يلتقى ابن زهر في السجن بأمر من الأمير. تشير الروايات إلى وجود عداوة قديمة بين الأمير علي ووالد ابن زهر، ولكن التفاصيل تبقى غامضة^(٢). وفي كتابه «التيسير»، كثيرًا ما أشار ابن زهر إلى علي بن يوسف بنعوت تحقر من شأنه، مثل ذكره له بعارة: «الخصيس علي».

وبعد سقوط دولة المرابطين عام ٥٤١هـ / ١١٤٧م وبزوغ نجم دولة الموحدين، تقلد ابن زهر منصب الطبيب الخاص لعبد المؤمن بن علي (ت. عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م)، أول خلفاء الدولة الجديدة. أحاط عبد المؤمن ابن زهر بعنائه، ووثق به في جميع شؤون الطب، ورفعته إلى مرتبة الوزراء، كما أغدق عليه من الهبات والعطايا ما لم يكن يتوقعه. امتناناً لهذه الرعاية والدعم، أهدي ابن زهر لعبد المؤمن كتابه الشهير

(١) لم يكن ابن رشد في ذلك الوقت على علم بأنه كان يواجه أول تشخيص لسرطان القولون.

(2) Bojnurdi, K. M. *The Great Islamic Encyclopedia*, vol. 3 الإسلامية [الموسوعة الإسلامية] Tehran: The Center for the Great Islamic Encyclopedia, 2005. المجلد الثالث]

«كتاب الأغذية»^(١)، الذي كان من أعظم مؤلفاته في مجال التغذية الصحية. أما في كتابه «التيسير في المداواة والتدبير»، قدم ابن زهر وصفاً دقيقاً للعديد من الأمراض والإجراءات الطبية المتقدمة. شملت هذه الوصفات التهاب التأمور الحاد (التهاب الكيس الغشائي المحيط بالقلب) والخراجات المنصفية (التي تصيب أعضاء وأنسجة التجويف الصدري فوق الحجاب الحاجز باستثناء الرئتين). كما وصف عمليات جراحية دقيقة، مثل استئصال إعتام عدسة العين وإزالة حصى الكلى. اهتم أيضاً بأمراض العين، ودرس بدقة الانقباض والتوسع المفرط في حدة العين. واقترح استخدام نبات الماندراجورا المخدر كعلاج لبعض أمراض العين.

ليس من المستبعد أن يكون ابن زهر قد أتاحت له الفرصة لتشريح بعض الجثث، رغم أن هذا الفعل كان محظوراً في الإسلام تحريماً قاطعاً. هذه التجارب التشريحية ساعدته على تقديم وصف دقيق لبعض الحالات الطبية النادرة. فقد وصف خراجات المنصف^(٢) والتخريجات القلبية الليفية، التي أطلق عليها اسم «زوائد القلب». كما تناول حالات عسر البلع (صعوبة أو استحالة ابتلاع بعض الأطعمة)، وقدم ملاحظات دقيقة عن حساسية العظام والأسنان، وهو موضوع لا يزال يثير الجدل حتى اليوم. قدّم ابن زهر أيضاً توصيفات مفصلة لتقرح المعدة وإصابات المريء التي قد تؤدي إلى التهاب المريء. ولم تقتصر إسهاماته على هذا، فقد ناقش شق القصبات الهوائية (فتح القصب الهوائية جراحياً)

(1) Azar, H. *The Sage of Seville: Ibn Zuhr, His Time, and His Medical Legacy* [حكيم إشبيلية: ابن زهر وعصره وتراثه الطبي] Cairo, Egypt: The American University in Cairo Press, 2008.

(2) منطقة كبيرة من القفص الصدري بين الرئتين، تحتوي على القلب والمريء وجزء من الشعب الهوائية.

وحصوات مجرى البول. من المثير للإعجاب أنه قدّم وصفاً دقيقاً لعملية بضع القصبة الهوائية، مدعياً أنه قام بتنفيذها على ماعز، وهو ما يُظهر براعة عملية في مجال الجراحة والتجريب الطبي.

من حيث المبدأ، أوصى ابن زهر بإجراء عملية بضع القصبة الهوائية للمرضى الذين يعانون من انسداد في الجهاز التنفسي العلوي كوسيلة لإنقاذ حياتهم. وعلى الرغم من أن هذا الإجراء كان معروفاً منذ آلاف السنين، إلا أنه ظل موضع جدل في الأوساط الطبية. فقد تردد العديد من الأطباء في إجراء هذه العملية بسبب مخاطرها الكبيرة، وكانوا غالباً ينصحون بتجنبها. تشير الاكتشافات الأثرية في مصر إلى أن هذا الإجراء أُجري لأول مرة حوالي عام ٣٦٠٠ قبل الميلاد. كما ذكر هوميروس أن الإسكندر الأكبر أنقذ جندياً من الاختناق عن طريق فتح قصبته الهوائية باستخدام حد سيفه، في حادثة تاريخية مشهورة وقعت حوالي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد. في العصور الإسلامية، ناقش الطبيب الشهير أبو بكر الرازي (رازي) عملية بضع القصبة الهوائية، وقدم وصفاً تفصيلياً لها في أحد مؤلفاته. وأشار إلى أنها تُجرى عندما يكون المريض مهدداً بالموت بسبب الاختناق، موضحاً خطوات العملية: «يتم قطع الجلد الموجود بين الحنجرة والقصبة الهوائية لإتاحة الفرصة لحركة الشهيق. وبعد زوال السبب الذي أدى إلى الاختناق، يتم خياطة الشق. أثناء الإجراء، يُرفع الرأس، ويُشد الجلد، ويُشق أعلى الحنجرة. ثم تُرفع القصبة الهوائية باستخدام خيطين لتثبيتها حتى يعود التنفس الطبيعي».

أشار الرازي أيضاً إلى أنه أجرى هذا الإجراء لوزير يُدعى أحمد بن إسماعيل الذي كان يعاني من الدفترية، وهي حالة مميتة قد تؤدي إلى انسداد مجرى التنفس. في سياق هذه المعرفة الطبية التاريخية، يمكننا أن نفترض أن ابن زهر، مدرّكاً تماماً للمخاطر، أجرى تجربة بضع القصبة الهوائية على ماعز كجزء من أبحاثه الطبية والجراحية. ورغم ذلك، لم

يذكر ابن زهر مصير الماعز، مما يترك مجالاً للتخمين حول نجاح التجربة ونتائجها.

تضمن كتاب «التيسير في المداواة والتدبير» لابن زهر مجموعة واسعة من المواضيع الطبية التي كانت متقدمة على زمانه بشكل مذهل، وهو يتناول العديد من الأمراض والعلاجات التي لا يزال لها أهمية حتى اليوم. ويصعب تقدير قيمة هذا الكتاب بالكامل دون التطرق لجميع الموضوعات التي تناولها، ولكن حتى من خلال ذكر بعض منها فقط، يمكن أن نرى عمق إسهام ابن زهر في الطب منذ أكثر من تسعة قرون مضت، مثل:

✱ الأكزيما

✱ الهربس

✱ الصداع

✱ أمراض الأذن.

✱ ضعف السمع.

✱ تسوس تجويف الأنف (الزوائد اللحمية).

✱ تسوس الأسنان.

✱ إعتام عدسة العين.

✱ الصرع.

✱ أمراض الفقرات العنقية.

✱ أمراض القلب.

✱ التهاب التامور مع الانصباب.

وأحد الموضوعات الأكثر إثارة للدهشة هو «نوع من الثآليل التي تبدأ في المعدة»، والتي تشبه الورم السرطاني. تجدر الإشارة إلى أن ابن زهر

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان قد وصف حالة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين، الذي عانى من مرض غريب وعجز الأطباء عن تشخيصه. وكان يعاني من صعوبة في هضم الطعام، وحرارة متقلبة، وإسهال سائل. وفي ملاحظاته حول حالة الأمير، يقول ابن زهر إنه شَخَص حالته بعد الكشف المبدئي، وجود ورم في الجزء السفلي من المعدة، وهو السبب المحتمل للألم الشديد الذي كان يشعر به المريض عند الجس.

أما في مقدمة كتابه «كتاب العلاج»، يوضح ابن زهر هدفه في تقديم نصائح علاجية بطريقة مختصرة، دون اختصار مخل أو تطويل غير ضروري، مركزاً على العلاجات التي يمكن العثور عليها بسهولة في معظم البلدان. ورغم الظروف الصعبة التي مر بها والتي حُرِم خلالها من كتبه، إلا أنه استطاع أن يقدم هذا العمل بسرعة استجابةً للتوجيهات التي تلقاها. يبدأ الكتاب بدراسة الأطعمة حسب فصول السنة، حيث يذكر ابن زهر القيمة الغذائية لكل نوع من الأطعمة مثل منتجات الألبان، الفاكهة، اللحوم، الأسماك، الخضراوات، العسل، السكر، والخل، مع تقديم نظرة شاملة ومتعمقة في فوائد كل منها. ويشمل الكتاب أيضاً اقتراحات حول أسلوب الحياة الصحي مثل قواعد الأكل، النوم، الاستحمام، العلاقات الجنسية، وممارسة الرياضة البدنية. كما يتناول النظافة الشخصية، بما في ذلك العناية بالأسنان، العيون، الأظافر، والشعر، وحتى كيفية التخلص من قشرة الرأس.

تُعتبر هذه الرسالة بمثابة قانون للنظافة الشخصية والصحة العامة، خاصة فيما يتعلق بنظافة الطعام، وهي تشبه في طابعها «قصيدة ابن سينا الشهيرة في الطب». ومن خلال هذا الكتاب، يظهر أن ابن زهر كان يؤمن بقوة بالممارسة العملية في الطب، وكانت تجاربه الميدانية أسمى من أي نظرية علمية بالنسبة له.

وتشير قصة شهيرة تذكر تفاعل ابن زهر مع كتاب «القانون» لابن سينا، إلى أنه لم يُعجب بالكتاب كثيرًا عندما تم تقديمه له من قبل تاجر عراقي. ورغم أن الكتاب كان مرجعًا هامًا في ذلك الوقت، فقد وضعه ابن زهر جانبًا دون أن يعيره اهتمامًا كبيرًا. بل واعتاد فيما بعد على استخدام هوامش الكتاب لتدوين وصفات طبية للمرضى، مما يعكس موقفه العملي والواقعي تجاه الطب، فضلًا عن غيره قد تكون طبيعية بين العلماء، حيث يقال إن «غيره الطبيب هي الأسوأ»، وهو ما يضيف طابعًا إنسانيًا وتاريخيًا مثيرًا لشخصية ابن زهر.

من بين ابتكارات ابن زهر الثورية كان تصوره للتغذية الاصطناعية، حيث كان أول طبيب في التاريخ يتخيل استخدام قنينة معدنية لإيصال الطعام عبر المريء أو المستقيم. شرح ابن زهر هذه الآلية بشكل دقيق، مما يعكس تطورًا فكريًا بعيدًا عن التوجهات الطبية التقليدية في عصره. بالإضافة إلى ذلك، كان صاحب رؤية شاملة في مجالي الطب الجسدي والروحاني، حيث كتب في كتابه «الضروريات لراحة الجسد والروح» عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م: «إن طب الجسد معروف، ولكن طب الروح أنبل وأهم بكثير»، مؤكدًا بذلك على أهمية التكامل بين الجسد والروح في الصحة. عندما أصيب ابن زهر بورم خبيث في نهاية حياته، كما ينقل لنا ابن أبي أصيبعة نقلًا عن مصادر موثوقة أن ابن زهر عكف على استخدام مختلف العلاجات المتاحة له، لكنها لم تؤدِ إلى نتائج ملموسة. في هذه اللحظة، نُقل عن ابنه أبو بكر أنه نصحه بتجربة أدوية أو جرعات أخرى، لكن رد ابن زهر كان مليئًا بالحكمة والرضا: «يا بني، إن الله تعالى من يعطيني القدرة على استعمال دواء في الوقت الذي يرضيه!»، مما يدل على إدراكه العميق بأن الشفاء بيد الله، رغم الاجتهاد في البحث عن العلاج.

هذه الكلمات تعكس موقفًا فلسفيًا ودينيًا متوافقًا مع الاعتقاد السائد

بحقيقة أن الطبيب يقوم بوصف العلاج، ولكن الشفاء في النهاية هو بيد الله وحده. ورغم أنه استمر في محاولاته الطبية لعلاج نفسه، إلا أنه في النهاية قبل حقيقة أن العلاجات لن تنجح إلا إذا أراد الله ذلك. توفي ابن زهر في إشبيلية عام ٥٥٧هـ / ١١٦٢م، لكن إرثه الطبي والفكري بقي مؤثرًا لأجيال من الأطباء والعلماء.

أبو القاسم الزهراوي (٣٢٤-٤٠٣هـ / ٩٣٦-١٠١٣م)

كما هو الحال مع العديد من الشخصيات التاريخية العظيمة من العصور الوسطى، لدينا معلومات محدودة جدًا عن حياة هذه الشخصيات الاستثنائية التي عاشت بين القرن العاشر الميلادي والقرن الرابع عشر. ومع ذلك، ما نعرفه عن أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي مصدره هو كتاب ألفه العالم الأندلسي محمد بن فتوح الحميدي تحت عنوان «جذوة المقتبس في تراجم علماء الأندلس»، وهو كتاب معروف اختصارًا باسم إلى «تاريخ علماء الأندلس».

وفقًا لبعض المصادر فأبو القاسم الزهراوي، وُلد في عام ٣٢٤هـ / ٩٣٦م وتوفي عام ٤٠٣هـ / ١٠١٣م في مدينة الزهراء، الواقعة خارج قرطبة في سفوح جبال سيرا. وهو ينحدر من قبيلة الأنصار، التي كانت أصلًا من إقليم الحجاز في شبه الجزيرة العربية، ولذلك أطلق عليه لقب «الأنصاري». أما مدينة الزهراء فقد كانت بمثابة إحدى العجائب المعمارية في عصرها، إذ شيدها الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث في القرن العاشر الميلادي تكريمًا لمحظية اسمها الزهراء، التي كان يعشقها بشدة.

كان أبو القاسم محظوظًا بشكل كبير؛ فقد وُلد في مكان مميز وتعلم ودرس ومارس الجراحة والطب في ذروة العصر الذهبي للحضارة العربية. عصر شهدت فيه الفنون والعلوم ازدهارًا غير مسبوق بفضل التنافس الذي ساد بين المسيحية والإسلام واليهودية. بعد إتمام دراسته،

مارس الطب لفترة من الوقت في عهد عبد الرحمن الثالث (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م). ثم، إلى جوار الخليفة الحكم الثاني (٣٥٨هـ/ ٩١٥-٩٧٦م)، ليصبح بعد ذلك، وفقاً لحسن الوزان المعروف بـ «ليون الإفريقي» الطبيب المعين للمنصور، المعروف لدى الإسبان بـ «المنزور» (٣٩٢هـ/ ٩٣٨-١٠٠٢م).

وعلى عكس العديد من الأطباء في العصور القديمة والحديثة، كان أبو القاسم حريصاً على زيارة المرضى، سواء كانوا أغنياء أو فقراء. ورغم أنه لم يكن يعرف الطبيب والفيلسوف اليهودي الشهير موسى بن ميمون (٥٤١ - ٦٠٠هـ/ ١١٣٨-١٢٠٤م)، إلا أن نهجه في ممارسة الطب كان يتماشى مع روح المبادئ الإنسانية التي تبناها الأخير، حيث يقول: «إلهي، املأ روحي بحب الطب وبمحبة كل المخلوقات. لا تسمح لجشع المال أو السعي وراء المجد أن يؤثر على ممارستي لهذا العلم، لأن أعداء الحق وحب الإنسانية قد يخدعوني ويضلّلوني عن الواجب النبيل في فعل الخير لعبيدك. قوّي قلبي، لكي يكون دائماً مستعداً لخدمة الجميع: الفقير والغني، الصديق والعدو، الصالح والطالح».

تمكن أيضاً من جمع مجموعة متنوعة للغاية من المعارف. والأهم من ذلك كله، أتاح له الفرصة لكتابة نص ثمين للغاية وهو كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» الشهير. ينقسم هذا العمل الضخم إلى ٣٠ مقالة أو كتاباً، تشمل جميع المعارف الطبية والجراحية السائدة في ذلك الوقت، فضلاً عن تصوّر الرسوم التوضيحية، التي تُعد ربما الأولى من نوعها، بالإضافة إلى أكثر من ٢٠٠ أداة جراحية: مثل المشارط والمكاشط والمباعد والملاعق والسماعات البدائية والخطاطيف والقضبان والمناظير. ومن بين هذه الأدوات، هناك ستة وعشرون أداة كانت هذه معروفة آنذاك، مما يمكننا من استنتاج أنها من اختراعه، وبعض هذه الأدوات - بعد تحسينها بالطبع - لا تزال مستخدمة حتى اليوم. تشمل

هذه الأدوات أداة تُستخدم في كي الشرايين، مشروطاً يُسمى «مبيضة» لشق الأورام واستئصالها، منشأً لإجراء عمليات البتر، ومجرداً لكشط العظام المصابة. كما شملت الأدوات المثقاب لعمل ثقب في العظام، ورافعة عظمية لجبر الكسور، وقسطرة لعلاج احتباس البول، وحقنة تُسمى «محقناً» تستخدم لغسل الأذنين والمهبل والمستقيم والجيوب الأنفية. كما وضع مشروطاً دقيقاً يُسمى «بارد» لاستخراج المياه البيضاء، ومِبْضَعاً يُسمى «مِبْضَعَةُ النَّشْرِ» ويُستخدم لقطع السلعة الأنفية. وعندما لاحظ أن قرداً قد أكل أوتار عود^(١)، ولم يرفض جسده ذلك، فكّر في استخدام أحشاء الحيوان لخياطة الجروح. وهذه القائمة ليست شاملة ولا حصرية بأي حال من الأحوال!

على الرغم من أن الأطباء في العالم الإسلامي لم ينالوا ما يستحقونه من تقدير في حينه، إلا أن كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» كان له تأثير بالغ في أوروبا. فقد تُرجم الكتاب إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر بواسطة مترجم الأعمال العلمية والفلسفية من العربية إلى اللاتينية الإيطالي جيرارد من كريمونا (Gerard of Cremona)، وأصبح الكتاب الجراحي الرئيسي - إن لم يكن الوحيد - لمدة حوالي ٥٠٠ عام. لم يظهر مرجع آخر يعادل هذه الموسوعة العلمية أو يتفوق عليها إلا في القرن السادس عشر مع إبداع عبقرى آخر هو أمبرواز باريه.

وعلى عكس الكثير من معاصريه، كان أبو القاسم مقتنعاً بأن الطبيب يجب أن يتولى إجراء العمليات الجراحية بنفسه بدلاً من أن يفوضها للآخرين. كان هذا الموقف غريباً للغاية في ذلك العصر، حيث كان العديد من الأطباء يعتبرون الجراحة مهنة متدنية تقتصر على الحلاقين!

(١) قبل ظهور النايلون، كانت أوتار الآلات الموسيقية مصنوعة من أمعاء بعض الحيوانات.

وبفضل هذا التوجه، أصبح منزله مركزاً للتعليم وعلاج المرضى في آن واحد.

ومن المهم أن نذكر أنه، مثلما كان الحال مع الطبيب العظيم الرازي، لم يكن أبو القاسم متساهلاً مع دجالي عصره. فقد قال في أحد كتاباته: «رأيت الكثيرين يدعون العلم ويتفاخرون به، لكنهم في الحقيقة لا يملكون معرفة حقيقية ولا خبرة». وذكر مثلاً عن طبيب جاهل قام باستئصال خُرَاج من عنق امرأة، لكنه قطع شرايين العنق مما أدى إلى وفاتها من النزيف. هذه الحكاية تعكس تأكيده على أهمية معرفة التشريح كأساس للجراحة، ويحث على عدم التسرع في إجراء العمليات الجراحية المعقدة. ولتدعيم هذه النصيحة، استشهد بالعديد من الحالات التي أدت فيها قلة المعرفة بالتشريح إلى نتائج كارثية. ويعتبر أبو القاسم أول من قام بالعديد من الإبداعات الطبية الهامة، ومنها:

* استخدام القطن في الضمادات الجراحية للحد من النزيف، وكحشو عند تثبيت الكسور.

* تقديم وصف دقيق لمرض الهموفيليا، وهو مرض نادر.

* استخدام الكي والشمع والكحول للسيطرة على النزيف أثناء جراحة الجمجمة.

* ربط الشرايين قبل فترة طويلة من الجراح الفرنسي أمبرواز باريه.

* إجراء عمليات استئصال حصى الكلى والمثانة^(١).

* وصف حالة الحمل خارج الرحم.

(١) تفتيت الحصى هو مصطلح طبي يستخدم لوصف عملية جراحية قديمة لسحق أو تقطيع الحصوة في المثانة باستخدام أداة تعرف باسم «مفتت الحصوة». أما في العصر الحديث، فهي عملية تفتيت الحصى.

* تطوير تقنيات تقويم الأسنان وعلاج الأسنان المنحرفة.

أدى تأثير توصيات أبو القاسم بشأن استخدام الكي إلى انتشاره بشكل واسع في مختلف أنحاء العالم، خاصة في أوروبا الغربية خلال العصور الوسطى. كما كان من أبرز من روج لاستخدام المطهرات لعلاج الجروح والآفات الجلدية، بالإضافة إلى الخيوط الجراحية المصنوعة من أمعاء الحيوانات أو الحرير. نحن مدينون له أيضًا بتقنيات إزالة تكيسات الغدة الدرقية، بالإضافة إلى أول وصف معروف لوضعية التوليد التي تُعرف اليوم بـ «وضعية والتشر»، التي كانت تستخدم كحل أخير لمساعدة الجنين عندما يكون وضعه مرتفعًا جدًا ويمنعه من الانزلاق عبر الحوض. وعلى عكس الإغريق الذين أوصوا باستخدام الزيوت كمراهم؛ كان أبو القاسم يعتبر ماء الورد الممزوج بصفار البيض والمستخلصات النباتية أكثر فعالية في معالجة الجروح والآفات. وفي الصفحات الأخيرة من كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف»، يقدم أبو القاسم وصفًا تشريحيًا دقيقًا للأطراف العلوية والسفلية والعمود الفقري، مع توضيح العظام والمفاصل والعضلات والأوتار والأعصاب والشرابين والأوردة في الأطراف والجذع والجمجمة.

وحسبما ذكر ليون الإفريقي، توفي أبو القاسم في عام ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م، وذلك بعد بدء الحرب الأهلية في الأندلس، التي أسفرت عن نهب مدينة الزهراء. وما زال منزل أبو القاسم في قرطبة موجودًا في الشارع الذي يحمل اسمه حتى يومنا هذا. ووفقًا لبعض المصادر التاريخية، فقد أوصى أن تُنقش على شاهد قبره الأبيات التالية:

«يا أيها الواقفون أمام قبري، قولوا: رحمه الله! غُطِّي تَرَابُ الْقَبْرِ لِحْدِي،

كأنني لم أظأ عليه قبله وطئًا. بعنايتي حفظت الناس من الموت...
وقد أخذني الموت رهناً».

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٥٤ - ٣١٣هـ / ٨٦٥ - ٩٢٥م)

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، المعروف أيضًا بالرازي أو «رازي» في الغرب، كان أحد أبرز العقول التي أضاءت العصر الذهبي للحضارة الإسلامية. رغم أن الرازي كان له العديد من الطلاب والتلاميذ، إلا أنهم لم يجتمعوا معًا لتشكيل مجموعة متجانسة، وهو ما يفسر نقص التفاصيل المتعلقة بسيرته الذاتية وأعماله المكتوبة، التي يقدر عددها بأكثر من ١٥٠ عنوانًا. وفي كثير من الحالات، لا يمكننا إلا أن نستنتج رؤيته من خلال مقاطع ومراجعات كتبها الآخرون عن أعماله. ما نعرفه يقينًا هو أن الرازي وُلد في مدينة الري القديمة، التي تقع على المنحدرات الجنوبية لجبال البرز، جنوب طهران الحالية. وكلمة «رازي» تعني «مواطن الري»، مما يربطه ارتباطًا وثيقًا بمسقط رأسه. وعلى الرغم من أصوله الفارسية، كتب الرازي مؤلفاته باللغة العربية، مثل باقي العلماء في تلك الفترة. لا توجد معلومات موثوقة عن نسبه، سوى أن والده كان صائغًا مشهورًا. لكن هناك بعض المعلومات التي تشير إلى أن الرازي كان مهتمًا بالموسيقى في شبابه، حيث كان يعزف على العود. هذا الشغف دفعه لكتابة موسوعة موسيقية^(١). إضافة إلى ذلك، عمل لفترة من الوقت صرافًا، حيث وصفه ابن إسحاق بأنه «رجل مسن ذو رأس كبير على شكل كيس»، وكان يُعرف بأنه «كريم، متميز، ومستقيم، وذو شخصية جذابة».

سرعان ما بدأ الرازي بالاهتمام بعلم الكيمياء، لكنه تخلى عنها لاحقًا

(1) Modanlou, H. D. *A Tribute to Zakaria Razi (865-925), An Iranian Pioneer Scholar* [تكريم لزكريا الرازي (٨٦٥ - ٩٢٥م)، عالم إيراني رائد] *Archives of Iranian Medicine*.

بسبب مشاكل في عينيه ناجمة عن أبخرة المواد الكيميائية التي كان يستخدمها. تُنسب هذه المعلومة إلى بعض كتب السيرة على لسان عالم الرياضيات البيروني، ولكنها معلومة غير دقيقة. ففي الحقيقة، وُلد الرازي في عام ٢٤٠هـ / ٨٥٤م، بينما وُلد البيروني في عام ٣٦٢هـ / ٩٧٣م، أي بعد الرازي بـ ١١٩ عامًا. علاوة على ذلك، يذكر الرازي نفسه في مؤلفاته أن بصره لم يتأثر إلا من جراء القراءة المطولة.

وعلى الرغم من اهتمامه الأول كان بالكيمياء، فإنه لا شك أن الدافع وراء انجذابه لهذا المجال كان المغريات العديدة التي قدمتها الكيمياء، إلى جانب الفرص لاكتشافات جديدة وأصيلة. ولعل أفضل ما يُقال في هذا الصدد هو: «زرع الكيميائيون وحصد الكيميائيون».

اتبع الرازي منهجًا غير تقليدي في الكيمياء العملية، إذ كان مثل ابن زهر مهتمًا بالتجارب أكثر من النظريات، متبعًا في ذلك خطى جابر بن حيان^(١) (١٠١ - ١٩٩هـ / ٧٢١م - ٨١٥م). ومع ذلك، تميز منهجه في هذا المجال بشكل ملحوظ، حيث كان يعتمد على الملاحظات التجريبية الدقيقة والمضبوطة. من بين أهم مؤلفاته في هذا المجال يأتي كتاب «سر الأسرار»، الذي يتكون من ثلاثة فصول. الفصل الأول، «في معرفة العقاقير»، يتناول فيه المواد الأولية المستخدمة في الكيمياء. أما الفصل الثاني، «في معرفة الآلات»، فيعرض وصفًا موجزًا للأجهزة التجريبية اللازمة للعمل الكيميائي، مثل الإنبيق، ويتطرق إلى العديد من الإجراءات التفصيلية المتعلقة بالكيمياء مثل معالجة الزرنيخ والأمونيا والكبريت. وقد حقق الرازي في سياق تجاربه إنجازًا مهمًا عندما عزل

(١) يعد جابر بن حيان، أو جبر عند اللاتينيين، أحد أشهر الكيميائيين العرب. وتشكل أعماله مجموعة ضخمة يصعب تحديد الجزء الذي حاكاه الرازي.

الإيثانول، ليكون من أوائل العلماء الذين نادوا باستخدامه في المجال الطبي.

لاحقًا، تسببت زيارة قام بها الرازي إلى بیمارستان في بغداد (من المحتمل أن يكون بیمارستان المقتدر) بتحديد مسار مهنته. وهناك انتشرت أسطورة شهيرة تشير إلى أنه هو الذي حدد موقع بیمارستان العضدي الشهير بناءً على طلب الأمير عضد الدولة (٣٤٠-٣٧٢هـ/ ٩٤٩-٩٨٢م). وفقًا لهذه الأسطورة، تم اختيار الموقع عن طريق تعليق قطع اللحم في أجزاء مختلفة من المدينة لتحديد المنطقة الأكثر صحة، حيث تكون قطعة اللحم أبطأ تحللًا في الهواء. ورغم أنها قصة جذابة، إلا أن بیمارستان المذكور تأسس في عام ٩٧٨ أو ٩٨١ (٣٧٨هـ أو ٣٨١هـ)، أي بعد أقل من ٥٠ عامًا من وفاة الرازي. بدأ الرازي دراسته الطبية في بغداد على يد الطبيب الشهير علي بن سهل ربان الطبري^(١)، وهو من الرواد في مجال طب الأطفال. وبالرغم من أن ابن سينا قد تفوق على أستاذه عبد الله الناتلي، فإن الرازي سرعان ما تفوق على الطبري وأصبح ملهمًا بالطب اليوناني والفارسي والهندي. يذكر بعض كتاب السير أنه كان أيضًا تلميذًا لإسحاق بن حنين، ولكن هذا الادعاء غير موثوق به، إذ إن إسحاق بن حنين كان معروفًا بمهاراته ك مترجم، ولم يكن من أطباء ذلك العصر. بعد إتمام دراسته في بغداد، بدأ الرازي، الذي كان شغوفًا بالسفر، رحلاته إلى سوريا ومصر، وربما الأندلس. وعند عودته إلى مدينة الري، تم تعيينه رئيس الأطباء بیمارستان الملكي هناك.

كان الرازي تجريبيًا وعقلانيًا، لا يثق بالتقاليد الراسخة، وأصرّ على أهمية سؤال المرضى بدقة قبل الإفصاح عن تشخيص أو وصف علاج.

(١) وهو في الأصل من طبرستان وينحدر من أسرة يهودية، لكنه اعتنق الإسلام في عهد الخليفة العباسي المعتصم (٨٣٣-٨٤٢).

كما اشتهر بكرمه الشديد، وكان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن الأطباء مكلفون من الله، الذي أنعم عليهم بمهمة مقدسة تتمثل في تقديم أفضل علاج لكل من يحتاجه، دون تمييز من أي نوع. كان الرازي يؤمن بالتبادل بين الجسد والروح، بمعنى أن ما كان جيدًا للروح يجب أن يكون جيدًا للجسد أيضًا، والعكس صحيح. وبالمثل، كان يولي أهمية قصوى للأخلاقيات الطبية، وهذا بلا شك هو السبب الذي جعله يصوغ بين أعوام ٢٤٠-٣١٢هـ / ٨٥٤-٩٢٥م، كتاب «أخلاق الطبيب» وأهداه إلى أحد تلاميذه، وإن كانت موجهة بشكل غير مباشر أيضًا إلى ممارسي مهنة الطب في كل العصور. ينقسم كتاب أخلاق الطبيب إلى ٢٥ بابًا، يغطي عددًا لا يُحصى من الحالات التي قد يواجهها أي ممارس في مهنته. وعلى الرغم من أن النص موجه أساسًا للأطباء، إلا أنه يهدف أيضًا إلى أن يكون مفيدًا للمرضى، حيث يُطلعهم على ما يمكن أن يتوقعوه من مقدمي الرعاية الصحية. ما يلفت الانتباه هو اللغة البسيطة التي استخدمها الرازي في جميع أجزاء الرسالة. فهو يبدأ رسالته بمديح محب ودعوات لتلميذه الذي يوشك على العمل لدى أمير مجهول، ولا يتردد في تحذيره من أن المهمة التي تنتظره شاقة ومتعبة. وينصح التلميذ بالسيطرة على ما يؤول إليه من مسؤوليات، مشددًا على أهمية الانضباط الذاتي. كما ينصحه بأن يكون كريمًا، وأن يرفض إدمان الكحول واستخدام العلاجات التجريبية على المرضى. وفقًا للرازي، من الضروري للأطباء مواكبة التطورات الجديدة في العلاج والتداوي.

في المجال الطبي، قدم الرازي خلال الفترة بين (٣١٣-٢٥١هـ / ٨٦٥-٩٢٥م) وصفًا موجزًا لأنواع الأمراض وأساليب العلاج، مع وضع أسس واضحة للعلاقة بين الطبيب والمريض. أصر بشدة على ضرورة التزام الأطباء بالأخلاق الرفيعة التي تشمل الأمانة، الإحسان، التواضع، واحترام خصوصية المريض، بغض النظر عن جنسه أو عمره. كما شدد

على مسؤولية الأطباء الأخلاقية في التعامل مع جميع المرضى دون تمييز، وخاصة الفقراء منهم، موضحاً أن هذه المسؤولية لا تقتصر على التشخيص وإعطاء العلاج، بل تمتد لتشمل الرعاية حتى تمام الشفاء. كما حذر الرازي من الاستخدام العشوائي للمقيثات والمسهلات دون إشراف طبي دقيق، مشيراً إلى خطورتها على صحة المرضى. وعلى غرار معظم معاصريه، أكد على أهمية الطب الوقائي، حيث أوصى بإجراء الفحوصات الدورية لمنع تطور الأمراض قبل ظهور أعراضها.

كما تناول الرازي في قسمين من كتابه «أخلاق الطبيب» تنظيم العلاقة بين المرضى والأطباء، حيث قال: يجب على المرضى احترام أطبائهم، وعدم إخفاء أي تفاصيل عن تاريخهم الطبي أو حالتهم الصحية. كما حذر الرازي من النصابين والمشعوذين الذين يجوبون المدن والأرياف لبيع أدويتهم الزائفة، مشيراً إلى أنهم يفتقرون إلى المعرفة والأخلاق اللازمين لممارسة الطب. استند الرازي في أطروحته إلى قوانين ممارسة الطب التي وضعها أسلافه، مثل أبقرط وجالينوس، ومع ذلك، أضاف إرشادات جديدة تناسب زمانه، موضحاً رؤيته للطبيب المثالي. ويمكن القول إن الرازي كان رائداً في مجال الأخلاقيات الطبية قبل وقت طويل من صياغة هذا المفهوم بشكل رسمي في القرن التاسع عشر على يد الطبيب البريطاني توماس بيرسيفال. (١١٥٣-١٢١٩هـ / ١٧٤٠-١٨٠٤م). بفضل عمله هذا، لم يكن الرازي مجرد طبيب، بل فيلسوفاً إنسانياً ترك بصمة دائمة في الطب وأخلاقيات ممارسة المهنة.

كانت طريقة الرازي في التدريس العملية بجانب السرير موضع تقدير كبير. كان يُشجع الطلاب على طرح الأسئلة، ويترك الإجابة أولاً للطلاب الأصغر سناً، ثم الأكثر خبرة، قبل أن يتولى بنفسه تلخيص النقاش والتعليق عليه. كان، مثل أبو القاسم الزهراوي، الذي كان رجل هذا المجال بامتياز. وتشهد تأملاته الثاقبة على مخزون من الخبرة

السريية التي لا تزال ذات قيمة حتى الآن. ومن أقواله الشهيرة: «إذا لم تكن لدى المريض الإرادة أو الرغبة في الشفاء، فإن يد الطبيب تظل عاجزة عن مداواته». وأيضاً: «يجب أن يكون المريض وذويه مع الطبيب لا ضده». في مؤلفه «كتاب الطب الروحاني»، أكد الرازي على أهمية صفاء النفس وارتباطه بصحة الجسد.

على الرغم من اهتمام الرازي بالفلسفة، إلا أنه أعطى الأولوية للطب كمعالج، واعتبره المجال الأكثر أهمية. وقد أكسبته آراؤه النقدية، لا سيما المعادية لأرسطو، جدلاً واسعاً. وكانت أفكاره المعادية للدين محل انتقاد وسخرية حتى من ابن سينا، الذي كان يكن له احتراماً كبيراً رغم ذلك. فقد قال ابن سينا عنه: «كان ينبغي على الرازي أن ينصرف عن الموضوعات التي لم يكن قادراً على فهمها (وكان يقصد الفلسفة) ليهتم فقط بالجرعات العلاجية والبول والغائط».

وقد اعتمد الرازي على مرحلتين في منهجه العلمي: أولها الاعتماد على مؤلفات القدماء، ولا سيما الإغريق، مثل أبوقراط وجالينوس، بالإضافة إلى التراث الهندي والفارسي، وفي المرحلة الثانية يقوم بتقييم ومضاهاة هذه المعرفة النظرية بالممارسة العملية والفحص الذاتي. وكان الرازي معروفاً بنهجه النقدي حتى تجاه عمالقة الطب مثل جالينوس. ففي مؤلفه «شكوك حول جالينوس»^(١)، استعرض الرازي ما يراه أخطاءً أو نقاط ضعف في أعمال جالينوس. وقد رد على منتقديه قائلاً: «ويشهد الله أنني كنت أود ألا تنطبق الشكوك التي أبديتها في هذا الكتاب على كتب هذا المرجع اللامع والعالم الذي له مكانة عظيمة جداً، ومرتبة

(١) أعيد طبعه من قبل دي غرويتير، ترجمة بولين كويتشيت، الفيلسوفة والمتخصصة في النصوص اليونانية القديمة والعربية في العصور الوسطى. والكتاب لا بد من قراءته لكل مهتم بالموضوع.

جليلة، وتراثه عالمي، وذكره مبجل إلى الأبد. ومع ذلك، فإن علم الطب والفلسفة لا يسمح لنا بالخضوع الأعمى للمشاهير البارزين، ولا بالتسليم لهم، ولا بتجنب التحقيق الدقيق [لآرائهم]، فما من فيلسوف يرضى أن يفعل ذلك قراؤه وتلاميذه»^(١).

وتشير الباحثة بولين كويتشيت إلى أن كتاب الرازي «الشكوك على جالينوس» يُعد نصًا أساسيًا لعدة أسباب. أولاً، لأسباب تتعلق بعمل الرازي نفسه، إذ يتيح لنا الوصول إلى العديد من الأطروحات الفلسفية التي لم تُعرف إلا من خلال مقتطفات تناقلها خصومه. ثانيًا، لأنه يقدم فهماً أعمق لكيفية نشوء الفلسفة العربية والمناقشات التي أثارها. لا يمكن تحديد عدد مؤلفات الرازي بدقة، لكن يُعتقد أنه كتب أكثر من ١٥٠ مؤلفًا. يبرز من بين هذه المؤلفات كتابان رئيسيان. الأول هو «كتاب الحاوي في الطب»، المعروف أيضًا بـ «الكتاب الكامل في الطب»، والثاني هو «الطب المنصوري»، الذي أهده إلى حاكم الري، منصور بن إسحاق. يغطي كتاب «في الطب المنصوري»، الذي قُسم إلى عشرة فصول، أمراض الأعضاء المختلفة وعلاجها، إضافة إلى وصف للتشريح وعلم وظائف الأعضاء. وقد نُشر هذا العمل في الغرب عبر ترجمة لاتينية أنجزها جيرارد الكريموني في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. أما «كتاب الحاوي في الطب»، فقد تُرجم إلى اللاتينية عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، وهو موسوعة ضخمة تتألف من ٢٢ مجلدًا تشمل جميع المعارف الطبية حتى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مضافًا إليها شروحات الرازي المستمدة من تجاربه الخاصة. واشتمل

(1) Chase F. Robinson. *Islamic Civilization in Thirty Lives: The First 1000 Years* [الحضارة الإسلامية في ثلاثين حياة: أول ١٠٠٠ سنة] London, Thames & Hudson, 2016.

المجلد السابع منه لأمراض الصدر والقلب والكبد والطحال، مما يعكس تنوع واتساع مجالات دراسته الطبية.

يمكن مقارنة «كتاب الحاوي» للرازي من حيث الأهمية والشمولية بكتاب ابن سينا الشهير «القانون في الطب». لقد بلغ كتاب الرازي شهرة كبيرة في الغرب، حتى أن ملك فرنسا لويس الحادي عشر (ت. ٨٨٧هـ/ ١٤٨٣م)، الذي كان يعاني من الهذيان المرضي، طلب من كلية الطب بباريس إعارة النسخة الوحيدة المتوفرة لديها من «ليبير كونتيننس» (الترجمة اللاتينية لكتاب الرازي). ومع أن الأطباء رفضوا الطلب في البداية، إلا أنهم وافقوا بعد مداولات، بشرط أن يودع الملك مبلغًا كبيرًا من المال كرهن. ولحسن الحظ، أُعيد الكتاب لاحقًا.

وأيضًا من أشهر أعمال الرازي رسالته المعروفة باسم «كتاب الجُدري والحصبة»، التي تناول فيها مرض الجدري على وجه التحديد، قائلاً: «لقد تعجبت كيف أمكن أن يذكر جالينوس هذا المرض، ولكنه لم يوص بعلاج معين، ووصفه بأنه نوع من «النوبة». بفضل وصفه الدقيق والمفصل لمراحل الطفح المختلفة لهذين المرضين، تمكن الرازي من تحديد الفرق السريري بينهما، وهو فرق لم يتغير حتى يومنا هذا.

وقد تمت ترجمة هذا العمل إلى اللاتينية عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م على يد المترجم الإيطالي جيرارد من كريمونا، ونُشر في مدينة البندقية عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م. وظل المرجع الرئيسي حول هذين المرضين في أوروبا حتى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. وفي عام ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، أشادت منظمة الصحة العالمية بعمل الرازي، وصرّحت قائلة: «إن أبحاث الرازي حول الجدري والحصبة تدل على الأصالة والدقة، وتبقى مقالاته عن الأمراض المعدية أول رسالة علمية في هذا الموضوع».

وفي مجال الأمراض المعدية والطب الوقائي صرح الرازي ذات يوم بقول لم يكن مألوفاً في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قائلاً: «وفقاً لكون الهواء نقياً أو ملوثاً، تكون المدن صحية أو ممرضة للإنسان». وعلى الرغم من أن لفظ «التلوث» ومفهومه لم يكونا متداولين بعد، فإن المعنى واضح تماماً. جاء ذلك في عصر كانت فيه الكنيسة الكاثوليكية تتمسك بحكم القديس يوحنا ذهبي الفم (ت. ٤٠٧م) بأن «سبب المرض اقتراف الإثم». وقد استغرق العالم المسيحي قروناً يُدرك أن هذا القول ليس فقط خاطئاً؛ بل أيضاً بعيداً عن المنطق، وأن السبب الرئيسي لانتشار الطاعون كان الافتقار إلى النظافة. في سياق آخر، تفوق الطب الإسلامي على نظيره الإغريقي واللاتيني بإسهامه في قطاع كان مهمل آنذاك وهو الطب النسائي. كان الدافع لهذا التطور واضحاً، وهو وجود النساء في قصور الحكام والوجهاء، حيث كان الأطباء يُستدعون كثيراً لتقديم الرعاية لهم. مكتبة سر من قرأ

في سنواته الأخيرة، أصيب الرازي بالعمى وأصبح شبه مشلولاً، مما اضطره إلى الاعتماد على النساخ لإملاء مؤلفاته. تُوفي في مدينة الري يوم ١٢ صفر ٣١٣هـ/ ٢٧ أكتوبر ٩٢٥م، أو في رواية أخرى عام ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م، وفقاً للمصادر المختلفة.

ابن النفيس (ت. ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)

هو علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي، المعروف باسم ابن النفيس (ت. ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، يعد أحد أعلام القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. ولابن النفيس سيرتان تتشابه بشكل كبير، وهما من أوائل السير الذاتية المكتوبة عنه. وقد وردت هاتان السيرتان في عمليْن موسوعيين ضخمين يعودان لتلميذين من تلاميذ النحوي الأندلسي الشهير أبي حيان الغرناطي (ت. ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م). العمل الأول هو

كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العُمري (ت. ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م)، والثاني هو كتاب «الوافي بالوفيات» لخليل بن أيبك الصفدي (ت. ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م). يشير العملان إلى أصل عائلة ابن النفيس، ولكنهما يقدمان روايتين مختلفتين: حيث يُنسب أصله في أحدهما إلى قرية «القرشية» قرب دمشق، بينما يُنسب في الآخر إلى قرية «قَرَش» الواقعة وراء نهر جيحون، المعروف أيضًا باسم أوكسوس (Oxus)، في آسيا الوسطى. وللأسف، لم تثمر المحاولات الرامية لتحديد موقع «القرشية» عن نتائج حاسمة. ويبدو أن السبب، كما يحدث في كثير من الأحيان، يعود إلى أخطاء في نسخ الاسم من قبل المؤلفين، حيث لم يقم أي منهم بمحاولة التحقق من صحته بشكل دقيق.

من جهة أخرى، يبدو أن قرية «قَرَش» قد تكون تحريفًا لاسم مدينة «خوروس» أو «قورش» (المعروفة أيضًا بـ«قيروس»)، وهي مدينة أسسها سلوقس نيكاتور، أحد قادة الإسكندر الأكبر، في أقصى شمال غرب سوريا. هذه المدينة لم يتبق منها اليوم سوى أطلال. ومع ذلك، لا توجد معلومات مؤكدة تشرح سبب انتقال ابن النفيس من تلك المنطقة إلى دمشق، أو في أي عمر قام بهذه الرحلة التي تفصل بين المدينتين حوالي ٥٠٠ كيلومتر. عند وصوله إلى دمشق، بدأ ابن النفيس دراسة الطب تحت إشراف مهذب الدين الدخوار (ت. ٦٢٦هـ / ١٢٣٠م)، الذي كان كبير أطباء البيمارستان النوري. ويعد الدخوار أحد أعلام الطب في عصره، حيث أثر على عدد من الأطباء البارزين في مصر وسوريا في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، من بينهم الجراح والطبيب العربي ابن القف (هو أمين الدولة أبو الفرج يعقوب بن إسحاق بن القف الكركي) والمؤرخ والطبيب ابن أبي أصيبعة. ورغم مكانة الدخوار

وتأثيره، إلا أنه لسبب غير معروف كان يُظهر نفورًا تجاه ابن النفيس. وخلال إقامته في دمشق، تمكن ابن النفيس من جمع مكتبة ضخمة تضم مؤلفات كبار الأطباء مثل الرازي وابن سينا وابن ميمون وغيرهم، مما ساعده على تكوين معرفة واسعة في الطب النظري، رغم محدودية كفاءته في علاج المرضى.

كان ابن النفيس يلتزم بأسلوبه الخاص في كتابة الوصفات الطبية، حيث كان يُفضل تقديم النصائح الغذائية بدلاً من اقتراح العلاجات الدوائية. على سبيل المثال، كان يوصي المرضى المصابين بالقرحة بتناول أطعمة مصنوعة من دقيق القمح، بينما يوصي المصابين بالإسهال بتناول الخروب والحمص. وكان يعمم النظام الغذائي الذي يتبعه على مرضاه.

وذات يوم، أثناء تقديمه استشاراته في إحدى دكاكين الدواء، اعترض عليه بائع الأدوية قائلاً: «إذا كنت تنوي الاستمرار في وصف أشياء كهذه، فمن الأفضل أن تذهب وتقيم في دكان جزار، ولكن ما دمت هنا، فلا تصف إلا السكر والشراب والعلاجات».

تُروى طرفة تشير إلى أن ابن النفيس لم يكن بارعًا في العلاج العملي. فقد جاءه رجل يشتكي من ورم في معصمه وسأله عن طريقة علاجه. فأجاب ابن النفيس: «والله، أنا أيضًا لدي نفس الورم في معصمي». وعندما سأله الرجل: «وكيف يمكن علاجه؟» أجاب: «والله، لا أعرف حتى كيف أعالج الورم الخاص بي». ورغم ذلك، كان معاصروه يشنون على سعة وعمق معرفته العامة، كما أعجبوا بذاكرته العجيبة. كتب ابن النفيس العديد من المؤلفات والشروح التي تعكس عبقريته. كان أول أعماله البارزة كتاب «شرح تشريح القانون»، وهو

تعليق نقدي على كتاب «القانون في الطب» لابن سينا. وفي هذا العمل، لم يتردد ابن النفيس في نقد أفكار ابن سينا بشكل لاذع، مقدمًا رؤى جديدة في مجالات التشريح وعلم الأمراض والصيدلة. من أبرز مؤلفاته الأخرى: «الكتاب الشامل في الطب» وهو موسوعة طبية ضخمة تضمنت ٣٠٠ مجلد، إلا أنه لم يتمكن من إكمالها قبل وفاته؛ ورسالة في طب العيون «المذهب في الكحل»؛ و«موجز في القانون» وهو ملخص مختصر لكتاب ابن سينا، و«المختار في الأغذية» وهو كتاب عن تأثير النظام الغذائي على الصحة، وشروح على أقوال الطبيب اليوناني القديم أبقراط في مجالي الأمثال والأوبة. في عام ٦٨١هـ / ١٢٨٣م، وحين كان ابن النفيس في الثالثة والسبعين من عمره، دعاه السلطان المملوكي سيف الدين قلاوون الألفي إلى مصر. هناك، عُيِّن مسؤولاً للبيمارستان المنصوري في القاهرة، الذي أنشئ بأمر من السلطان المنصور قلاوون ٦٧٨ - ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠م. رغم وجود روايات تشير إلى أن ابن النفيس وصل إلى مصر وهو في الخامسة والعشرين أو الثلاثين من عمره، فإن اختيار عام ٦٨١هـ / ١٢٨٣م يبدو أكثر دقة. فقد بدأ بناء المستشفى المنصوري في هذا العام، واستمرت أعماله لنحو عام، مما يجعل وصول ابن النفيس قبل ذلك التاريخ مستبعدًا.

ذاع صيت البيمارستان المنصوري خارج مصر، حيث ذكر الرحالة الشهير ابن بطوطة عنه قائلاً: «أما البيمارستان المنصوري، الواقع بين القصرين بالقرب من قبر السلطان الملك المنصور قلاوون، فهو لا يوصف على الإطلاق، أثاثه ومعداته الطبية لا تقدر بثمن، ويقال إن نفقاته تتجاوز ألف دينار يوميًا، وتغطي من التبرعات ومن السلطان نفسه». كان البيمارستان يحتوي على أكثر من ٧٠٠٠ سرير، حيث كان يُعالج الفقراء والأغنياء على حد سواء بالمجان. وعند مغادرة المرضى،

كانوا يتلقون طعامًا ومبلغ من المال تعويضًا عن الأجر الذي فقدوه أثناء فترة علاجهم^(١).

أما بالنسبة لاكتشافه الشهير، يصعب تحديد ما إذا كان قد توصل إليه خلال هذه الفترة أم أثناء وجوده في دمشق. لكن لا شك في أن اعتماده على التشريح كان له دور كبير في اكتشافه الجوهري: الدورة الدموية الرئوية. فقد اقترح ابن النفيس رؤية ثورية لمسار الدم عبر القلب، ما شكّل تحديًا جذريًا لنظرية جالينوس التي كانت تحتوي على أخطاء كبيرة، مثل الاعتقاد بوجود شبكتين متميزتين للدم بين الكبد والقلب، وهو ما يتعارض بشكل عملي ومنطقي مع المفهوم الأساسي للدورة الدموية. والغريب أن هذا الاكتشاف المنطقي لم يخطر على بال الأطباء والفلاسفة الذين سبقوا ابن النفيس، مثل الرازي وابن سينا وأبو القاسم وابن رشد، الذين آمنوا بنظرية جالينوس. بناءً على ذلك، قدم ابن النفيس تصورًا جديدًا يمر فيه الدم عبر الرئتين قبل الوصول إلى النصف الأيسر من القلب، ومن ثم يُضخ إلى الشرايين.

وموضحًا ذلك بمصطلحات عصره، قال ابن النفيس: «عندما يتم تنقية الدم في التجويف الأيمن للقلب، يجب أن ينتقل بالضرورة إلى التجويف الأيسر، حيث تتكون دورة التنفس. لكن هذا مستحيل، لأن التجويفين غير متصلين، فمادة القلب في هذه النقطة مصمتة، ولا يوجد ممر ظاهر كما كان يُعتقد، أو ممر غير ظاهر يسمح للدم بالمرور كما تخيل جالينوس. إن مسامات القلب في هذه النقطة مغلقة، ومادة القلب غليظة. وعلاوة على ذلك، بعد تنقية الدم، يجب أن يمر عبر الوريد الشرياني (الشريان الرئوي) إلى الرئتين، حيث يختلط بالهواء فينتقي جزءًا دقيقًا منه، ثم يعود عبر الوريد الرئوي إلى التجويف الأيسر من القلب».

(١) لا تزال موجودة في القاهرة تحت اسم «مستشفى قلاوون».

وقد توفي ابن النفيس في القاهرة عام ٦٨٦هـ / ١٢٨٨ عن عمر يناهز ٧٨ عامًا.

أبو القاسم عمار بن علي الموصلّي ٣٧٠هـ / ٩٨٠م

وُلد عمار بن علي الموصلّي في بلاد ما بين النهرين (العراق حاليًا) حوالي عام ٣٧٠هـ / ٩٨٠م. تُعد المعلومات المتوفرة عن حياته قليلة للغاية، ويعود معظمها إلى عمله الوحيد المعروف بعنوان «كتاب المنتخب في علم العين»، بالإضافة إلى إشارة ذكرها عنه ابن أبي أصيبعة، حيث قال: «كان عمار بن علي الموصلّي طبيب عيون مشهورًا ومتمرسًا في علاج أمراض العيون، وكان ماهرًا في عمليات جراحة العين». ينحدر عمار من الموصل في العراق، وهو السبب وراء لقبه «الموصلّي». بدأ تعليمه الطبي على يد والده، أبي الثناء محمود، ثم انتقل إلى دمشق ليتلمذ على يد جمال الدين الحصري، الذي لا تتوفر معلومات كافية عنه أيضًا. ووفقًا لما تواتر من روايات، فإن والده وإخوته كانوا من علماء عصرهم. وعلى الرغم من أن معظم أساتذته غير معروفين، فقد يُرجّح أنه درس أيضًا علوم الحديث وعلم الكلام، وربما القانون، إذ شغل منصب قاضيًا في بلدة الكوفة جنوب بغداد.

سافر عمار بن علي الموصلّي للعديد من المناطق خلال حياته المهنية. شملت رحلاته مدنًا مثل الأزرق في الأردن، وديار بكر في تركيا، وبغداد، وطبرية في فلسطين، ومنطقة خراسان في إيران وخلال تلك الرحلات، واصل ممارسة مهنته كطبيب عيون وأجرى العديد من العمليات الجراحية.

أما تعليمه في مجال طب العيون، فلم يكن هناك آنذاك مسار تعليمي محدد لتأهيل الأطباء. كان على الشخص الراغب في ممارسة الطب أن يدرس الكتب الطبية ويتعلم المهارات العملية على يد طبيب متمرس.

وللحصول على الاعتراف كممارس معتمد لطب العيون، كان من الضروري الحصول على رخصة من طبيب الخليفة، إذ لم تكن هناك شهادات طبية معتمدة في تلك الفترة. تجدر الإشارة إلى أن الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٨٠-٣٢٠هـ / ٨٩٥-٩٣٢م) أصدر أمرًا للطبيب أبي سعيد سنان بن ثابت بن قرة بفحص الأطباء واعتمادهم. وعليه، كان أطباء العيون مطالبين بإثبات معرفتهم بأمراض العين الرئيسية ومضاعفاتها، وإظهار قدرتهم على تحضير القطرات والمراهم اللازمة للعلاج. وقد اتبع عمار بن علي الموصللي هذا النهج ليصبح من الأطباء المتميزين في مجاله.

وفي حوالي عام ٤٠٠هـ / ١٠١٠م أو ٤١٠هـ / ١٠٢٠م، وصل عمار الموصللي إلى مصر خلال فترة حكم الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦- ٤١١هـ / ٩٩٦-١٠٢١م). وخلال فترة إقامته هناك كتب الموصللي كتابه الشهير «كتاب المنتخب في علم العين» الذي أهده إلى الحاكم بأمر الله. يتألف هذا الكتاب من ١٢٥ فصلاً، ويتناول أولاً تشريح العين، ثم أمراض الجفن وزاوية العين والملتحمة والقرنية والحدقة والبؤبؤ والزلال والأعصاب البصرية. يتميز النص بوضوحه، وعندما يصف العمليات التي قام بها يكاد يكون وصفه حقيقياً وحيًا من فرط دقته وتفصيله. أما الفصل الأكثر أهمية في الكتاب فيتناول استخراج إعتام عدسة العين عن طريق «الشفط الرقيق»، باستخدام حقنة معدنية مجوفة من اختراعه. تُعد هذه العملية أول إجراء جراحي ناجح من نوعه في تاريخ طب العيون. لكن قبل وصف هذه العملية، يجدر إلقاء نظرة سريعة على ماضي طب العيون قبله. كانت معرفة الناس في العصور القديمة بتشريح مقلة العين غير مكتملة، وكذلك كان تصورهم للأجزاء المختلفة لمقلة العين. ونتيجة لذلك، كانت نظرياتهم حول مرض إعتام عدسة العين بعيد كل البعد عن الحقيقة. منذ ١٧٥٤ سنة قبل الميلاد، اعتبر القانون الذي سنّه الملك

البابلي حمورابي أن إعتام عدسة العين خراجاً في العين أو الدماغ. بينما كتب أول وصف تفصيلي لجراحة إعتام عدسة العين من قبل طبيب العيون الهندي مهاريشي سوشروتا، في حوالي القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد.

لم يكن لدى العلماء في العصور القديمة فهم كامل لبنية العدسة البلورية أو لمسببات إعتام عدسة العين. ومع مطلع بداية العصر الحديث، كان يُعتقد أن إعتام عدسة العين عبارة عن حجاب يتشكل في منطقة البؤبؤ، يمنع الرؤية عن طريق حجب الأشعة التي تدخل العين. ذكر جالينوس في القرن الثاني الميلادي أن العدسة البلورية تقع في وسط العين، لكنه افترض أن إعتام عدسة العين ليس اضطراباً في العدسة نفسها، بل في غشاء يقع بين العدسة والقرنية. أما ابن سينا، فقد قدم إسهاماً بارزاً في كتابه «القانون في الطب»، حيث وصف البصر باعتباره أحد الحواس الخمس الخارجية وأشار لأول مرة إلى أن «الصورة هي التي تأتي إلى العين وليست العين هي التي تذهب إلى الصورة». كان هذا الطرح يعكس الجدل في القرون الوسطى حول طبيعة الرؤية، وما إذا كانت تعتمد على استقبال الضوء أو انبعائه من العين.

في هذا السياق، جاءت مساهمة عمار بن علي الموصلي لتكون مفصلية في تاريخ طب العيون في العصور الوسطى، فقد كتب في كتابه: «لقد صنعتُ إبرة مجوّفة، ولم أجربها على أحد قبل مجيئي إلى طبرية، حيث جاءني رجل لإجراء عملية جراحية وقال لي: افعل بي ما تشاء، ولكنني لا أستطيع الاستلقاء على ظهري. فأجريت له العملية باستخدام الإبرة المجوفة وأزلتُ له الماء الأبيض. فأبصر على الفور ولم يكن بحاجة إلى الاستلقاء. ظلّ معصوب العينين لمدة سبعة أيام. لم يستخدم أحد هذه الإبرة قبلي، وقد أجريت العديد من العمليات بهذه الأداة في مصر». قبل ذلك، لإجراء عملية شفط باستخدام أنبوب، كان يتطلب

الأمر شقًا أكبر، مما أدى إلى حدوث التهابات ومضاعفات ما بعد الجراحة. ولهذا السبب، ابتكر الموصلي إبرًا معدنية رفيعة وحادة للحقن. كانت هذه الإبرة، المصنوعة من النحاس أو الذهب، كي تكون ألوان هذه المواد مرئية خلف القرنية الداكنة وداخل العدسة المعتمة. واستُخدمت هذه التقنية لعدة قرون لاحقة في الشرق والغرب، حتى اكتشف طبيب العيون الفرنسي جاك دافيل في عام ١١٤١هـ / ١٧٢٨م طريقة جديدة مشابهة لتلك المستخدمة اليوم.

ابن عباس المجوسي / الأهوازي (٣٨٥-٣١٠هـ / ٩٣٠-٩٩٤م)

هو علي بن عباس المجوسي، المعروف أيضًا باسم المسعودي (٣١٠هـ / ٩٣٠م - ٣٨٥هـ / ٩٩٤م)، هو طبيب فارسي من مدينة الأهواز التي تقع بالقرب من نهر كارون في محافظة خوزستان على حدود العراق والخليج العربي. تُعد الأهواز مسقط رأسه، ولكن تاريخ ميلاده غير مؤكد؛ حيث يختلف المؤرخون بين تحديده في عام ٣١٦هـ / ٩٢٨م أو ٣٣٧هـ / ٩٤٨م. ترد معظم المعلومات عن حياته في كتابه الشهير «الكتاب المالكي» أو «الكتاب الملكي» الذي أسهم في شهرته. كان علي بن عباس مسلمًا، على الرغم من أن أسلافه كانوا يدينون بالزرادشتية. وقد درس في مسقط رأسه في الأهواز ثم انتقل إلى شيراز، حيث بدأ تدريبه الطبي على يد الشيخ أبو ماهر موسى بن سيار، الطبيب البارز في ذلك الوقت. من المؤكد أنه درس أعمال الأطباء اليونانيين القدماء التي تمت ترجمتها إلى اللغة العربية. رغم أن المؤلفين المعاصرين في بغداد لم يذكروا سيرته، إلا أنه لا شك في أنه زار بغداد في مرحلة ما، ربما بعد عام ٣٧١هـ / ٩٨١م، حيث عُين مديرًا للبيمارستان العضدي من قبل الأمير عضد الدولة، وربما كان أيضًا طبيبه الخاص.

كان علي عباس رجل الكتاب الواحد، حيث بدأ تأليف كتابه الملكي

الذي أهده إلى عضد الدولة في بغداد. وكان هدفه أن يجمع في كتاب واحد كل المعارف المفيدة للممارسة الطبية. وهو واحد من أكثر مجموعات المؤلفات الطبية القديمة اكتمالاً وتنظيماً. في أوروبا، تُرجم الكتاب الملكي في عام ٥٢١هـ / ١١٢٧م على يد ستيفن الأنطاكي - أو لعله المولود في بيزا - وهو إيطالي، الذي كان مسؤولاً عن ترجمة الأعمال العلمية الإسلامية، وخاصة الأعمال الطبية. كان العمل عنوانه باللاتينية: *Liber regalis dispositionis*. وتعتبر أول ترجمة كاملة، على عكس ترجمة الطبيب والمترجم قسطنطين الإفريقي (٤٠٦هـ / ١٠١٥م - ٤٧٩هـ / ١٠٨٧م) التي كانت مجتزأة.

كان علي عباس شديد الدقة في انتقاء مصادره. وقد بدأ عمله بمراجعة نقدية لأهم الأعمال الطبية المتاحة في عصره، مثل أعمال أبقرات وجالينوس، إضافة إلى مؤلفات الرازي، التي كان يراها - رغم تقديره لعبقرية الرازي - غير مرتبة. كان كتاب الحاوي في الطب بالنسبة له طويلاً للغاية (الذي كان يقع في ٢٠ مجلداً) وغير منظم بالشكل الأمثل، حيث اعتبره الرازي مجرد ملاحظات شخصية في شكل «كتاب طبي» خاص به. كما أشار علي عباس إلى أن كتاب الحاوي كان ضخماً جداً لدرجة أن قليلاً من الناس استطاعوا اقتنائه، وأنه يعرف شخصين فقط يمتلكان نسخة منه «وهما من أهل الثقافة شديداً الثراء». لهذا السبب، اختار علي عباس أن يقدم موسوعته في مجلدين فقط. في كتابه، قدم علي عباس عرضاً متوازناً للأعمال الطبية التي كانت متاحة في عصره. بدأ بمراجعة أعمال أبقرات، ثم تطرق إلى جالينوس، وأوريباسيوس طبيب يوناني للإمبراطور الروماني يوليانيوس في القرن الخامس الميلادي، وكذلك بولس الأجنبيطي وهو طبيب يوناني بيزنطي من القرن السابع الميلادي، وغريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملقب والمعروف بـ ابن العبري، بالإضافة إلى يحيى أو يوحنا بن سرافيون

المسيحي السرياني (ت. نحو ٣١٨هـ / ٩٣٠م)، وأخيرًا الطبيب العربي أبو بكر الرازي.

يتكون الكتاب الملكي من عشرين فصلاً، حيث تركز العشرة الأولى على الجوانب النظرية للطب، بينما تستعرض العشرة الثانية جوانب الممارسة العملية. تناول الكتاب مواضيع مثل علم التغذية، ووصفاً بدائياً للشعيرات الدموية، إضافة إلى ملاحظات سريرية مثيرة، من بينها دور انقباضات الرحم في الولادة، حيث أكد علي عباس أن خروج الطفل من رحم أمه لا يحدث من تلقاء نفسه، بل يتم بفضل الانقباضات الرحمية^(١).

كما يكتشف علي عباس تقنيات جديدة لعلاج تمدد الأوعية الدموية واستئصال الخراجات والأورام وعلاج الفتق. ما جذب اهتمام الباحثين في كلاً من الشرق والغرب. يقدم أيضاً وصفاً دقيقاً للنبض وخصائصه، ما جعل من الممكن التمييز بين الأصحاء والمرضى بناءً على هذه المعايير.

فيما يتعلق بشق القصبه الهوائية (شق الحنجرة)، يعرض علي عباس إرشادات تفصيلية تكاد تكون مطابقة لأساليب أسلافه، حيث قال: «ضع المريض بين ذراعيك وارفع رأسه، ثم قم بعمل شق تحت قمة الحنجرة، مع إجراء ثلاثة شقوق دائرية أو أربعة حول القصبه الهوائية، إضافة إلى شقوق صغيرة على الغشاء بين الغضاريف الدائرية للقصبه الهوائية. يجب تجنب توسيع هذه الشقوق لأن ذلك يشكل خطراً. الطريقة الأنسب هي تثبيت الجلد في مكانه باستخدام «سونارة»، وهو نوع من

(1) Browne, E. G. (2002). *Islamic Medicine* [الطب الإسلامي] New Delhi, India: Goodword Books. [نيودلهي، الهند].

الملاقيط، ثم شق الجلد حتى يظهر الغضروف والشرابين الموجودة تحته. بعد ذلك، قم بشق الغشاء بين الغضاريف، مع الحرص التام على عدم قطع أي أوردة أو شرايين. يجب إيقاف العملية فور اختفاء الاختناق وسببه. وأخيرًا، اسحب الجلد للخلف وقم بخياطة الجرح دون لمس الغضروف».

أحد أبرز جوانب عبقرية علي عباس هو الربط الفريد الذي يقيمه بين الجوانب العقلية والجسدية. فقد كان رائدًا في هذا المجال، حيث أبدع في شرح كيفية تأثير الحالة الفسيولوجية للمريض على حالته النفسية، وكيف أن العكس صحيح أيضًا. يوضح أن هناك علاقة متبادلة بين الصحة البدنية والعقلية للأفراد الأصحاء، وأثر مشابه عند المرضى. ويخلص إلى أن «الفرح والرضا يمكن أن يمنحا حياة أفضل لأولئك الذين لولا ذلك لكانوا مرضى وبائسين بسبب الحزن والخوف والقلق غير الضروريين». فكرة قدمها علي عباس في عصره، واليوم نعرفها تحت مسمى الطب النفسي الجسدي، الذي أصبح جزءًا لا يتجزأ من العلاج الطبي المعاصر.

لكن علي عباس يذهب إلى أبعد من ذلك في عمله، حيث يقدم وصفًا لبعض الأمراض النفسية مثل اضطرابات النوم، الذاكرة، الوسواس القهري، الغيبوبة، التهاب السحايا الحاد والتحت الحاد، الدوار، الصرع، الشلل النصفي، وحتى التعلق العاطفي. كما يولي اهتمامًا خاصًا بالحفاظ على الصحة من خلال النظام الغذائي والنقاة الطبيعية، ويعتبر الأدوية والعقاقير ملاذًا أخيرًا لا يُلجأ إليه إلا في الحالات الضرورية. كان تركيزه الأكبر على الوقاية والعلاج الطبيعي، مما جعل عمله يبرز بين أقرانه في تاريخ الطب.

وفي مزاد علني أقيم مؤخرًا في فندق دروو Hôtel Drouot للمزادات في باريس، عُرض وعاء دواء صقلي يعود للقرن السابع عشر للبيع، وقد

زُين برسم لرجل ملتح يرتدي غطاء رأس. لم يتم تقديم أي إشارة لمعلومة تحدد هوية هذا الشخص. ولكن عند مقارنة الرسم بالنقش الموجود على واجهة كتاب «أوبرا أومنيا» (عبارة اللاتينية التي تعني الأعمال الكاملة) لإسحاق بن سليمان الإسرائيلي، المؤرخ في عام ٩١٠هـ/ ١٥١٥م، يتضح أن الشخصية التي يُصوّرها الرسم هي علي عباس. يظهر المشهد في النقش ثلاثة شخصيات، حيث يجلس علي عباس، إسحاق الإسرائيلي، وقسطنطين الأفريقي على نفس الطاولة، مع تحديد واضح لأسمائهم في برواز حول كل شخصية.

يجدر بالذكر أن إسحاق الإسرائيلي كان تلميذًا لجالينوس وُلد في مصر ثم هاجر إلى تونس حوالي عام ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م. كان طبيبًا وفيلسوفًا في آن واحد. وتحتوي «أوبرا أومنيا» على أبرز أعماله مثل «كتاب التعريفات» و«كتاب العناصر». ومن الواضح أن الرسم على الوعاء الصقلي في القرن السابع عشر هو تقليد دقيق للشكل الذي يُفترض أنه يمثل علي عباس في نقش القرن السادس عشر، إذ يتشابه المظهر العام للقبعة واللحية في اللوحتين بشكل لافت. هذه المقارنة تُثبت أن علي عباس كان يحظى بشعبية كبيرة في الأوساط الطبية الغربية، بما يكفي ليُختار شخصه ليتصدر إناء فخاريًا مخصصًا للعطارين والصيادلة الصقليين. على الرغم من أن كتاب «الطب الملكي» قد تم استبداله بكتاب «القانون» لابن سينا بحلول القرن السابع عشر، إلا أن شهرة علي عباس كانت لا تزال حاضرة في الأذهان، ولم تكن سمعته مجهولة في الأوساط الطبية في تلك الفترة. وهو ما يعكس استمرار تأثير كتابه الذي استُخدم في الجامعات الأوروبية حتى القرن الثامن عشر. توفي علي عباس حوالي عام ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، عن عمر يناهز ٦٥ عامًا، في بغداد أو شيراز.

هو أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي، على الرغم من أن شهرته لم تعتمد على كونه معالجًا بارزًا، إلا أن مكانته كفيلسوف ومُعلم لطبيب الفلاسفة «ابن رشد» في مجال الطب جعلته أحد الشخصيات العلمية المهمة في تاريخ الأندلس. وُلد ابن طفيل في بلدة وادي آش (غواديكس حاليًا)، التي تقع على بعد حوالي ستين كيلومترًا شمال شرق مدينة غرناطة. لم يُعرف تاريخ ولادته الدقيق، ولكن يُرجح أنها كانت بين عامي ٥٠٣هـ / ١١٠٩م و ٥٠٤هـ / ١١١٠م.

من اسمه، يتضح أنه كان يُدعى عند ولادته محمدًا، وأبوه كان عبد الملك، وقد اكتسب لاحقًا كنية أبو بكر بعد أن أصبح أَبًا، وهي عادة عربية متوارثة. أما لقبه القيسي فيُشير إلى انتمائه لقبيلة بني قيس العربية، التي تعود أصولها إلى الجزيرة العربية. أما كنيته اللاتينية «أبو باكر» فهي تحريف غربي لاسمه «أبو بكر»، وقد وقع البعض في الخلط بينها وبين كنية «أفيمپيس»^(١)، التي كانت تشير إلى الفيلسوف الأندلسي ابن باجة.

لا توجد معلومات مؤكدة حول المعلمين الذين تتلمذ على أيديهم ابن طفيل أو المدن التي تلقى فيها تعليمه، إلا أنه يُرجح أنه درس في إشبيلية وقرطبة، وهما المركزان الفكريان البارزان في إسبانيا تحت الحكم الإسلامي. كذلك من المحتمل أنه تلقى دروسه في غرناطة، حيث برع في دراسة الطب وبدأ بممارسته هناك. ويشهد أسلوبه البارع، ولغته المتقنة، وموسوعيته المعرفية على جودة التعليم الذي تلقاه، وهو ما أقر به معاصروه البارزون، ولا تزال كتاباته شاهدة عليه حتى يومنا

(١) أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ، الموسيقار والفيلسوف والفلكي ١٠٧٧-١٠٨٢.

هذا. لذا، عُرف ابن طفيل بكونه طبيبًا وفيلسوفًا وفلكيًا، رغم غياب أسماء أساتذته عن السجلات التاريخية.

ظهر اسم ابن طفيل لأول مرة في الوثائق التاريخية عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م خلال رحلة إلى مدينة مراكش بالمغرب، حيث كان مرافق للرحلة خلال حكم عبد المؤمن بن علي الكومي (ت. ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م)، الخليفة الأول لدولة الموحدين. ومع ذلك، لم تذكر المصادر هوية من كان يرافقه في تلك الرحلة. بعد ذلك، بدأ ابن طفيل حياته المهنية، حيث عمل في ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م سكرتيرًا لوالي سبتة وطنجة. عيّنه الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ثاني خلفاء دولة الموحدين في المغرب (٥٣٢-٥٨٠هـ/ ١١٣٨-١١٨٤م) حوالي عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م أو ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م طبيبه الخاص. ورغم الشكوك حول كونه شغل منصب وزير رسمي في بلاط الخلافة، فإن المؤرخين لم يدرجوا اسمه في قوائم وزراء أبي يعقوب يوسف. حتى المؤرخ المغربي ابن القطان المراكشي، الذي عاصر ابن طفيل، رفض هذه الفرضية. ومع ذلك، كان تأثيره كبيرًا لدى أهل السلطة، واستغل هذا النفوذ لجعل مجلس الخليفة مركزًا للعلماء والمفكرين. كان ابن طفيل هو من قَدَّم ابن رشد، تلميذه الذي يصغره بـ ١٦ عامًا، إلى الخليفة، كما نصح ابن رشد، بناءً على طلب الخليفة، بكتابة شرح شامل لأعمال أرسطو. وفي ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، عندما شعر ابن طفيل بتقدمه في العمر (٧٢ عامًا في ذلك الوقت)، رشح ابن رشد ليحل محله كطبيب في البلاط الملكي.

في شهر رجب ٥٨٠هـ/ يوليو ١١٨٤م، فقد الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن حياته في الأندلس بعد تعرضه لجروح خطيرة أثناء حصار مدينة شنترين في البرتغال. وبعد وفاته، تولى الحكم ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور بالله (٥٨٠-٥٩٥هـ/ ١١٨٤-١١٩٩م)، الذي استمر في سياسات والده واحتفظ بابن طفيل في منصبه تقديرًا لفضله

ومكانته العلمية. كان هذا الموقف لافتاً للانتباه، خصوصاً أن أبو يوسف يعقوب المنصور اشتهر بصرامته وشدته. أظهر ابن طفيل ولعاً كبيراً بالكتب أكثر من الأشخاص، فقام بجمع ثروة من المعارف في مكتبة الخليفة الكبيرة. لم يكن فقط طبيباً وفيلسوفاً؛ بل كان أيضاً عاشقاً للتأمل والتفكير، ما جعله يميل إلى العمل الفكري أكثر من البحث العملي. من بين كتابات ابن طفيل الأدبية التي وصلت إلينا: قصيدة حربية غير مكتملة تهدف إلى تحفيز القبائل العربية، والأخرى قصيدة طبية طويلة وهي أيضاً غير مكتملة.

وكما تواتر كثيراً، كان ابن طفيل معلماً وصديقاً لابن رشد، وأحد أبرز المؤثرين في مسيرته. في ذلك الوقت، كان ابن رشد، الذي وُلد في ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، شاباً متعطشاً للعلم يبحث عن شخص يتقن العلوم الطبية بمهارة فائقة لينقلها إليه. وقد رُشح له اسمان بارزان: ابن زهر، الذي كان يعيش في إشبيلية، وابن طفيل، الذي كان يقيم في غرناطة. اختار ابن رشد التوجه أولاً لرؤية ابن طفيل، ربما دون أن يتخيل كيف ستغير هذه الخطوة مسار حياته إلى الأبد. وللأسف، لا توجد مصادر تاريخية توثق كيفية حدوث لقائهما الأول، مما يترك لنا مساحة واسعة للتخيل.

وربما قال ابن رشد في ذلك اللقاء الأول المُتخيل:

«عند دخولي منزل ابن طفيل، أدهشتني على الفور حدة نظراته. كان رجلاً قصير القامة وكنت أطول منه بمقدار عقليتين أصبع، يزين وجهه بلحية تجمع بين الشعر الأبيض والأسود، كأنها مزيج من الملح والفلفل. لم يكن قد تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره في ذلك الوقت».

ابن طفيل: السلام عليك يا ابن رشد. أهلاً بك، هل كانت رحلتك

موفقة؟

ابن رشد: بينما كان يتحدث، دعاني إلى غرفة صغيرة مفتوحة على حديقة. رأيت في إحدى زواياها مكتباً على سجادة حريرية مهيبة ورفوف كتب مقوسة تحت ثقل الكتب. أشار إليّ بالجلوس وجلس خلف مكتبه.

ابن طفيل: إذن، تريد أن تتعلم الطب؟

ابن رشد: أومأت برأسي.

ابن طفيل: هل تعلم أن هذا العلم لا يصنع المعجزات؟ وأنه على الرغم من كل إخلاصك، فإن بعض مرضاك سيموتون؟ إنه علم لا يثير سوى الأسئلة، يا ابن رشد. هل أنت مصمم على مواجهتها؟

ابن رشد: وأضاف دون أن يمهلني وقتاً للإجابة:

ابن طفيل: لماذا هذه النوبات المفاجئة من الحمى؟ لماذا القلب يتوهج ثم ينطفئ؟ ما هي الأسلحة الخفية التي يمتلكها الجسم لمقاومة أعتى الهجمات؟ الغموض، الغموض، إن الإنسان ليس سوى لغز.

ابن رشد: ذات يوم، رأيت أختي تحتضر. كان الطبيب قد أخبرنا بذلك ومع هذا، وبدون سبب واضح، نجت وتغلبت على المرض.

ابن طفيل: هذا هو اللغز الذي يطاردنا. هل لدى البشر القدرة على التغلب على الشر؟

ابن رشد: انحنى ابن طفيل فجأة نحوي ومدّ معصمه.

ابن طفيل: جسّ نبضي.

ابن رشد: متردداً، امتثلت له مقلداً للإيماء التي رأيت الطبيب الذي عالج أختي يكررها مرات عدة. وضعتُ ثلاثة أصابع، السبابة والوسطى والبنصر، في مسار الدم.

ابن طفيل: بماذا شعرت؟

ابن رشد: نبضات... ثم انفجر ضاحكاً.

ابن طفيل: أرحمني! إذا أنا لست ميتاً. لكن هذا لم يكن سؤالاً، ركز جيداً، هل نبضي يخفق؟ خفيف؟

ابن رشد: سامحني يا سيدي، أنا لا أفهم. سحب معصمه وقال:
ابن طفيل: اعلم أنه لا يوجد نبض واحد متماثل.

ابن طفيل: أحصى ابن سينا العظيم ستين اختلافًا بسيطاً وثلاثين اختلافاً مركباً. هذه الدراسة وحدها تتطلب ساعات بل أياماً من الملاحظة. الطب ليس علماً سهلاً، يا ابن رشد. فهو يتطلب صبراً ومثابرة وذاكرة وحاسة ملاحظة وإصغاء شديدين، وصفات أخرى كثيرة لا تتوافر في كل أحد. هل يمكنك أن تكون مثابراً؟

ابن رشد: نعم يا معلمي. نعم، بالتأكيد. ثم تأمل ابن طفيل للحظة قبل أن يعلن:

ابن طفيل: حسناً جداً. ومع ذلك، يجب أن تعلم أنك إذا أخفقت ولو مرة واحدة، سأعيدك إلى أبيك. أفترض أن ليس لديك مكاناً تقيم فيه؟

ابن رشد: بلى، لدي. لقد وافق عمي الذي يعيش هنا في غرناطة على أن يؤويني في بيته للمدة التي أحتاجها.

ابن طفيل: يمكنك أن تطمئنه. فخلال سنة على الأكثر، إن شاء الله، سأنتقل إلى قرطبة. لقد سئمت غرناطة.

ابن رشد: وقف. إشارة إلى أن المقابلة قد انتهت. قادني إلى الباب، واضعاً يده اليمنى على قلبه همساً قائلاً:

ابن طفيل: السلام عليك.

وهنا ينتهي هذا الحوار المُتخيل بين ابن رشد وابن الطفيل.
يقال إن ابن طفيل قد كتب رسالتين في الطب، إلا أنه لا يوجد أي

أثر لهما. كما أنه لا توجد سجلات لمراسلاته مع ابن رشد حول رسالة الأخير في الطب «كتاب الكليات في الطب». لكن اهتمام ابن طفيل لم يقتصر على الطب، فقد كان لديه شغف أيضاً بعلم الفلك. وبسبب عدم رضاه عن النظام الفلكي الذي وضعه بطليموس، دفعه هذا إلى ابتكار نظام جديد. وانتقد ابن رشد في شرحه الأوسط لـ «ميتافيزيقا أرسطو» (شرح ابن رشد بأسلوب ميسر مقارنة بالشرح الأوسع الذي يتضمن تفاصيل أعمق، ويهدف إلى توضيح المفاهيم الفلسفية المعقدة التي ناقشها أرسطو في «الميتافيزيقا») فرضيات بطليموس حول بنية الكرات السماوية وحركات النجوم، وأشار إلى أن ابن طفيل كان قد طور نظريات متقدمة في هذا المجال، كان من الممكن الاستفادة منها بشكل كبير. ولكن للتذكير مرة أخرى، فإن الغياب التام لأي نص كامل يوضح النظام الذي ابتكره ابن طفيل يجعلنا نكتفي بالتخمين. هذا النظام الذي «أثار ضجة في جميع أنحاء العالم»، كما يقول مؤلف يهودي من أوائل القرن الرابع عشر، وصفه الفلكي العربي أبو إسحق نور الدين البطروجي الإشبيلي (المعروف في الغرب بالاسم اللاتيني البترجيوس) وعاش في القرن السادس هجري/ القرن الثاني عشر الميلادي بالعبارات التالية: «تعلمون أن القاضي اللامع أبا بكر (ابن طفيل) أخبرنا أنه اكتشف نظاماً فلكياً ومبادئ للحركات السماوية المختلفة، مغايرة لتلك التي وضعها بطليموس، وبناءً على هذا النظام، ووفقاً لقوله، فإن جميع هذه الحركات قد ثبتت ولم يترتب عليها شيء باطل».

استناداً إلى هذه الشهادة، لم يتردد بعض العلماء في تقديم ابن طفيل على أنه سبق علماء الفلك في العصر الحديث مثل كوبرنيكوس وجاليليو في بعض جوانب علم الفلك. وللأسف، فإن النطاق والمحتوى الفعلي لأعماله المهمة في هذا المجال لا يزالان غامضين، كما هو الحال مع أعمال معاصره ابن باجة. أما العمل الأكثر شهرة والأهم بالنسبة لابن

طفيل فهو بلا شك حكايته الفلسفية «حي بن يقظان»، والمعروفة باللاتينية باسم «الفيلسوف الذي علّم نفسه بنفسه». هذا العمل الفلسفي يُعدُّ من أبرز إنجازاته الفكرية ويظل أحد المراجع الأساسية في تاريخ الفلسفة الإسلامية.

وقد قال الكاتب والمفكر الفرنسي «إرنست رينان» عن حي بن يقظان^(١) في ذكر من بين روائع الفلسفة العربية:

«حي بن يقظان، ربما يكون هذا هو المؤلف الوحيد الذي يمكن أن يقدم لنا أكثر من الفائدة التاريخية. يقدم هذا العمل المثير للفضول من عدة نواحي، نموذجًا علميًا وفلسفيًا وصوفيًا سابقًا بنحو ستمائة عام على رواية «روبنسون كروزو» الشهيرة التي ألفها الكاتب الإنجليزي دانيال ديفو. العمل مكتوب على شكل رسالة، تتألف من مقدمة تقع في خمس عشرة صفحة، ويخاطب المؤلف مراسلًا، ربما يكون خياليًا، طلب منه أن يكشف له ما يستطيع من أسرار الفلسفة الروحية ولتلبية طلب صديقه، ولإعطائه فكرة تخمينية عن هذه الأسرار السامية، ومن ثم تشجيعه على تنمية شغفه لاكتساب المعرفة الكاملة بها، يروي له ابن طفيل قصة حي بن يقظان وعسال وسليمان المجازية».

في جزيرة نائية تحت خط الاستواء، في قلب المحيط الهندي، وُلد طفل في ظروف استثنائية. وفقًا لإحدى الروايات، كان الطفل يُدعى حي بن يقظان، الذي عُثر عليه في صندوق صغير ألقته الأمواج على شواطئ الجزيرة، بعدما كانت الأميرة التي أنجبته قد اضطرت للتخلي عنه لتنجو بحياتها من خطر. تمكنت غزالة من العثور على الطفل الوحيد، فاحتضنته

(١) قدم هذا العمل، ستمائة عام قبل دانيال ديفو، نموذجًا علميًا وفلسفيًا وصوفيًا لـ «روبنسون كروزو». فكان من أوائل الكتب الأكثر مبيعًا، حتى قبل المطبعة. وهو أيضًا العمل الوحيد المعروف لأبي بكر حتى الآن. لم يتبق شيء من أعماله الأخرى.

وأرضعته، وترعرع حي بن يقظان في الجزيرة. كبر في وحدته، وتعلم العيش في عزلة تامة عن البشر. قضى وقته في التأمل والانعزال داخل كهفه، حيث تمكن من صوم أربعين يومًا متتالية، وعكف على تدريب نفسه في فصل تفكيره عن جسده وعن كل ما يحيط به من مؤثرات خارجية، معتقدًا أنه بذلك يمكنه التوحد مع الله. كانت لديه قدرة غير عادية على التفكير والتحليل، وقد منحته هذه القدرة الفائقة ذكاءً مميزًا، جعلته يدرك أعظم مفاهيم العلم البشري عن الكون من خلال تفكيره بمفرده. ومن خلال تجربته هذه، بدأ يدرك أن الكائنات الحية على تنوعها، تشترك في وحدة الجوهر رغم اختلاف أشكالها.

وأخيرًا، أدى الفكر الفلسفي الذي توصل إليه حي بن يقظان إلى سعيه للاتحاد الروحي الكامل مع الله، عبر تجربة صوفية عميقة تمثل ذروة العلم الإنساني والنعيم المطلق في آن واحد. كان هذا السعي بمثابة تنويع لفكر ابن طفيل الفلسفي الذي، كما يراه أستاذ الفلسفة الإسلامية ليون غوتيه^(١) أنه استطاع أن يحافظ على توازن رائع بين مختلف الأنواع الأدبية في عمله. يضيف غوتيه قائلاً: «جمل ابن طفيل قصيرة، يقظة، دقيقة، صحيحة لغويًا، تحمل كامل البلاغة والوضوح، بل هي واضحة وضوحًا يضيء الطريق للقراء». إذا كان على طلاب الاستشراق أن يتبعوا نموذجًا للأسلوب الفلسفي العربي ليقلدوه، فإننا لن نتردد في الإشارة إلى أسلوب ابن طفيل، وبالتحديد أسلوبه في «حي بن يقظان». وإذا كان عليهم أن يختاروا العمل العربي الأفضل الذي يمكنهم من خلاله اكتساب فكرة شاملة عن الفلسفة الإسلامية والعلم العربي في أقل وقت وجهد،

(١) ١٨٦٢-١٩٤٩. أستاذ تاريخ الفلسفة الإسلامية، ولد في سطيف بالجزائر. مترجم كتاب «حي بن يقظان» و«خطاب ابن رشد الحاسم».

فإننا سنختار هذا العمل مرة أخرى، الذي يعكس خلاصة التفكير الفلسفي والعلمي في العالم العربي.

إذ من المستبعد أن يكون هناك عمل أكثر تألقاً في تكوينه ضمن الأدب العربي من كتاب حي بن يقظان؛ فلا يوجد فيه تفاصيل زائدة، ولا أخطاء في سرد الحبكة، ولا استطرادات مكررة. كل شيء يتدفق بمنطق لا تشوبه شائبة، متبعاً تدرجاً مستمراً، حيث يمهد كل جزء للجزء الذي يليه، وكلها معاً تقود إلى الخاتمة التي تطرح بوضوح الغرض من العمل بتمامه. وعندما يُسأل عالم من علماء المسلمين عما إذا كان يعرف قصة حي بن يقظان، فإنه سيجيب تسع مرات من عشرة، إذا كان مثقفاً: «نعم، إنها رسالة لابن سينا». وهذا يعود إلى وجود كتيب مشهور لابن سينا بعنوان «رسالة حي بن يقظان»، ولكنه ليس له علاقة بمؤلف ابن طفيل. كُتب هذا النص في تاريخ غير معروف، ولكن البعض يقدر أنه كتب في عام ٥٧٦هـ / ١١٨٠م، أي في أواخر حياة ابن طفيل^(١) الذي توفي في مراكش عام ٥٨١هـ / ١١٨٥م. وقد ترك ميراثه لأبنائه الثلاثة: بكر ويحيى وجعفر، وحضر الخليفة الدولة الموحدية جنازته، مما يبرز مكانته الرفيعة في المجتمع الإسلامي.

ابن البيطار (٥٩٣ - ٦٤٦هـ / ١١٩٧ - ١٢٤٨م)

هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن البيطار المالقي، وُلد في العقد الأخير من القرن السادس الهجري، حوالي سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م، في مقاطعة مالقة بالأندلس (مدينة مالجا حالياً جنوب إسبانيا)، وربما تحديداً

[ابن طفيل، حياته، أعماله] Léon Gauthier, *Ibn Tufayl, sa vie, ses œuvres* Editions Ernest Leroux, Paris, 1909.

في بلدة بناء المعدانة (اسمها الإسباني الحالي «بينالمادينا» Benalmádena). كان ينتمي إلى عائلة علمية بارزة في الأندلس، حيث نشأ في مدينة مالقة وتلقى تعليمه الأولي هناك على يد والده أحمد بن عبد الملك، الذي كان جراحًا بيطريًا. وقد غرس والده فيه شغفًا بالعلوم الطبيعية منذ طفولته، ووجهه ليكون فضوليًا ومستكشفًا للنباتات والحيوانات والمعادن. هذه السنوات الأولى مع عائلته كانت الأساس الذي بنيت عليه دراساته، إذ أيقظت فيه رغبة قوية لتوسيع آفاقه العلمية. دفعه هذا الطموح إلى مغادرة مدينته بحثًا عن المعرفة، فتتلمذ على يد أشهر علماء الأعشاب الذين صقلوا مهاراته في دراسة علم النبات ووسعوا مداركه.

قبل الخوض في التفاصيل، يجدر بنا أن نتأمل في أصول التداوي بالأعشاب، التي تعود إلى فجر التاريخ. ففي الأساطير الإغريقية، كان أسكليبيوس إله الشفاء، أما ابنته هيغيا Hygie فكانت إلهة النظافة والصحة في الأساطير الإغريقية، التي كانت بمثابة العطار أو الصيدلاني الخاص به. أما في مصر القديمة، فقد كان الكهنة الأطباء ينقسمون إلى فئتين: فئة تزور المرضى وتباشر علاجهم، وفئة أخرى تقيم في المعابد لتحضير العلاجات للمرضى الذين يقصدونهم. وفي اليونان وروما القديمتان، كان هناك تمييز واضح بين أدوار الطبيب الذي يصف العلاج، وطبيب الأعشاب الذي يتولى تحضير تلك العلاجات. جدير بالذكر أن أول أطروحة صيدلانية يونانية تضمنت قائمة بالنباتات الطبية، كتبها الطبيب اليوناني ديوسكوريدس في القرن الأول الميلادي⁽¹⁾.

في سن العشرين أو الثالثة والعشرين من عمره، غادر ابن البيطار

(1) Dioscorides, *De Materia Medica* [دي ماتيريا ميديكا] Johannesburg, Ibides Press, 2000.

إشبيلية ليواصل تعليمه على يد كبار علماء النبات في ذلك الوقت، مثل أبو العباس النبطي (٥٦١-٦٣٧هـ/ ١١٦٦ - ١٢٣٩م)، الذي كان يُعد من أعظم علماء النبات في الدولة الموحدية، ويُلقب بـ «ابن الرومية» ربما بسبب أصوله البيزنطية. بدأ ابن البيطار دراسته على يد النبطي، حيث تعلّم علم النبات بشكل نظري وعملي، وكان دائماً ما يركز على استخدامات النباتات الطبية. سافر مع النبطي في أنحاء إشبيلية لتعلم كيفية التعرف على النباتات المحلية في المنطقة، وعقب عامين من الدراسة، بدأ رحلته الكبرى التي جابت مناطق المغرب العربي.

خلال هذه الرحلة التي استمرت لعدة سنوات، اكتشف ابن البيطار وصنف العديد من الأصناف النباتية الجديدة. بدأ من سبتة بالمغرب ثم توجه إلى مدينة بجاية (في الجزائر الحالية)، حيث اكتشف العديد من النباتات التي تنبت بأرض شمال أفريقيا وبلاد المغرب وضمّن في كتابه الشهير «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية البسيطة» العديد من المترادفات الأمازيغية المغربية. بعد ذلك، واصل رحلته نحو قسنطينة ومر عبر تونس وطرابلس وبرقة في الساحل الليبي. وقد اعتاد أن يكتب اسم كل مكان جمع فيه عيناته النباتية، سواء للإشارة إلى أسمائها المحلية أو لتوثيقها في معجمه النباتي الشخصي. بفضل شهرته الكبيرة، تواصل ابن البيطار مع العديد مع المتخصصين في علم النبات والأعشاب الذين كانوا يعيشون في القرى والبلدات على طول الطريق. في عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٤م، كان قد وصل إلى سوريا، ثم انتقل إلى القاهرة حيث عُين من قبل السلطان الكامل الأيوبي (٦١٥-٦٣٥هـ/ ١٢١٨ - ١٢٣٨م) «رئيساً للعشابين» في مصر. كرّس ابن البيطار بقية حياته لدراسة النباتات الطبية في القاهرة. في عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، بعد وفاة راعيه الملك الكامل، تلقى ابن البيطار دعمًا أيضًا من ابنه السلطان الملك الكامل الأيوبي الذي أهدى إليه كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية

البسيطة». يُعد هذا الكتاب، الذي كان ثمرة سنوات من العمل المستمر، أهم مؤلفاته في مجال الأدوية النباتية وأعظم أعماله العلمية في هذا المجال.

هذا العمل الضخم هو معجم يسرد وفقًا لأبجدية الحروف العربية الأغذية والأدوية البسيطة» (وهي الأسماء التي كانت تُطلق على النباتات الطبية في العصور الوسطى) من الممالك الثلاث: النباتية، الحيوانية، والمعدنية. يحتوي الكتاب على حوالي ١٤٠٠ دواء، موصوفة في ٢٣٣٠ مادة، منها أكثر من ٣٠٠ مادة جديدة في علم الصيدلة من المصادر العربية، بينما العناصر الأخرى هي مواد معروفة مسبقًا ومأخوذة بشكل رئيسي عن الأعمال اليونانية. استند ابن البيطار في تجميع مصادر هذا العمل إلى التقاليد العلمية العميقة الموروثة من العالم اليوناني الكلاسيكي، إضافة إلى الثقافة الفارسية والشرقية الثرية بالمعارف. وقد وصف كل صنف نباتي أو حيواني أو معدني بشكل مفصل، حيث يتبع كل دواء وصفًا للخواص الفيزيائية له، مع شرح تفصيلي لخصائصه العلاجية، وقواعد استخدامه، وجرعاته، والأمراض التي يُستخدم في علاجها. بالإضافة إلى ذلك، يشتمل الكتاب على مجموعة من التفاصيل الأخرى، مثل أسماء الأدوية المعروفة في اللغات المختلفة وأصلها الجغرافي. في بعض الأحيان، يشكّل ابن البيطار فسيفساء من الأسماء بلغات مختلفة مثل اليونانية، العربية، اللاتينية، البربرية الأمازيغية، والفارسية، مع تقديم اللفظ الدقيق لكل كلمة لتجنب الأخطاء أو الخلط بين الأسماء.

اتبع ابن البيطار منهجًا دقيقًا في عرض وصف الأدوية والعقاقير، حيث كان يولي اهتمامًا كبيرًا بتفصيل خصائص كل دواء، ويقوم بمقارنته مع العقاقير الأخرى لتحديد شكل دقيق وواضح. ويوضح في القسم الخاص بالعلاج جميع الاستخدامات الطبية لهذا العقار، سواء كان

يُستخدم بمفرده أو مع أدوية أخرى، مع تسليط الضوء على آثاره الجانبية إن وُجدت. كما يشرح كيفية تحضير الدواء، مع تحديد الأماكن والأوقات المثلى للحصول على أفضل فعالية. في بعض الأحيان، يُرفق هذا الشرح بتعليقات «فريدة غير مسبقة» أو إشارات إلى تأثيرات قد تكون خارجة عن نطاق العلاج الطبي المعروف، مع الإشارة إلى شكوكه حول هذه الممارسات العلاجية.

من الجدير بالذكر أن ابن البيطار لم يتردد في توثيق المعلومات التي جمعها من المصادر التي اعتمد عليها، كما كان يحرص على تصحيح الأخطاء التي قد تكون قد تسلفت إلى هذه المصادر. بذلك، كان يساهم في تحديث المعارف الطبية التي ربما تكون قد حُرفت عبر تاريخ العلم على مدار قرون طويلة. وعلى الرغم من إلمامه الواسع بالمعارف المتعددة، فقد حرص ابن البيطار على أن يكون كتابه مختصرًا ومباشرًا، ولم يكن يكرر نفسه، حتى وإن توافقت بعض الأسماء والأنواع في المداخل المختلفة، حيث كان يشير تلقائيًا إلى المكان الذي ذكر فيه العقار في الكتاب، مما سهل العثور عليه وكأنه فهرس النباتات في عمله بمفهومنا الحديث. وقد اعتمد في جمع معلوماته على ما يقرب من ١٥٠ مؤلفًا من ثقافات متعددة، شاملة الأعمال العلمية اليونانية والعربية من المشرق والمغرب الأندلسي، بالإضافة إلى مؤلفات الكلدانيين والهنود. كما يمكننا تتبع أثر العلماء الذين اقتبس منهم ابن البيطار في مؤلفاته؛ حيث استشهد ابن البيطار كثيرًا بأعمال الرازي وابن سينا، مما يعكس تأثره العميق بهما.

ومن الجدير بالذكر أن ابن البيطار كان يكن احترامًا كبيرًا لكل من ديوسقوريدس وجالينوس، اللذين كان لهما تأثير كبير في عمله. في الواقع، تمثل سيرة وأعمال هذين العالمين تقريبًا نصف إجمالي المصادر

اليونانية الطبية التي استند إليها. ومن المهم الإشارة إلى أن ابن البيطار استعان بمؤلفات فقدت اليوم عند تجميع كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية البسيطة»، مما يجعل هذا الكتاب مرجعًا مهمًا لإعادة تكوين تلك الأعمال المفقودة جزئيًا. في هذا السياق، يروي تلميذه المخلص، مؤرخ الطب العربي الشهير ابن أبي أُصيبعة، كيف التقى بابن البيطار لأول مرة في دمشق، حيث كان يقدر خصاله الفائقة ومعرفته العميقة بالنباتات. يذكر ابن أبي أُصيبعة كيف قام برفقة ابن البيطار بجولة في المنطقة المحيطة بدمشق، حيث اكتشفا معًا العديد من النباتات الجديدة. وأخذوا معهم مؤلفات ديوسكوريدس وجالينوس والغافقي^(١) (طبيب أندلسي معروفًا بعلمه في الطب والنباتات خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، بالإضافة إلى كتابات أخرى لا تقل أهمية عن النباتات البسيطة، وهو ما كان يضيف قيمة كبيرة لدراساتهم. ويضيف أن ابن البيطار كان يقتبس المصطلحات اليونانية كما وردت في مؤلفات ديوسكوريدس، ثم يعقب عليها بما ذكره ابن البيطار عن النباتات وخصائصها العامة. وكان يفعل الشيء نفسه مع جالينوس وغيره من المؤلفين الكلاسيكيين، مشيرًا إلى التناقضات والأخطاء التي قد توجد في أعمالهم.

ويشارك العديد من الأطباء والمؤرخين المعاصرين لابن البيطار، مثل المؤرخ الأمريكي جورج سارتون والطبيب الفرنسي لوسيان لوكلير وعالم الإنسانيات الإسباني خوليو كولا ألبيريش، في الثناء على هذا العالم

(١) مؤلف «كتاب العلاجات البسيطة»، وهو موسوعة للنباتات الطبية المستخدمة في أوائل العصور الوسطى. من أصل أندلسي، توفي الغافقي حوالي سنة ١١٦، وكان عمله لا مثيل له في عصره في هذا التخصص.

الأندلسي، معتبرين إياه من أعظم علماء النبات في العالم الإسلامي وفي العصور الوسطى بشكل عام. فقد نجح ابن البيطار في رفع هذا العلم إلى أعلى مستوى، محققًا بذلك إنجازًا علميًا فريدًا في زمانه.

توفي ابن البيطار في دمشق في الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر أو الأيام الأولى من شهر نوفمبر من عام ١٢٤٨م الموافق ٦٤٦هـ، تاركًا وراءه إرثًا علميًا كبيرًا من المؤلفات التي تركت بصمة واضحة في علم النبات والصيدلة في العالم الإسلامي. كانت مؤلفاته مصدرًا رئيسيًا للمعرفة في العصور الوسطى، ومن بين أبرز هذه المؤلفات:

١. الكتاب الذي ينير ويوضح الأخطاء والأكاذيب التي يتضمنها «المنهاج» (ذا الكتاب يتناول تصحيح الأخطاء الواردة في بعض الأعمال الطبية السابقة)

٢. كتاب جامع الأدوية والأغذية البسيطة.

٣. أفعال خارقة للعادة وخصائص عجيبة.

٤. تعليق على كتاب ديوسقوريدس المعروف عربيًا باسم «مادة الطب» أو «مادة الأدوية» واسمه اللاتيني: «ماتيريا ميديكا» (Materia Medica).

٥. رسالة في علاج السموم.

٦. ما يفيد معرفته عن الأدوية البسيطة.

٧. ميزان الطبيب.

٨. رسالة في الليمون.

٩. مجموعة من المنافع للبدن.

١٠. رسالة في الغذاء والدواء.

هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ، المولود في الأندلس والمعروف بين العرب بابن باجة وفي المصادر اللاتينية باسم «آفميس» Avempace، وحدثت بعض الالتباسات في تعريفه بسبب التباين في طرق كتابته. ووفقاً لاشتقاق اسمه فيبدو أنه والده كان يعمل صائغاً في صناعة الذهب. ومن خلال شروحه العميقة لأعمال أرسطو، يُعتبر ابن باجة الرائد الحقيقي للفكر الأرسطي في إسبانيا تحت الحكم الإسلامي. في مجال الفلك، كان ابن باجة مولعاً بدراسة الفضاء والكواكب، وقد تجاوز نظام بطليموس الفلكي التقليدي الذي كان سائداً في عصره، ليطور منظومة فلكية جديدة، رغم أننا نعرف تفاصيلها بشكل محدود فقط من خلال روايات غامضة حيث نُقلت بعض أفكار ابن باجة من قبل البطروجي في القرن السادس الهجري^(١) ألبرتاجيوس) كما ناقشها لاحقاً موسى بن ميمون في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، إذ كان ابن باجة من المفكرين الذين سعى جاهداً إلى تجديد الفهم الفلكي في زمانه.

وُلد ابن باجة في سرقسطة شمال شرقي الأندلس، خلال عهد أسرة بني هود^(٢) الحاكمة في الأندلس خلال فترة ملوك الطوائف. دخل المرابطون إلى سرقسطة في سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م، وعلى غير المتوقع، قام الحاكم المرابطي الوالي الجديد لمدينة سرقسطة، ابن تيفيلويت (٥٠٤ - ٥١١هـ / ١١١٠ - ١١١٧م)، بتعيين ابن باجة وزيراً، تقديرًا

(١) عالم فلكي عربي أندلسي مشهور، ولد في القرن الثاني عشر.

(٢) سلالة عربية حكمت في سرقسطة خلال فترة ملوك الطوائف. في عام ١١١٠، فقد بنو هود السيطرة على إمارتهم وذهبوا إلى المنفى، مما وضع حداً لحكمهم الذي استمر لقرون.

لملكاته الفكرية الرفيعة. وكان الأمير ابن تيفيلويت حاكمًا مرابطيًا جمع حوله نخبة من المثقفين والشعراء والموسيقيين والأدباء في قصر الجعفرية. وقد وصف ابن باجة هذه الأيام في قصيدة طويلة عبّر فيها عن حياته داخل القلعة. في سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م، كلفه ابن تيفيلويت بمهمة دبلوماسية مجهولة تفاصيلها، لكنها انتهت بشكل سيئ، حيث تم اعتقال ابن باجة وسجنه. وبعد بضعة أشهر، أُطلق سراحه وعاد إلى سرقسطة. وفي سنة ٥١١هـ / ١١١٧م، توفي ابن تيفيلويت أثناء قتاله ضد الملك المسيحي في إسبانيا ألفونسو الأول (٤٦٥ - ٥٢٨هـ / ١٠٧٣ - ١١٣٤م) الذي كان يحاصر المدينة.

في عام ٥١٢هـ / ١١١٨م، انتزعت سرقسطة من يد حُكام المسلمين، مما دفع ابن باجة للجوء إلى شاطبة في مقاطعة بلنسية، حيث التحق ببلاط الأمير المرابطي إبراهيم بن يوسف بن تاشفين (حكم بين ٥٠٠ - ٥٣٧هـ / ١١٠٦ - ١١٤٣م). ولسوء حظه، لم يكن يعلم أن الطبيب الشخصي للأمير هو ابن زهر (أفنزوار) الشهير. فقد كان هناك نوعًا من التنافس وعداء بين ابن باجة والطبيب أبو مروان ابن زهر، بسبب خلافات فكرية وعلمية. وأصبح الوضع أسوأ بوجود الأديب والشاعر الأندلسي الفتح بن خاقان ضمن حاشية الأمير إبراهيم بن يوسف. وقد أهدى الفتح بن خاقان للأمير بن يوسف كتابه «قلائد العقيان»، وهو مختارات من مؤلفات الشعراء المعاصرين، حيث انتقده بشدة واتهمه بأرذل الصفات، مما ساهم في تأجيج الجدل والتربص بابن باجة الذي غادر إلى ألمرية وقرطاجنة، حيث مارس الطب وابتعد عن السياسة. ومن هناك، توجه إلى وهران (في الجزائر الحالية). تُعتبر «رسالة الوداع» من أبرز أعماله الفلسفية، وبعث بها إلى أحد تلاميذه وأصدقائه ليكون على بينة من آرائه فيما يتعلق إذا لم يلتقيا بعد، وتتضمن رسالة الوداع رغبة

ابن باجة في إحياء معالم العلم والفلسفة. لاحقاً وجد ابن باجة نفسه في فاس، حيث عمل كطبيب في بلاط المرابطين.

سعى ابن باجة كان إلى تحصيل المعرفة الخالصة^(١) من خلال العلوم النظرية والتأملية، وهو ما يتجلى في رسالته الفلسفية «رسالة الوداع» التي وجهها إلى تلميذه ابن الإمام قائلًا: «يجب أن تعلم أن هذا الاقتران بين الفهم والفكر لا يمكن اكتسابه إلا من خلال العلوم النظرية، وإذا كانت لديك الرغبة في لقائي ولقاء من سبقني ومن سيلحق بنا، فلتتفرغ تماماً لتحصيل تلك المعارف لتلتقي مع من سبقوك، الذين ينعمون برحمة الله والقرب منه». وهنا يشير ابن باجة في رسالته إلى فكرة تتطابق مع ما ذكره موسى بن ميمون لاحقاً في كتابه «إرشاد الضالين». يرى كلاهما أن النفوس الخالصة لا تبقى متميزة عن بعضها بعد فناء الأجساد، بل تصبح متحدة في وحدة واحدة، لأن الروح تصبح خالية من الخصائص المادية التي كانت تميزها في الحياة (فكرة فلسفية حول الروح أو النفس بعد موت الجسد).

كما انتقد ابن باجة بشدة المذهب الصوفي، وخاصة كما يمثله الإمام أبو حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥ هـ / ١٠٥٨-١١١١ م) -أحد أعظم علماء وفلاسفة العالم الإسلامي في العصور الوسطى- الذي اعتبر أن طريق النشوة أو الحدس الذي يطرحه الصوفية للوصول إلى الحقيقة ليس هو الطريق الصحيح، فابن باجة يرى أن السعادة لا تتحقق عن طريق اللذة الصوفية التي يصفها بأنها «حلولى خادعة» وهو تشبيه للتجربة الروحية غير المبنية على العقل، لأنها تمزج المعرفة الخالصة بحقائق مصطنعة، مما يؤدي إلى ابتعاد عن الحقيقة.

(١) لفظ المعرفة يعنى هنا تواصل بين الفكر والحقيقة الدنيوية.

من كان ابن باجة حقًا؟ إذا كان علينا إيجاز ذلك، يمكننا القول إنه كان مفكرًا مرهف الحس ذا عقل موسوعي، خبيرًا في الطب والرياضيات والفيزياء والفلك والفلسفة والسياسة، بالإضافة إلى شغفه بالموسيقى. وقد درس في هذا المجال العلاقة بين انتقال الأصوات وتأثيراتها على مزاج الإنسان. ووفقًا للباحث في الموسيقى العربية إيميليو غارسيا غوميز، كان ابن باجة يُعتقد أن ابن باجة من أوائل الذين ساهموا في تطوير فن الزجل، وهو شكل موسيقي شعري خاص بالمغاربة. وبعد سنوات، ألهم هذا الفن الشاعر لويس أراغون لكتابة قصيدته الشهيرة «الزجل الحقيقي لدرجة الموت». يصعب وصف ابتكارات ابن باجة في مجال الموسيقى، وذلك بسبب عدم وجود مقطوعات موسيقية حية من تلك الفترة. ومع ذلك، فإن معظم الإشارات إلى أعماله تؤكد بوضوح إسهاماته في هذا المجال. من المفارقات أن هذه الإشارات نفسها لا تعطي اهتمامًا كبيرًا لما كان عليه وأسهم فيه قبل كل شيء؛ فهو فيلسوفًا بالدرجة الأولى.

يُعتبر ابن باجة من أبرز الفلاسفة المسلمين في العصور الوسطى، وقد أطلق عليه ابن خلدون لقبًا يجعله في مصاف أعلام الفلسفة مثل ابن رشد، الفارابي، وابن سينا. ومع ذلك، فإن بعض جوانب فكره لم تنل الفهم الكامل من معاصريه، مما أدى إلى ظهور مواقف متباينة تجاهه، تراوحت بين التمجيد والنقد اللاذع. يظهر ذلك جليًا عند دراسة رسالته الفلسفية الشهيرة وغير المكتملة، «تدبير المتوحد». تناول ابن باجة في هذا العمل فكرة المدينة المثالية، حيث ينبغي أن يحكم كل شيء بناءً على الحق، الفضيلة، والمحبة بين الناس. ومن خلال هذه الرسالة، قدم نموذجًا للفيلسوف الحكيم الذي يرى أن الإرشاد الذي يجب أن يُوجّه حياتنا لا ينبع من عقيدة دينية أو قوانين وضعها المجتمع، وإنما من العقل البشري الخالص. بالنسبة له، العزلة أو «الانعزالية» ليست سوى

حالة مؤقتة يختارها الفيلسوف كي يعيد بناء وعيه الذاتي ويبحث في الحلول التي قد تؤدي إلى قيام مجتمع فاضل.

يرى ابن باجه أن مفهوم «الانعزال» يتعارض مع سلوكيات أولئك الذين وصفهم بـ«مروجي الأكاذيب»، إذ يهيمنون على مجتمع يسوده الفساد والانحراف. ويتضح من فكر ابن باجه أن مفهوم «الانعزال» الذي يطرحه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعقل كجوهر أساسي للإنسان وطبيعته. وكما أن الحافة تمثل جوهر السكين وعلة وجوده، فإن العقل عند ابن باجه يمثل العنصر الإلهي في الإنسان. على الرغم من أن الإنسان يُعرف بأفعاله الجسدية، فإن جوهره الحقيقي يتمثل في عقله، الذي يُعتبر مصدر النفحة الربانية فيه. يتناول ابن باجه العزلة كوسيلة إيجابية تُتيح للمفكر حرية السير في طريق العقل دون عراقيل. فالحكيم الحقيقي، وفقًا له، هو إنسان وحيد بطبيعته، لأن انشغاله الأول هو بمصيره الفردي. مخالطة الأشخاص الذين يتبنون معايير أخلاقية أو فكرية أدنى من معاييرهم، تُعد عائقًا أمام سعيه لتحقيق الكمال. لذا، يشترط ابن باجه أن يكون الإنسان الحكيم خاليًا من الرذائل وملتزمًا بالفضيلة. فما الذي اقترحه ابن باجه في سبيل ذلك:

١. العودة إلى الماضي من باب الحنين إليه؟

٢. الهروب إلى الأمام نحو الوهم؟

٣. الدعوة إلى العنف ضد، داخل، أو بين المدن الفاسدة؟

٤. الطريق الصوفي؟

٥. أم اختيار العزلة المؤقتة للمساعدة على تقوية الوعي الذاتي

والتقييم الذاتي؟

وقد أشاد ابن طفيل، خليفة ابن باجه، بأعماله الفكرية مؤكدًا أنه تفوق على جميع «العقول اللامعة التي عاشت في الأندلس». ومع ذلك،

أعرب عن أسفه لعدم تمكن ابن باجة من نقل كل كنوز علمه إلينا، مشيرًا إلى أن معظم مؤلفاته ظلت غير مكتملة، وأن ما وصلنا منها هو مختصرات ورسائل صغيرة كُتبت على عجل. وأقرّ ابن باجة نفسه بهذا النقص، موضحًا أنه لم يتوفر له الوقت الكافي لإعادة صياغة بعض أعماله الفلسفية المهمة. وقد مهّد ابن باجة الطريق لفلاسفة عظماء مثل ابن رشد وابن ميمون بحق من خلال اقتراحه نهجًا فلسفيًا وفكرًا حرًا في الاقتراب من الله، وصولاً إلى تأثيره على فلاسفة يهود عرب وأوروبيين مثل الألماني ألبرت الكبير (٥٩٩-٦٥٢هـ / ١٢٠٣-١٢٥٤م) والفرنسي جان دي جاندوي (٦٧٩-٧٢٨هـ / ١٢٨٠-١٣٢٨م). في عام ٥٣٣هـ / ١١٣٨م، وبعد تجاوزه الخمسين بقليل، قُتل ابن باجة في مدينة فاس في ظروف غامضة، وتُرّجح العديد من المصادر أنه قُتل بالسم، لكن الحقيقة وراء وفاته ما زالت لغزًا محيرًا.

ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ / ١١٢٦-١١٩٨م)

قرطبة، ٢ ربيع الأول ٥٩٥هـ / ١٨ مارس ١١٩٩م.

قبل ذلك بثلاثة أسابيع، عبر الموكب الجنائزي أسوار مراكش. شدّ النعش على الجناح الأيمن من الحصان، بينما وُضعت حفنات من المخطوطات على الجناح الأيسر للموازنة بين الجهتين. قاد الموكب فارسان بصمت، متجهين نحو الشمال عند حافة الصحراء. واصلوا الرحلة عبر البحر الأبيض المتوسط عبورًا لمضيق جبل طارق وصولاً إلى الأندلس ومدينة قرطبة. هناك، كانت الشمس تطفو بهدوء فوق نهر «الوادي الكبير» (غوادالكيفير) عندما دخل الموكب المدينة. اجتاز الموكب الحي اليهودي المتشعب، مارًا بالمنازل ذات الأسوار الحديدية المشغولة، والحمامات العامة، والخانات، وصولاً المحطة الأخيرة إلى في مقبرة البرج خارج المدينة.

كان القبر مُعدًّا مسبقًا، وحفرته السوداء مفتوحة وجاهزة لاستقبال الميت. تم فك التابوت بعناية، وفتح الغطاء ببطء. رُفعت الجثة الملفوفة في كفنها ووُضعت بحذر في القبر. حاول أحدهم أن يقلبها على جانبها الأيمن، في اتجاه القبلة، لكنهم قرروا العدول عن ذلك نظرًا إلى حالة التحلل المتطورة. كان هذه المحاولة الثانية لدفن الجثمان، إذ سبق دفنه قبل ثلاثة أشهر في مراکش.

قد يظن البعض أن نقل الجثمان كان تعبيرًا عن التكریم والاحترام، واعتراقًا بقيمة المتوفى من خلال إعادته إلى موطنه الأصلي. لكن هذا الظن يقلل من شأن الكراهية العميقة التي كان يكنها له أعداؤه، الذين كانوا كُثرًا. لا، لم يكن الأمر تکریمًا؛ بل كان طردًا. ثلاثة أشخاص فقط حضروا مراسم الدفن. فقيه، ناسخ، ومفكر شهير هو ابن عربي. كان اللقاء الأول لابن عربي مع الفقيد قبل حوالي عشرين عامًا، وقد بقي هذا اللقاء محفورًا في ذاكرته. ورغم أن الرجلين لم يلتقيا مرة أخرى وكانا يختلفان في كثير من الأمور، إلا أن ابن عربي كان يرى أن غيابه عن هذا المشهد اليوم سيكون جحودًا له.

علّق ابن عربي بحزن: «ها هو المعلم وها هي أعماله»، وصحّح الناسخ قائلاً: ربما كان بإمكان الناسخ أن يضيف: «قطرات من الحبر التي ستطوف العالم، وتثير العواصف في قلوب المسلمين وحتى غير المسلمين». لكن كيف له أن يعلم؟ كيف كان يمكنه أن يتخيل أن الرجل المؤمن الذي دُفن للمرة الثانية سيصبح في يوم ما رمزًا لأفكار لا تتصل بالإيمان؟

بالطبع، ما نتحدث عنه هنا ليس إلا محض خيال، لكنه يمنحنا نافذة لفهم الشخصية الهائلة التي كان عليها ابن رشد.

في العالم اللاتيني، عُرف ابن رشد بلقب «المُفسر». أما بالنسبة للعرب، فهو ببساطة ابن رشد.

«لا، ليست كل أعماله. لا دابة قادرة على حملها، لا واحدة ولا مائة. ما تراه هنا مجرد قطرات قليلة من الحبر».

ولد ابن رشد في قرطبة عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦م، تلك المدينة التي كانت تُعد مركزًا للتعليم والثقافة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. كانت قرطبة تضم ما لا يقل عن سبعين مكتبة، بينما كانت الكتب اللاتينية محفوظة في الأديرة للاستخدام الحصري للرهبان. وقد ترددت بعض الأقاويل عن علاقة صداقة أو تلمذة جمعت موسى بن ميمون، المولود عام ٥٣٢هـ / ١١٣٨م، بابن رشد. لكن الحقيقة أن الظروف التاريخية والسياسية لم تكن لتسمح بتلك العلاقة. عندما اجتاحت الموحدون قرطبة في عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، اضطرت أسرة موسى بن ميمون إلى الفرار من المدينة هربًا من اضطهاد السلطة الحاكمة الجديدة. في تلك الفترة كان ابن ميمون لا يزال طفلًا في العاشرة من عمره، بينما كان ابن رشد شابًا في الثانية والعشرين. بعد ترك قرطبة، تنقل موسى بن ميمون مع أسرته في أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية لمدة عشر سنوات، قبل أن يتوجهوا إلى المنفى عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م في مدينة فاس بالمغرب. نتيجة لهذه الأحداث، لم يحدث أن التقى الرجلان قط، رغم كل ما ذُكر عن علاقتهما المزعومة.

أشيع أيضًا أن ابن سينا توفي في قرطبة نتيجة لكراهية ابن رشد له! وقد نشأت هذه الإشاعة من تكرار اعتراض الفيلسوف القرطبي على بعض النظريات التي دافع عنها الطبيب الفارسي. لكن هذه الاتهامات لا أساس لها من الصحة، إذ أن ابن سينا قد توفي في همدان عام ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م، أي قبل ولادة ابن رشد بأكثر من قرن. من جهة أخرى، كان

ابن رشد قد تعلم الفلسفة على يد الطبيب والفيلسوف ابن باجه (أفيمبيس). إلا أن هذه العلاقة أيضًا غير مؤكدة، لأن ابن باجه توفي مسمومًا في فاس عام ٥٣٣هـ / ١١٣٩م، عندما كان ابن رشد لا يزال في الثانية عشرة من عمره. أما عن عائلة ابن رشد، فقد كان والده قاضيًا بارزًا، بينما اشتهر جده بمؤلفاته البارزة في الفقه الإسلامي. وقد تلقى ابن رشد تعليمه الأول على يد والده، الذي علّمه الفقه ووجهه في سن الخامسة عشرة إلى دراسة القرآن الكريم والأحاديث النبوية. وعن ولعه بالعلم والدراسة، صرح ابن رشد قائلاً: «لم أقض طوال حياتي كلها إلا ليلتين فقط دون دراسة: ليلة زفافي وليلة وفاة والدي. ولو أردت أن أحصي عدد الصفحات التي سوّدتها منذ سن العشرين، لما كنت بعيدًا عن عشرة آلاف صفحة»^(١).

أكمل ابن رشد تعليمه على يد نخبة من أبرز علماء عصره، ومنهم الطبيب والفيلسوف أبو بكر ابن طفيل والطبيب الشهير أبو مروان ابن زهر (أفنزوار)، وهو ما أتاح له اكتساب معرفة موسوعية شملت الفقه وعلم الكلام والفلسفة والطب والفيزياء والفلك والرياضيات، وجعله شخصية استثنائية في عصره.

في عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، أطاح الموحدون بالمرابطين من قرطبة، وقد أثار وصول هؤلاء الحُكام الجدد مخاوف البعض نظرًا لحزمهم في تطبيق أحكام الشريعة، إذ انتقدوا مظاهر الترف والتساهل الأخلاقي، ودمروا آلات الموسيقى وقوارير الخمر حيثما وجدوها. كانت هدفهم على تخلية الإسلام من البدع وإلغاء الممارسات المحظورة. ومع ذلك، شهد عصرهم نهضة فكرية غير مسبوقة أسهمت في إثراء التراث

(١) هذا الرقم، الذي يبدو مبالغًا فيه، تم تأكيده لاحقًا في دليل شهير للسيرة الذاتية كتبه ابن الأبار، دبلوماسي ومؤرخ إسبانيا في القرون الوسطى. ١١٩٩-١٢٦٠

الإنساني. وفي عهد الموحدين أيضًا، بلغت إشبيلية ذروة مجدها، وأصبحت أعظم مدن إسبانيا، وشُيّدت فيها معالم بارزة مثل البرج الذهبي والجامع الكبير الذي لا تزال مئذنته الشهيرة «خيرالدا» قائمة حتى اليوم. كما شهد عهد الخليفة الموحي أبو يعقوب يوسف (٥٨٠هـ - ٥٥٨هـ / ١١٦٣-١١٨٤م) ازدهارًا علميًا وفكريًا. وكان هذا الخليفة هو الذي عيّن ابن رشد قاضيًا على إشبيلية عام ٥٦٥هـ / ١١٦٩م. ثم تولى منصب القاضي الكبير لقرطبة في تاريخ غير معروف، أحد أهم المناصب الحكومية الذي يعكس مكانته الرفيعة في الدولة. ورغم اشتغاره كفقيه وفيلسوف، فإن ابن رشد كان أيضًا من أبرز أطباء عصره، على الرغم أن أعماله الطبية لم تحظَ بالاهتمام الكافي مقارنة بإنجازاته الفلسفية. ويظهر هذا جليًا في مصير أطروحته الطبية الرئيسية «كتاب الكليات في الطب»، التي ألفها بين عامي ٥٥٧-٥٦٥هـ / ١١٦٢-١١٦٩م. لم يُنشر هذا الكتاب إلا عام ١٩٣٩م، في طبعة مصورة عن المخطوطة المحفوظة في دير ساكرومونت في مدينة غرناطة. وعلى الرغم من أن «كتاب الكليات» لم يرقَ إلى مستوى كتاب «القانون» لابن سينا من حيث الشهرة، فإنه يمثل أساسًا نظريًا مهمًا للطب، حيث جمع فيه ابن رشد معارف عصره الطبية بطريقة شاملة. وربما يعود ضعف الاهتمام به مقارنة بـ «القانون» إلى الجدل الذي أثارته فلسفة ابن رشد، التي ألهمت مفكري العالم الإسلامي والمسيحي وأثارت نقاشات واسعة في العصور الوسطى.

متى اكتشف ابن رشد العمل الفكري الذي بدّل مسار حياته: كتاب «دي أنيما» أو عن الروح لأرسطو^(١)؟ (يُعرف أيضًا بالعربية باسم كتاب

(١) أحد أول الأعمال حول علم النفس ونظرية المعرفة «ما هي الروح؟ هل هي خالدة؟ ما علاقاتها بالجسد؟» يطرح أرسطو بأسلوب نقدي نظريات سلفه، من المدارس الاستبدادية إلى أفلاطون، ثم يقدم مفاهيمه الخاصة.

النفس: وهو حجر الزاوية في دراسة الفلسفة النفسية عند أرسطو، حيث يتناول موضوعات تتعلق بطبيعة النفس، وظائفها، وعلاقتها بالجسد بالطبع، لم يكن أرسطو مجهولاً بالنسبة لابن رشد، كما لم يكن مجهولاً لدى غيره من الفلاسفة العرب. لكن الأمر المؤكد أن ابن رشد غاص في هذا المؤلف، وأعجب به إعجاباً شديداً. لقد تذوق كل كلمة فيه، ووعى عظمتها، حتى إنه كتب: «سبحان من ميّز هذا الرجل (أرسطو) بالكمال وجعله منفرداً على قِمة التفوق الإنساني، تلك المكانة التي لم يصل إليها أي رجل في أي زمان؛ فهو من أشار إليه سبحانه بقوله الحكيم في القرآن الكريم: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ» - (سورة البقرة، الآية ٢٦٩).

هذا الشناء الاستثنائي سرعان ما أصبح مادة للهجوم على فيلسوف قرطبة، حيث اتهمه خصومه بأن حبه لأرسطو وصل إلى حد التماهي والعبودية الفكرية. ومن بين المواجهات الفكرية التي شكّلت مرحلة فارقة في حياة ابن رشد، كانت تلك التي دارت بينه وبين الفيلسوف الفارسي أبو حامد الغزالي (٥٠٥-٥٥٠هـ / ١٠٥٨-١١١١م). ورغم أن هذه المواجهة كانت افتراضية ولم تحدث على أرض الواقع، إذ أن الغزالي توفي قبل ولادة ابن رشد بعقود، إلا أن مؤلفاتهما شكّلت ساحةً لمعركة فكرية حادة.

شعر الغزالي بالإحباط لفشله في الوصول إلى حقيقة فلسفية نهائية، فاختر التصوف واتخذ موقفاً حاداً من الفلاسفة. في كتابه «تهافت الفلاسفة»، عبّر عن ازدرائه الشديد لهم، خاصة أتباع الفلسفة الأرسطية كابن سينا وابن رشد. ردّ ابن رشد على هذا الكتاب بعمله «تهافت التهافت»، منتقداً أفكار الغزالي حول خلق العالم. يرى الغزالي أن الإرادة الإلهية الأزلية هي التي قضت بخلق العالم في لحظة محددة، وأن الوجود لم يكن مراداً قبل تلك اللحظة. اعتبر ابن رشد هذا الرأي غير منطقي، متسائلاً: إذا كان الله كاملاً وأزلياً، كيف يمكن أن يُفكر في

الخلق في لحظة دون أخرى؟ بالنسبة لابن رشد، فالقوانين البشرية لا يمكن تطبيقها على الله عز وجل، والخلق والزمن متصلان بالله في علاقة أزلية، ليس لهما بداية أو نهاية، بل هما تعبير عن وجود الله نفسه. ولنا نترك للقارئ أن يتوقع وقع العواقب المترتبة على هذه الأفكار بالنسبة للمسلمين وأيضًا أتباع الديانات الأخرى المسيحية واليهودية ممن يقرأون الكتب السماوية دون فهم اجتهادات التفسير! وهكذا واجه الغزالي معضلة التوفيق بين الفلسفة والدين، وحسمها بقوله: «الفلسفة صائبة بقدر ما تتفق مع مبادئ الإسلام، وخاطئة حينما تتعارض مع هذه المبادئ». كما رفض بشكل قاطع أي محاولة لتفسير القرآن الكريم ترتبط بالفلسفة. على النقيض من ذلك، وقف ابن رشد في معارضة صريحة لهذه الرؤية. فقد كان يرى أن المجتمع الإسلامي يحتاج إلى العلوم الدينية مثلما يحتاج إلى الفلسفة، مؤكدًا أنه لا تناقض بين الدين والفلسفة. وفي كتابه الشهير «فصل المقال» الذي وجهه لمن رأوا أن محاولته التوفيق بين الفلسفة والدين محض كفر؛ أوضح ابن رشد أن الحقيقة الدينية والفلسفية لا تتعارضان، بل تتكاملان وتؤكد كل منهما الأخرى. وكتب: «لا يمكن منع الاجتهاد الفلسفي بحجة أنه يخطئ أحيانًا، مثلما لا يمكن منع العطشان من الشرب لمجرد أن هناك من غرق في الماء! فالموت غرقًا أثر عارض، أما الموت عطشًا فهو حتمي».

وعلى العكس من الغزالي، الذي يرى أنه لا وجود لقانون للطبيعة وأن كل شيء خاضع لإرادة الله المطلقة؛ اعتبر ابن رشد أن هذا المنظور يثير تساؤلات جوهرية. وتساءل: إذا لم تكن هناك إرادة حرة وكل شيء مكتوب مسبقًا، فما الهدف من الحياة؟ واستشهد بأرسطو قائلاً: «إن حركات الطبيعة تحدث بفعل الصدفة، وليست بأي حال من الأحوال نتيجة لعمل كائن كلي القدرة يحكم ويأمر». وكان ابن رشد مقتنعًا، مثل أرسطو، بأن العقل الأعلى الذي يسبح في الكون لا يتحكم في مصائر

البشر. لم تكن تلك الأفكار لتُقبل بسهولة، بل أثارت غضبًا واسعًا، لا سيما عندما أضاف ابن رشد رأيًا أكثر جرأة قائلًا: «يجب ألا نُعلم النخبة والعامّة بالطريقة نفسها. هناك الشعب، وهناك النخبة. لا تخاطب أحدهما بالطريقة التي تخاطب بها الآخر عند الحديث عن الدين».

لا يُعرف بدقة متى كتب ابن رشد كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، لكنه ربما انتهى من تأليفه في عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢م، وهو نفس العام الذي قدّم فيه ابن طفيل ابن رشد للأمير أبو يعقوب يوسف (٥٨٠-٥٥٨هـ / ١١٦٣-١١٨٤م)، وكان هذا اللقاء محطًا لاهتمام كبير بالنسبة للفيلسوف. فقد شعر ابن رشد بمزيج من الإطراء والخوف في آن واحد. فالسلطان، كأغلب حكام الموحدين، كان معروفًا بتشدده وقلة انفتاحه على الفلاسفة. لكن، وعلى عكس توقعاته، أظهر السلطان انفتاحًا مدهشًا واقترح مشروعًا سيجعل ابن رشد مشهورًا عالميًا: التعليق على كتاب «دي أنيما» (عن الروح) لأرسطو، الذي يطرح سؤالًا مركزيًا: «هل الروح خالدة؟».

يقدم أرسطو حجة للبدء في الإجابة على هذا السؤال من خلال القول: «إذا كانت للروح وظيفة خاصة بها، مستقلة عن الجسد، فهي خالدة. إذا لم يكن الأمر كذلك، فإن الروح لا يمكنها البقاء مستقلة عن الجسد». وهو موضوع معقد وشائك للغاية. في نفس العام، أصبح ابن رشد، خلفًا لابن طفيل، الطبيب الشخصي للسلطان، وظل يلعب هذا الدور أيضًا مع خليفته يعقوب المنصور.

حوالي عام ٥٨٩هـ / ١١٩٥م، وأمام هجوم دعاة التزمّت الديني الضيق؛ اضطر المنصور إلى التضحية بابن رشد، الذي كان هدفًا لهذا الهجوم الانتقامي، أمرًا بنفيه إلى لوسينا، وهي بلدة أندلسية صغيرة حيث كانت الجالية اليهودية تشكل الأغلبية. ومنذ ذلك الحين، أحرقت العديد

من أعماله علناً. بعد نفيه الذي استمر حتى عام ٥٩٠هـ / ١١٩٧م، تم استدعاؤه إلى المغرب حيث حصل على عفو من الخليفة المنصور دون أن يعاد إلى وظائفه الرسمية. وتوفي ابن رشد سنة ٥٩١هـ / ١١٩٨م ودفن في مراكش قبل أن تُنقل رفاته إلى قرطبة مسقط رأسه.

اعتُبرت المبادئ التي أعلنها ابن رشد خطيرة، بل وُصمت بالهرطقة من قبل رجال الدين الإسلامي كما أدانتها الكنيسة المسيحية، خاصة من قبل القديس توماس الأكويني الذي لامه على تشويه تعاليم الإيمان. بعد قراءة شرحه لرسالة الروح، حمل قلمه ليكتب كتاباً تحريضياً بعنوان «ضد ابن رشد». وفي وقت لاحق، حظرت جامعة السوربون أي ذكر لما كان بدأ أن يُعرف بـ «الابن رشدية»، وفي إنجلترا، خلال خطاب ألقاه في جامعة أكسفورد، طرح روبرت كيلواردبي، رئيس أساقفة كانتربري، ستة عشر إدانة لمبادئ تتعلق بالمنطق والفلسفة. والأمر اللافت للانتباه أن معظم تلك المبادئ التي تدينها تعاليم القديس توما الأكويني تعتبر قريبة جداً من تعاليم ابن رشد! وفي القرن التاسع عشر، تولى الكاتب إرنست رينان مهمة تدمير فكر ابن رشد بشكل نهائي^(١). وهذا يدل على التأثير الكبير للفيلسوف العربي في الغرب.

وكما يشرح الفيلسوف الفرنسي جان باتيست برينيه: «إِغْتَبَر ابن رشد أعظم الخونة، الشخص الذي جَهَرَ بأطروحات غير مقبولة على الإطلاق، والذي بدا أيضاً منافقاً يجب إدانته بشكل مطلق». وعندما نتأمل ما قيل عن ابن رشد، لا تكاد تجد من يعادله في القذف والازدراء والتشهير، سوى سبينوزا وهو فيلسوفاً هولندياً ويُعتبر أحد أهم الفلاسفة في العصر الحديث. فما من فيلسوف آخر تعرض لذات القدر من سوء

[ابن رشد والابن Ernest Renan, *Averroès et l'averroïsme, essai historique* (1) Auguste Durand, 1882. رشدية، أطروحة تاريخية]

المعاملة والتمييز واللعنة. في تلك الفترة لم يذكر التاريخ ابن رشد سوى بألقاب ونعوت سيئة مثل الملعون أو المجنون أو العايب وصاحب الفكر الجامح وغير المقبول على الإطلاق، بل وسبباً في تدمير إنسانية الإنسان! دانتي نفسه لم يرحمه، حيث صورته في «الكوميديا الإلهية» قابلاً في البرزخ بين الفلاسفة والعلماء الآخرين.

الفارابي (بين ٢٥٩ و ٢٦٥هـ - ٣٣٩هـ / ٨٧٢ و ٨٧٨ - ٩٥٠م)

هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلاق المعروف بالفارابي، وُلِدَ في واسج، وهي مدينة تقع في إقليم فراب فيما وراء النهر، وتُعرف منطقة «ما وراء النهر» بأنها الاسم التاريخي لمنطقة في آسيا الوسطى تقع شمال شرق نهر جيحون (أمو داريا). ينتمي الفارابي إلى أصول تركية، غير أن المؤرخ ابن أبي أصيبعة، الذي يُعد مصدراً موثقاً في هذا السياق، أشار إلى أن أصول الفارابي تعود إلى بلاد فارس. لا تُحدد المصادر التاريخية بدقة الفترة التي غادر فيها الفارابي آسيا الوسطى ليستقر في بغداد، حيث تتلمذ على يد عالمين من أعلام النساطرة: الأول هو يوحنا بن حيلان (ت. بعد ٣٧٧هـ / ٩٨٧م)، الذي درّسه المنطق، والثاني هو أبو بشر متى بن يونس (ت. ٣٢٨هـ / ٩٤٠م)، الذي علّمه الفلسفة. وقد اشتهر ابن يونس بترجمته لعدد من مؤلفات أرسطو وغيره من الفلاسفة اليونانيين، فضلاً عن تأسيسه مدرسة فلسفية أرسطية في بغداد. كما درس الفارابي النحو على يد العالم اللغوي أبو بكر بن عبد الملك السراج (ت. ٣٣١هـ / ٩٤٢م). وبعد انتهاء دراسته، أصبح الفارابي يتمتع بمعرفة فلسفية واسعة، مما أهله لأن يُلقب بـ«المعلم الثاني»، في إشارة إلى أرسطو الذي كان يُعرف بـ«المعلم الأول». يُعتبر الفارابي أول فيلسوف مسلم يُؤلف في مجال الفلسفة السياسية، سواء في شكل شروح أو رسائل مستوحاة من أفكار أفلاطون.

وفي عام ٣٣١هـ/ ٩٤٢م، وأثناء تصاعد الاضطرابات التي أشعلها الحنابلة^(١)، قرر الفارابي إلى مغادرة واتجه إلى دمشق بسبب رغبته في البحث عن حياة أكثر استقرارًا وربما لأسباب تتعلق برعاية سيف الدولة الحمداني للعلماء أمثاله. ورغم ذلك، فإن معظم مؤلفاته التي خلدت اسمه في تاريخ الفلسفة الإسلامية والعالمية كُتبت أثناء إقامته في بغداد.

عندما وصل الفارابي إلى سوريا، وجد في بلاط الأمير سيف الدولة الحمداني (حكم ٣٣٣-٣٥٦هـ/ ٩٤٤-٩٦٧م) ملاذًا آمنًا وداعمًا له. فقد عُرف سيف الدولة، مؤسس إمارة حلب، بحبه للعلم والأدب، وحوّل بلاطه إلى مركز ثقافي مرموق جمع أبرز أعلام ذلك العصر، مثل المتنبّي، وأبي الفرج الأصفهاني، وأبي فراس الحمداني. استقبل الأمير الفارابي بحفاوة بالغة.

لا شك أن الفارابي يُعد نقطة تحول بارزة في تاريخ الفكر الفلسفي الإسلامي، حيث يُعتبر المؤسس الحقيقي الأول لنظرية المعرفة^(٢) في إطار الفلسفة الإسلامية. وقد ساهمت الظروف الفكرية والسياسية والاجتماعية التي عاصرها في تشكيل منهجه الفلسفي. فقد عاش في فترة تاريخية شهدت اضطرابات كبيرة، حيث كانت الخلافة الإسلامية المركزية قد تفتت إلى دويلات وإمارات مستقلة في المشرق والمغرب، مما أدى إلى تعدد المذاهب والمدارس الفكرية التي نشأت في ذلك

(١) المذهب الحنبلي هو واحد من المذاهب الأربعة في الفقه السني، وقد أسسه الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ/ ٧٨٠-٨٥٥م). يتميز هذا المذهب بالاعتماد الكبير على النصوص القرآنية والحديث النبوي، ويقلل من اللجوء إلى الرأي والقياس مقارنة بالمذاهب الأخرى.

(٢) إن الإبستمولوجيا (وهو مصطلح لم يستخدم إلا في القرن العشرين) هي منهج تاريخي: معرفة العلوم عند وجودها، ودحض الأخطاء العلمية السابقة وتملك ناصيتها بانتهاج مقاربات جديدة.

العصر. هذا التعدد قوض الوحدة الفكرية والسياسية للأمة الإسلامية، مما جعل الفارابي يعيش في بيئة مليئة بالتحديات، لكنها أيضًا غنية بالإمكانيات الفكرية التي أثرت في فلسفته وأعماله.

ظل الفارابي طوال حياته ساعيًا بشغف لفهم الكون والإنسانية، سعيًا لتطوير رؤية فكرية شاملة للعالم والمجتمع. ولهذا الغرض، انكب على دراسة الفلسفة القديمة، وخاصة فلسفتي أفلاطون وأرسطو، حيث استوعب عناصر الفلسفة الأفلاطونية وسعى إلى دمجها مع معطيات الحضارة العربية الإسلامية القائمة على القرآن الكريم كمصدر رئيسي. رأى الفارابي في نظام المدينة ووحدتها انعكاسًا لنظام الكون وانسجامه. وكان يعتبر الفلسفة والدين وجهين لحقيقة واحدة، حيث تشرح الفلسفة الدين وتقدم البراهين العقلية التي تدعمه. بالنسبة له، لم تكن الفلسفة في حالة تعارض أو تناقض مع الدين، بل مكمل ومفسر له. هذا الفهم سيجد صداه لاحقًا لدى ابن رشد بعد قرن من الزمان.

تمثل الشاغل الرئيسي للفارابي في إعادة فهم مبادئ السياسة وقواعدها، حيث جعل علم السياسة محور فلسفته، مستندًا إلى نظام القواعد التي تحكم الطبيعة والقرآن الكريم. كان يؤمن أن الهدف الأسمى للمعرفة هو معرفة الله وصفاته، وهي معرفة اعتقد أنها تؤثر بعمق على السلوك الأخلاقي للإنسان. وبناءً على هذا النظام، يمكن للإنسان أن يصل إلى الحكمة، التي اعتبرها الفارابي أعلى درجات الإنجاز الفكري. غالبًا ما عقد الفارابي مقارنات بين نظام المدينة ووحدتها ونظام الكون وانسجامه. كما تبنى رؤية فريدة للحياة بعد الموت، حيث صنف البشر إلى ثلاث فئات: أولئك الذين بلغوا ذروة الكمال العقلي، وأصحاب المستوى الروحي المبتدئ، والجهلاء. واعتقد أن الفئتين الأوليين فقط هما من يمكنهما الوصول إلى النعيم. لهذا السبب، كان الفارابي مناصرًا قويًا للتعليم، على الرغم من أنه لم يخصص مؤلفات مستقلة حول هذا

الموضوع. ومع ذلك، نجد في كتاباته إشارات عن الطريق إلى السعادة، والتي اعتبرها غاية لا يمكن تحقيقها إلا داخل المجتمع. فبالنسبة له، إذا عاش البشر خارج المجتمع، فإنهم سيكونون في حالة أشبه بحياة البرية. ومن خلال التربية والتعليم يمكن بناء «المجتمع المثالي»، وهو المجتمع الذي تتعاون عناصره كافة لتحقيق السعادة المشتركة بين أفرادها⁽¹⁾.

لكن الفارابي يتجاوز هذه الأفكار إلى ما هو أعمق، حيث يتطرق إلى دور الحكام ومسؤولياتهم، مؤكداً أن «الجهل بين الملوك أكثر خطراً من الجهل بين عامة الناس». فبالنسبة له، كما يحتاج الجسم إلى الغذاء والسفينة إلى ربان ماهر، يحتاج المجتمع إلى قائد حكيم يطبق سياسات عادلة، يدير شؤون الناس بحكمة، ويعمل على تحسين أوضاعهم. ولا ينبغي أن يقتصر دور الحاكم على مجرد تنظيم المدن وإدارتها، بل يجب أن يحرص على تشجيع المواطنين على التعاون لتحقيق الخير ومواجهة الشر حتى يكون المجتمع في مأمن من الفشل والانحدار. ويضيف أن هذا القائد يجب أن يكون شخصية متفوقة، لا تخضع بطبيعتها أو بتربيتها لأي سلطة أو نفوذ خارجي، فالرئيس كما يسميه الفارابي، يجب أن يكون نموذجاً للاستقلالية والحكمة، قادراً على قيادة المجتمع بفطنة وإخلاص، دون أن يتأثر بضغوط أو مصالح شخصية.

ومن بين الخصائص البارزة التي يجب أن يتمتع بها الزعيم السياسي، وفقاً لرؤية الفارابي، هي «مهارة التشاور»، وهي القدرة الفكرية التي تمكنه من استنباط ما هو أنفع وأعدل لتحقيق خير الآخرين. هذه الملكة

[مبادئ آراء أهل المدينة *Al-Farabi, Mabadi' ara' ahl al-madina al-fadila* Ed., trans., and commentary by Richard Walzer. Clarendon Press; Oxford University Press, Oxford [Oxfordshire], New York, 1985.]

تعكس قدرة القائد على التفكير العميق واتخاذ القرارات الحكيمة التي تخدم المصلحة العامة. ويحدد الفارابي مجموعة من الصفات التي يجب أن يتحلى بها القائد المثالي، وقد اخترنا منها أربع صفات رئيسية:

١ - القدرة على الإقناع والتخيل: يجب أن يكون القائد قادرًا على إقناع الآخرين بفكره ورؤيته، فضلاً عن امتلاكه خيالاً واسعاً.

٢ - ذاكرة حادة ومتفاعلة.

٣ - القدرة على نقل الرؤية بدقة: يجب أن يكون القائد قادرًا على توصيل أفكاره ورؤيته بوضوح إلى الآخرين، مع امتلاك حب عميق للمعرفة.

٤ - حب الحق والعدل: يجب أن يكون القائد المثالي محباً للحق والعدل، ورافضاً للكرهية والنفاق والخبث والخداع.

ويشير الفارابي إلى أن هذه الصفات نادرًا ما تجتمع في شخص واحد. ولكن إذا توفرت في القائد خمس أو ست من هذه الصفات، فإنه سيكون «حاكمًا صالحًا بما فيه الكفاية». أما إذا لم تتوفر هذه الصفات بشكل كافٍ، فإن الفارابي يفضل السلطة الوراثية، حيث يأمل أن يتم تأهيل الوريث ليكون قائدًا قادرًا على تحمل المسؤولية وقيادة المجتمع بحكمة.

كان الفارابي أحيانًا يقارن بين نوعين من أنظمة الحكم: التيموقراطية Timocracy والاستبداد. يشير الشكل الأول، التيموقراطية، إلى نظام سياسي يسعى فيه الحكام إلى تحقيق أعلى المراتب والمجد والشرف وتكون فيه السلطة بيد من يمتلكون الممتلكات أو الشرف العسكري أو الجدارة. لكن بالنسبة للفارابي (كما عند أفلاطون)، تمثل التيموقراطية المرحلة الأولى في مسار انحطاط النظام السياسي. في هذا النظام، تصبح

قيم الحرب، والمجد، والتقدير فضائل للحكام، الذين سرعان ما يدفعهم الغرور والجشع إلى التحول إلى قادة متغطرسين. ويظهر هذا التكبر جلياً في تعاملهم بازدراء مع من يرونهم أقل منهم شأنًا. مع تصاعد شهوة الكسب والثروة، تتحول التيموقراطية تدريجياً إلى حكم الطغمة الأقلية، حيث تتركز السلطة في يد قلة ممن يمتلكون الثروات. وهنا يبدأ الاستبداد. فالاستبداد، وفقاً للفارابي، يتمثل في طغيان مزدوج: طغيان داخلي يتمثل في السيطرة المطلقة للطاغية وأتباعه على مواطني الدولة، وطغيان خارجي يهدف إلى إخضاع دول وشعوب أخرى. في أواخر حياته، كان الفارابي يعيش حياة هادئة بين حدائق قصر الأمير سيف الدولة الحمداني. قيل إنه كان يقضي ليلاته يقرأ على ضوء سراج في تلك الحدائق الساحرة. توفي الفارابي في دمشق عام ٣٣٩هـ / ٩٥٠م، تاركاً وراءه إرثاً فكرياً وفلسفياً لا يزال حياً حتى يومنا هذا.

الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ / ٨٣٩ - ٩٢٣م)

هو الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري أحد أبرز علماء الإسلام في التاريخ الإسلامي، ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن مؤلفات الطبري، رغم ضخامتها وتنوعها، لا تقدم سوى معلومات محدودة عن سيرته الذاتية. فمعظم ما نعرفه عنه اليوم جاء من خلال مقتطفات متفرقة كتبها مؤلفون لاحقون. لا نعرف على وجه اليقين تاريخ ميلاد الطبري في بلدة أمل، الواقعة جنوب بحر قزوين (في إقليم طبرستان). ومع ذلك، فإن المجلد الأول من كتابه الشهير «تاريخ الرسل والملوك» يشير إلى أن ولادته كانت ما بين ٢٢٤ و ٢٢٥هـ / ٨٣٨-٨٣٩م. وقد أكد هذا التاريخ الباحث فرانز روزنتال في دراسته عن تاريخ الطبري. ومن الواضح أن الطبري كان يتمتع بذاكرة استثنائية وقدرات فكرية فذة منذ صغره. ففي

سن السابعة، كان قد حفظ القرآن الكريم كاملاً عن ظهر قلب، وبحلول سن التاسعة، بدأ بدراسة الحديث الشريف^(١).

كان والد الطبري، الذي كان من ملاك الأراضي، ميسور الحال بما يكفي لتوفير دخل منتظم لابنه في مراحل حياته الأولى. وهذا الوضع المادي المريح أتاح للطبري الشاب أن يسافر بحرية إلى مراكز العلم الكبرى، مثل مصر وسوريا، دون أن يعاني من الهموم المادية التي كانت عادةً من نصيب الطلاب الفقراء، الذين كانوا يضطرون إلى البحث عن رعاة أو كسب عيشهم أثناء الدراسة. وقد روى الطبري قصةً عن والده، ابن جرير، الذي رأى في المنام ابنه واقفاً أمام النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وفي يده كيس مملوء بالحجارة يقذف بها أمامه. وعندما استشار والده مفسراً للأحلام، أخبره أن هذا الحلم يشير إلى أن ابنه سيكون في المستقبل ناصحاً أميناً للدين، وسيدافع عن الشريعة الإسلامية بكل قوة. وقد أخذ الوالد هذا الحلم على محمل الجد، فحرص على أن يتلقى ابنه أفضل تعليم ممكن. ويغض النظر عن صحة هذه الرواية، فإنه من الواضح أن والده كان حريصاً على تشجيع ابنه على طلب العلم منذ صغره. وقد شكلت دراسة الطبري المبكرة للقرآن الكريم والشريعة الإسلامية أساساً متيناً لشخصيته العلمية والفكرية.

يبدو أن الطبري غادر منزل عائلته وهو في الثانية عشرة من عمره، متجهاً إلى مدينة الري في طلب العلم، حيث تلقى تعليمًا فكريًا متيناً شكل الأساس لمعرفته الواسعة. وبعد خمس سنوات، أي في عام ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م، انطلق إلى بغداد، التي كانت في ذلك الوقت مركزاً علمياً وثقافياً كبيراً، يجذب طلاب العلم من جميع أنحاء العالم

[موسوعة (EI2) C. E. Bosworth, *Encyclopaedia of Islam*, Second Edition (1) Online edition، الطبعة الثانية]

الإسلامي. وكان الطبري يأمل أن يدرس على يد الإمام أحمد بن حنبل (المولود عام ١٦هـ / ٧٨٠م)، مؤسس المذهب الحنبلي، أحد المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى في الإسلام السني، إلى جانب المذاهب المالكية والحنفية والشافعية. لكنه عندما وصل إلى بغداد، علم أن ابن حنبل قد توفي قبل عام واحد، أي في عام ٢٤١هـ / ٨٥٥م. رغم ذلك، قرر الطبري البقاء في بغداد، حيث تتلمذ على يد عدد من المشايخ والعلماء البارزين. ومن بين هؤلاء المشايخ، يُذكر عبد الله بن حميد الرازي، الذي اشتهر بنقله للحديث النبوي. ومع ذلك، يصعب تحديد معظم أساتذة الطبري بدقة بسبب ندرة المعلومات المتاحة. للمهتمين بمعرفة المزيد عن أساتذة الطبري وتكوينه الفكري، وللإستزادة من التفاصيل يُنصح بالرجوع إلى كتاب البروفيسور كلود جيلو بعنوان «التكوين الفكري للطبري»^(١)، الذي يقدم دراسة مفصلة عن حياة الطبري العلمية ومصادر تعليمه.

لا شك أن الطبري قد اكتسب جزءًا كبيرًا من معارفه من خلال القراءة الفردية للأعمال المتخصصة، وتظهر هذه القدرة في حكاية مشهورة تُروى عنه، والتي تعكس أيضًا شغف العلماء الذين يرغبون في إظهار أهمية العمل الجاد في طلب العلم. ففي أحد الأيام، عندما كان الطبري في مصر، سأله أحدهم سؤالاً في موضوع العروض (علم أوزان الشعر)، وهو مجال لم يكن متعمقًا فيه في ذلك الوقت. فطلب الطبري تأجيل الإجابة إلى اليوم التالي، واستعار من صديقه كتاب النحو الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٠هـ / ٧١٨-٧٨٦م)، أحد أبرز

(1) Claude Gilliot, *Aspects de l'imaginaire islamique commun dans le Tafsir de al-Tabari* [جوانب من الخيال الإسلامي المشترك في تفسير الطبري] Journal Asiatique, vol. 276, 1988.

علماء العَرُوض. وقال الطبري لاحقًا: «قضيت الليل في دراسته، فأصبحت أنا الذي لم أكن في المساء عالمًا بالمقاييس في علم العَرُوض، عالمًا به في الصباح!». هذه الرواية إن صحت تعكس ليس فقط اجتهاد الطبري؛ بل أيضًا إمكانية الحصول على معرفة عميقة من خلال القراءة والدراسة الذاتية. بعد عام من إقامته في بغداد، أي في عام ٢٤٣هـ / ٨٥٧م، غادر الطبري العاصمة العباسية وبدأ رحلة جديدة متنقلًا بين مدن العراق مثل البصرة والكوفة وواسط، بحثًا عن معلمين جدد ومصادر معرفية أوسع. وخلال هذه الرحلة، أظهر الطبري براعة في إدارة شؤونه المالية، حيث اشترى موادًا غذائية كان يخطط لبيعها لتمويل رحلته. لكن سوء الحظ حالفه عندما تعرضت القافلة التي تحمل بضاعته للهجوم، ففقد كل ما يملك وأصبح معدمًا. ومع ذلك، لم تكن هذه النهاية لرحلته. فقد قُدِّم الطبري إلى الخليفة المتوكل (٢٠٦ - ٢٤٧هـ / ٨٢٢ - ٨٦١م)، الذي عينه معلمًا لابنه أبي يحيى، أحد أبناء وزيره. وافق الطبري على هذا المنصب، لكنه رفض جميع الهدايا والمكافآت الإضافية التي عُرضت عليه، مكتفيًا بالأجر المتفق عليه. وقد أصرت أسرة الوزير في عدة مناسبات على تقديم الهدايا له، لكنه ظل متمسكًا برفضه. كما رفض أيضًا المناصب والتشريفات التي عُرضت عليه.

في يوم من الأيام، حضر الوزير الجديد ابن جعفر بن الفرات أحد دروس الطبري، فطلب الطبري من أحد طلابه أن يقرأ نصًا من النصوص. لكن الطالب، عندما علم أن الوزير حاضر، تردد ولم يجرؤ على القراءة، إذ كانت الكياسة تقتضي أن يقوم الوزير بذلك. فالتفت إليه الطبري وقال له: «إذا حان دورك فلا تشغل نفسك بدجلة أو بالفرات»، في تلاعب لفظي ذكي يشير إلى لقب الوزير «الفرات»، حيث قارن بين نهر الفرات ونهر دجلة، وهما النهران العظيمان في العراق. بعد ذلك، قام الطبري برحلته الكبرى للدراسة والبحث، بدءًا من عام ٢٥٣هـ /

٨٦٧م، حيث تنقل بين سوريا وفلسطين ومصر. وعلى الرغم من أن تفاصيل خط سيره غير معروفة بدقة، إلا أنه من المؤكد أنه أقام بالتواصل مع رؤوس السلطة الدينية في مصر، خاصة مع علماء المالكية والشافعية. وبعد انتهاء رحلته، عاد إلى بغداد حوالي عام ٢٥٦هـ / ٨٧٠م. ومن المحتمل أنه أدى فريضة الحج وذهب إلى مكة في فترة ما، لكنه لم يطل الإقامة هناك، إذ لا يبدو أن علماء الحجاز كانوا من بين أساتذته. كانت عودة الطبري إلى بغداد بمثابة نهاية لرحلته الطويلة في طلب العلم، حيث استقر بها وتفرغ للتدريس والتأليف. وكما يوضح كلود جيلو، فإن هذه المرحلة من حياة الطبري تمثل سمة مميزة لتدريب رجال الدين في العصر الذهبي للإسلام، حيث كان العلماء لا يترددون في القيام برحلات طويلة ومضنية من أجل الدراسة على يد أشهر الأساتذة في عصرهم.

إذا كان اسم الطبري قد بقي خالداً في سماء التاريخ، فإن الفضل الأكبر في ذلك يعود إلى كتابه الشهير «تاريخ الرسل والملوك»، المعروف أيضاً باسم «تاريخ الطبري». يُعد هذا العمل الضخم، المكتوب باللغة العربية، واحداً من أهم المراجع التاريخية التي تؤرخ للعالم الإسلامي خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة (من القرن الأول إلى القرن الثالث الهجري)، حيث يقدم سرداً مفصلاً للأحداث سنةً بسنة. ويُعتبر «تاريخ الأنبياء والملوك» بلا شك أهم وأشمل تأريخ كُتب عن العالم الإسلامي في تلك الحقبة. يغطي الكتاب تاريخ الأمم القديمة، بدءاً من الشعوب والأنبياء المذكورين في التوراة، مروراً بالتاريخ الأسطوري والحقيقي لبلاد فارس، وصولاً إلى مولد الإسلام وحياة النبي محمد حمد صلى الله عليه وسلم، ثم تاريخ الخلافة الإسلامية حتى عام ٣٠٢هـ / ٩١٥م. اعتمد الطبري في هذا العمل على منهجية دقيقة لجمع المعلومات، سواء كانت أحداثاً واقعية أو أساطير، مما استقى بعضها من الروايات الشفوية أو النصوص المكتوبة التي سبقته، مثل أعمال عالم

الدين نافع المدني (ت. ١٦٩هـ / ٧٨٥م). يُعتبر هذا الكتاب من أبرز الأعمال التي جمعت بين التأريخ والقصص، ويُعد مثلاً فريداً لأسلوب كتابة تأريخي لم يستمر إلا ضمن أدب السير الذاتية لاحقاً.

كان الهدف الرئيسي من «تاريخ الرسل والملوك» هذا العمل الضخم تقديم رواية شاملة ودقيقة لتطور التاريخ الإسلامي المبكر في المناطق الممتدة من مصر إلى الحدود الشرقية للخليج العربي، مما يتيح للقراء والباحثين تقييم الأحداث بشكل أكثر دقة إذا رغبوا في ذلك. يحتوي المجلد الأول على سيرة الطبري، إضافة إلى مناقشة لمنهجه العلمي ونطاق عمله وأهميته. كما يتناول هذا المجلد بعض الاعتبارات الفنية التي اعتمدها الطبري. أما المجلد التاسع والثلاثون، فهو مخصص لتراجم الأوائل من المسلمين.

إلى جانب «تاريخ الرسل والملوك»، يُعتبر كتاب «جامع البيان في تأويل القرآن»، المعروف اختصاراً باسم «تفسير الطبري»، من أشهر أعماله. نُشر هذا التفسير بين عامي ٢٨هـ / ٨٩٦م و ٢٩٠هـ / ٩٠٣م، وسرعان ما حظي بقبول واسع بين معاصريه. ويُعتبر حتى يومنا هذا أحد أهم التفاسير القرآنية حيث يتميز بمنهجية دقيقة وشاملة. يُعتبر «تاريخ الطبري» موسوعة تاريخية شاملة، حيث يجمع بين السرد التاريخي والتحليل العميق للأحداث، مما يجعله مرجعاً لا غنى عنه لفهم التاريخ الإسلامي المبكر.

يُعتقد أن الطبري لم يتزوج طوال حياته، حيث كرّس نفسه بالكامل للعلم والتأليف. توفي في عام ٣١٠هـ / ٩٢٣م عن عمر يناهز ٨٤ عاماً، ودُفن في منزله في بغداد. وقد نال إعجاب وتقدير علماء عصره، بما في ذلك الشاعر وعالم اللغة ابن دريد (ت. عام ٣٢١هـ / ٩٣٣م)، الذي أشاد بعلمه وإنجازاته.

هو محيي الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن العربي الحاتمي الطائي، المعروف باسم ابن عربي ولقبه الشيخ الأكبر. يُعد أحد أبرز المتصوفة والفلاسفة في التاريخ الإسلامي. عندما يقترب المرء من سيرة ابن العربي، لا يمكنه إلا أن يتذكر اللقاء الدرامي الذي جمع بينه وبين الفيلسوف الشهير ابن رشد، والذي يُعتقد أنه حدث حوالي عام ٦١٠هـ / ١٢١٣م. في ذلك الوقت، كان ابن العربي في الرابعة عشرة من عمره فقط، بينما كان ابن رشد في الثالثة والخمسين من عمره، وقد بلغ ذروة شهرته كفيلسوف وفقه، ومؤلف كتاب «الرسالة القاطعة» الشهير. وقد سمع ابن رشد أن ابن العربي، في سن مبكرة جدًا، وخلال فترة مرضه، رأى رؤيا غيّرت مجرى حياته، مما دفعه إلى اعتبار سنواته الأولى فترة تمهيدية لما سيصبح عليه لاحقًا، وأن هذه الرؤيا قدمت له إجابات عن الأسئلة العميقة التي يطرحها الفلاسفة على أنفسهم. عندما عرض والد ابن العربي، الذي كان صديقًا لابن رشد، أن يقدم له ابنه، وافق الفيلسوف الكبير بترحاب. ولا شك أن ابن رشد كان حريصًا على أن يرى بنفسه كيف يمكن لصبي في الرابعة عشرة من عمره، دخل في حالة من الزهد والتأمل، أن يخوض مثل هذه التجربة الروحية والفكرية العميقة.

وقد روى ابن العربي بنفسه هذا اللقاء في كتابه الفتوحات المكية:

دخلت ذات يوم دار أبي الوليد بن رشد، قاضي قرطبة، الذي أبدى رغبة شديدة في لقائي شخصيًا بعدما بلغه الكثير عني، خاصة ما كان يُروى عن المكاشفات التي منحها الله لي خلال خلوتي الروحية. فأرسلني والدي، الذي كان صديقًا مقربًا له، إلى منزله بحجة قضاء مهمة، لكنها كانت في الحقيقة لإتاحة الفرصة لابن رشد للتحدث معي.

كنت حينها فتى يافعاً لم تنبت لحيتي بعد. عندما دخلتُ، نهض ابن رشد من مقعده واستقبلني بترحاب بالغ، مغدقاً عليّ بعلامات التقدير والود، ثم قبلني. قال لي: «نعم»، فأجبتُه بدوري: «نعم». ازدادت فرحته عندما أدرك أنني فهمت مقصده. لكنني، بعدما أدركت سرَّ فرحته، أضفت: «لا». فانقبض وجهه على الفور، وتغيرت ملامحه، وبدأ عليه التردد والشك. ثم سألتني: «ما طبيعة الحل الذي وصلت إليه عن طريق الإلهام الإلهي؟ هل يشبه ما نصل إليه بالتأمل العقلي؟» فأجبتُه: «نعم ولا. فبين نعم ولا تتحرر الأرواح من مادتها، وتنقطع الأعناق عن أجسادها». عندها شحب وجه ابن رشد، ورأيتُه يرتجف، ثم تمتم قائلاً: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، إذ فهم ما كنت أشير إليه.

بعد لقائنا، استفسر أبي من ابن رشد عن رأيه الذي كونه عني، ليقارن بين ما رآه هو وما يعرفه عني بنفسه. وكما قيل لي، كان ابن رشد يحمد الله على أنه عاش ليشهد حالة كهذه. فهو، باعتباره أستاذاً عظيماً في التأمل الفلسفي، كان يؤمن بإمكانية وجود تجربة كتلك، ولكنه لم يلتقَ بأحد اختبرها فعلياً حتى ذلك الوقت. قال ابن رشد: «هذه حالة كنتُ دائماً أؤكد احتمال حدوثها، لكن دون أن أجد دليلاً ملموساً على وجودها. فسبحان الذي أحياني في زمن رأيت فيه أحد سادة هذه التجربة، أحد الذين فتح الله لهم أقفال أبوابه. سبحان من أنعم عليّ بنعمة رؤية أحدهم بعيني». ويروى أنه أراد لقاء آخر معي، ولكن إرادة الله شاءت ألا يحدث ذلك مباشرة. يقول ابن عربي: «في إحدى حالات خلوتي بنفسي، بدا لي ابن رشد وكأن بيننا ستاراً خفيفاً. رأيتُه من خلال الستار منشغلاً بتأملاته العميقة، لكنه لم يرني ولم يدرك وجودي. كنت أراه وهو منغمس في أفكاره، وحدثت نفسي قائلاً: إن كلامه لا يقوده إلى حيث أنا». تُعد هذه العبارة الأخيرة من ابن عربي ذات أهمية بالغة، فبالنسبة لابن رشد، لم يكن هناك ما يُسمى بـ«الإلهام الإلهي». كان يرى

أن الفكر العقلاني، القائم على التأمل المنطقي والمنفصل عن المؤثرات العاطفية، هو الطريق الوحيد للوصول إلى المعرفة. ومن هنا، كان من الطبيعي أن يختلف الفيلسوفان في رؤيتهما.

في ضوء التطور اللاحق للفلسفة الإسلامية، يحمل هذا الحدث رمزية عميقة. أما بقية الأحداث، فتزداد دلالتها الرمزية عند الحديث عما جرى بعد وفاة ابن رشد. إذ استُخرجت رفاتة من قبره، ونُفيت إلى قرطبة، حيث حُمِلَ التابوت الذي يحتوي على رفاتة على ظهر دابة من جهة، بينما وُضعت كتبه التي أَلَفها على الجهة الأخرى كوزنٍ موازٍ. كانت هذه الصورة محط تأمل عميق للشاب ابن عربي، الذي شهد بنفسه نقل الرفات لإعادة دفنها. وقد عبّر عن انطباعه قائلاً: «من جهة السيد، ومن جهة كتبه! آه، كم أتمنى أن أعرف إن كانت آماله قد تحققت!». لم يتكرر اللقاء بين الرجلين بعد ذلك، ومع مرور الزمن، أعرب ابن عربي عن خيبة أمله قائلاً - وفي قلبه ألم وسخط - إنه لم يتعلم شيئاً من مؤلفات ابن رشد.

وقد وُلِدَ ابن العربي في مدينة مرسية بالأندلس عام ٥٦٠هـ / ١١٦٥م، وينتمي نسبه إلى قبيلة طيء العربية الشهيرة التي يعود ذكرها إلى الأسطورة حاتم الطائي في شبه الجزيرة العربية. انتقل والده عندما بلغ الثامنة من عمره إلى إشبيلية، حيث نشأ في هذا المركز الرائد للثقافة والعلم. هناك تلقى تعليمه الأول وتعرف على العلوم الإسلامية التقليدية، ويُقال إنه عمل كاتباً لصالح عدد من الولاة في شبابه. استمر ابن عربي في إشبيلية لمدة ثلاثين عامًا، شهدت دراسته للعلوم الدينية على يد كبار شيوخ الصوفية الذين لاحظوا فيه نزعة روحية عميقة وذكاءً حاداً استثنائياً. خلال هذه الفترة، قام برحلات واسعة شملت مدن الأندلس وشمال أفريقيا، حيث التقى بشيوخ التصوف باحثاً عن المعرفة الروحية. في عام

٥٩٥هـ / ١١٩٨م، كان ابن عربي في قرطبة، حيث شهد جنازة الفيلسوف ابن رشد. وفي اليوم التالي، راوده حلم أو سماع صوت يأمره بمغادرة الأندلس والتوجه إلى الشرق الإسلامي. وهكذا بدأت رحلته الطويلة التي كان أول محطاتها البارزة مكة المكرمة عام ٥٩٨هـ / ١٢٠١م.

في مكة، تلقى إلهامًا صوفيًا لبدء تأليف كتابه الأشهر، «الفتوحات المكية»، الذي يمثل موسوعة ضخمة تضم ٥٦٠ فصلاً، تغطي علوم الإسلام الباطنية كما فهمها وعاشها ابن عربي، إضافةً إلى تفاصيل عن حياته الروحية. تأثر كثيرًا برؤيته للكعبة المشرفة، التي اعتبرها نقطة اتصال بين العالمين المرئي وغير المرئي. قضى سنتين في مكة، ملتزمًا بالطواف حول الكعبة بشكل متكرر، متأملًا وقارئًا، حيث كان يعيش فيضًا من الرؤى والأحلام الصوفية التي أثرت في مسيرته الفكرية والروحية.

في مكة أيضًا، التقى ابن عربي بفتاة فارسية تُدعى نظام، وهي ابنة الشيخ أبي شجاع بن رستم الأصفهاني الذي كان يعيش في مكة. كانت الفتاة معروفة بجمالها الباهر، وكانت كذلك تعتبر مثالاً في الكمال الروحي وحسن الخلق، فساهمت معه في تصفية حياته الروحية، بل كانت أحد دوافعه إلى الإمعان فيها، ولعبت في حياة ابن عربي دورًا شبيهًا بالدور الذي لعبته بياتريس للشاعر الإيطالي دانتي. وقد خلد ابن العربي هذا الإعجاب الشعري في ديوان قصائد الحب المعروف بـ«ترجمان الأشواق». لم يكن ابن عربي يتوقع أن يُثير هذا العمل موجة من الانتقادات اللاذعة التي بلغت حد القذف العلني، خاصة بسبب جرأة تعبيراته. ومن أشهر مقاطع «ترجمان الأشواق»، هذه الأبيات التي عكست رؤيته الصوفية الواسعة:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلانٍ وديرٍ لرهبانٍ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةٌ طائفٍ
وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنٍ
أدينُ بدينِ الحبِّ أنى توجَّهتُ
ركائبُهُ فالحبُّ ديني وإيماني.

أثارت تعابيره الجريئة غضب بعض علماء الدين، الذين رأوا في هذه الكلمات خرقاً لعقيدة التوحيد. وعلى الرغم من ذلك، رفعه بعض الصوفيين ومريديه إلى مراتب القداسة، بينما حرّمت الأصولية الإسلامية قراءة مؤلفاته.

خلال وجوده في مكة، التقى ابن عربي عدداً من الحجاج القادمين من قونية، وتابع معهم رحلة عودتهم عبر بغداد والموصل، حيث أقام عدة أشهر، حتى وصل إلى ملطية (حالياً في تركيا). وفي قونية، تعرف إلى صدر الدين القونوي^(١) (٦٠٧-٦٧٣هـ / ١٢٠٩ - ١٢٧٤م)، الذي أصبح فيما بعد أبرز تلاميذه. يُعتقد إن ابن عربي تبني القونوي، إلا أن ذلك لم يُذكر صراحة في أي من أعماله. كما يُشاع أن ابن عربي تزوج أرملة صديقه القديم مجد الدين القونوي (والد صدر الدين)، لكن هذا الادعاء يظل موضع شك، لعدم وجود أدلة قاطعة تدعمه.

من غير المعروف لماذا أو متى غادر ابن عربي الأناضول ليستقر في دمشق، حيث استقر لأول مرة في عام ٦٢٤هـ / ١٢٣٠م. هناك، عاش حياة هادئة مليئة بالقراءة والتدريس. وفي عام ٦٢٨هـ / ١٢٢٩م، كتب ابن العربي واحداً من أكثر أعماله تأثيراً في الفلسفة الصوفية الإسلامية، وهو كتاب «فصوص الحِكم» عقب حلم رآه في نومه، والذي يُعد خلاصة

(١) صدر الدين محمد بن إسحاق بن محمد بن يونس القونوي.

لفكره الصوفي المتكامل. كما واصل في دمشق العمل على «الفتوحات المكية»، حيث أكمل ونقح هذا الكتاب بدءًا من عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٣م وما بعده. تزوج ابن عربي من عدة نساء، وربما أنجب العديد من الأبناء، لكن لم يُعرف من أبنائه سوى ابن واحد وهو سعد الدين محمد الذي وُلد عام ٦٤٠هـ/ ١٢٢١م في ملطية.

في كتاب «فصوص الحِكم»، أحد أهم أعمال الفلسفة الصوفية في الإسلام، وهو الكتاب الذي يقدم خلاصة نهائية لفكره الروحي والفلسفي، يناقش ابن عربي العديد من المسائل مثل قانون القصاص. ووفقًا لرؤيته، فإن القصاص ليس مسألة قانونية محضة بل مسألة عدالة خاصة، حيث يُمنح الناس حرية التنازل عن حقهم في الانتقام. وبهذا لا يدعو ابن عربي إلى حظر مطلق لسفك الدماء، بل يؤكد على أن الشخص الذي يعفو عن الجاني ويتركه حيًا، يمنح الجاني فرصة للتشبه بالله، حيث يمكنه الوصول إلى السعادة والصفاء الروحي. الغفران، وفقًا له، هو اختيار واختبار يتحدى الإنسان بوضعه أمام مسؤوليته الأخلاقية.

كما يوضح كلود أداس^(١)، مؤلف أطروحة عن ابن عربي وسيرة ذاتية جامعة عن شخصيته وأعماله، فإن «ابن عربي لم يقرأ من الفلاسفة إلا القليل جدًا. كان بين يديه العمل الشهير للفارابي «المدينة المثالية». وبعد أن قرأ بضع صفحات منه، رفضه بسبب فقرة صدمته بشدة. وقد التقى بابن رشد، لكنه لم يظهر أي اهتمام بأعماله، وكان لديه موقف متسامح تجاه الفلاسفة بشكل عام. كان يرى أنهم قد يكونون مثيرين للاهتمام وقد يقدمون دعمًا للمجتمع، ولكنه لم يكن مهتمًا حقًا بمنهجهم». يشرح الفيلسوف ومحرر الكتاب كلود تشودكيفيتش وجهة نظر ابن عربي من أن الفلاسفة قد يعثرون على الحقيقة بالصدفة، لكنهم لا يصلون إلى اليقين

(1) "Chemins de la connaissance" [دروب المعرفة] Retranscription de l'émission de France Culture, 20 mars 1974.

المطلق، وهو ما لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال طريق التصوف. ومع ذلك، يجب الإشارة إلى أن هذا الموقف تجاه الفلسفة الصوفية (وهي النسخة العربية من الفلسفة المستوحاة من الفلسفة الهيلينية) لا يمتد بالضرورة إلى الفلاسفة السابقين مثل فلاسفة يونانيين. على سبيل المثال، يشير ابن عربي إلى أفلاطون باعتباره «أفلاطون الإلهي»، وهو تعبير شائع، لكن حقيقة موافقة أفلاطون على استخدامه عن نفسه تشير إلى أنه بالنسبة لابن عربي كان أفلاطون يشغل مكانة أعلى من فلاسفة عصره.

يقول ابن عربي ذات يوم، إثر رؤيا رآها في شبابه:

«علمت أن كلمتي ستبلغ الآفاق، أفق الغرب وأفق الشرق».

وقد أثبت التاريخ أنه كان على حق؛ فعلى مدى أكثر من سبعة قرون، استمرت أعماله تُقرأ بعناية، ويُعلق عليها بجميع اللغات المحلية المتداولة في العالم الإسلامي. لقد كان لابن عربي تأثير كبير على البعد الصوفي في الإسلام، ويشهد على قوة حضوره استمرار حنق العلماء عليه. لا شك أن ابن عربي سيظل يُعتبر أكبر عالم بالإسلام الصوفي، وكان أيضًا الأكثر غزارة في الإنتاج بين جميع الكتاب الصوفيين. وقد أحصى عالم اللغة الألماني كارل بروكلمان له ما لا يقل عن ٢٣٩ عملاً، وربما تشمل هذه الأرقام بعض الأعمال المكررة تحت عناوين مختلفة. توفي ابن عربي في بيت القاضي محيي الدين ابن الزكي في ١٦ ربيع الأول ٦٣٨هـ - ١٦ نوفمبر ١٢٤٠م، ودفن في مقبرة عائلة ابن الزكي على منحدر جبل قاسيون.

ابن ماجد (ت. ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م)

هو شهاب الدين أحمد بن مجد الدين أحمد، المُلقب بالمعلم، أو «الأستاذ»، أو «السيد» أو ابن ماجد كما كان يُطلق عليه معاصروه. وُلد

في مدينة جُلْفار وهي رأس الخيمة حالياً في دولة الإمارات العربية المتحدة، التي كانت آنذاك من أهم الموانئ التجارية في المنطقة. تاريخ ميلاده الدقيق غير معروف، ولكن يُرجح أنه وُلد في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي. ينتمي ابن ماجد إلى عائلة ثرية من أصحاب السفن، الذين اهتموا بتجارة البضائع بين شبه الجزيرة العربية وآسيا. كان والده وجده من الملاحين ذوي الخبرة الكبيرة في مجال الإبحار والتجارة. في سنوات صباه، كان والده يروي له حكايات شيقة عن الأراضي البعيدة خلف البحر الأحمر والمحيط الهندي، كما علّمه مبادئ الكتابة والقراءة وحثه على حفظ القرآن الكريم. بالإضافة إلى ذلك، كان والده يمتلك مجموعة قيمة من الكتب التي تناولت الرحلات البحرية، فحرص على أن يقرأها ابن ماجد ويستوعب محتوياتها، ليُكمل بذلك إرث العائلة البحري وينطلق في مسيرة ملاحية فريدة.

كانت أولى رحلات شهاب الدين أحمد بن ماجد في البحر الأحمر، الذي اشتهر بصعوبة الملاحة فيه بسبب شعابه المرجانية الكثيفة. وقد أثبتت هذه الرحلات الأولى مهاراته في الإبحار، مما مهد له الطريق لاستكشاف المحيط الهندي، حيث أصبح أحد أعظم الخبراء بدروبه ومسالكه^(١). شارك ابن ماجد في العديد من البعثات الاستكشافية التي قادته إلى أماكن بعيدة مثل كيلوا (تنزانيا حالياً)، ومومباسا، وزنجبار، إضافة إلى إندونيسيا والهند. وقد بلغت معرفته بالبحر الأحمر والمحيط الهندي حدًا جعل منه أسطورة بين البحارة في عصره، الذين أطلق عليه لقب «أسد البحر» أو «المعلم». ووفقًا لبعض التقاليد، كان البحارة

(١) بحلول الوقت الذي كان فيه فاسكو دا جاما على وشك الدوران حول رأس الرجاء الصالح، كان البحارة العرب بالفعل سادة المحيط الهندي.

يقرؤون الفاتحة وهي أول سورة في القرآن الكريم ثم يذكرونه قبل الإبحار طلباً للبركة والحماية^(١). يروي البحار التركي الشهير سيدي عليّ الرئيس (٩٠٦-٩٧٠هـ / ١٤٩٨-١٥٦٣م)، في كتابه «المحيط»، أنه أثناء إقامته في البصرة، حصل على نسخة من كتاب ابن ماجد الشهير «كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد»^(٢). وقد درسه بعمق، معتبراً أن الملاحة في المحيط الهندي تكاد تكون مستحيلة دون هذا العمل المرجعي القيم. لم يكن غريباً أن يمنح ابن ماجد نفسه لقب «خليفة الأسود» أو «أسد البحر الهادر»، تقديرًا لعبقريته وشجاعته في الإبحار عبر البحار والمحيطات.

شمل العمل المذكور المكتوب بأسلوب نشري ثماني رسائل، وظل مرجعاً مهماً لعدة قرون، حيث قدّم دليلاً شاملاً ومفيداً للملاحين. احتوى الكتاب على معلومات دقيقة وضرورية تتعلق بالملاحة، منها وصف للرياح الموسمية، حركات المد والجزر، الفصول، مواقع النجوم، والموانئ، إلى جانب خرائط تفصيلية للبحار الكبرى التي كانت معروفة للمؤلف، مثل بحر العرب وغيره. كما تطرّق ابن ماجد في كتابه إلى الأبراج القمرية الثمانية والعشرين^(٣)، وخصص قسمًا لتوثيق عشر

(١) التعليمات البحرية والرحالة العرب والبرتغاليين خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ترجمة وشرح غابرييل فيران، باريس ١٩٢١-١٩٢٣.

(٢) كُتب حوالي عام ١٤٩٠، وتوجد نسخة منه في مكتبة فرنسا الوطنية.

(٣) لطالما اعتبرت الثقافات القديمة السماء أداة لقياس الوقت. فكما أن حركة الشمس في دائرة البروج تشير إلى التغيرات خلال السنة، فإن حركة القمر في سماء الليل تشير إلى التغيرات خلال الشهر. ولتحقيق هذه الغاية، تم ابتكار دائرة أبراج زائفة خاصة بالقمر بناءً على موقعه بالنسبة لمجموعات النجوم البارزة. هذه هي «القصور أو الأبراج» القمرية الـ ٢٨، وملاحظات وتسجيلات القمر. وتظهر في العديد من الثقافات، لا سيما في الشرق الأوسط والهند والصين.

جزر رئيسية في المحيط الهندي، هي: الجزيرة العربية، مدغشقر، سومطرة، جاوة، تايوان، سيلان، زنجبار، البحرين، جوا، وسقطرى.

ولم يقتصر جهده على هذا فقط، بل قدّم شرحاً تفصيلياً للفترة التي تهب فيها الرياح الموسمية، بالإضافة إلى وصف دقيق للبحر الأحمر، مع تحديد المراسي، والمياه الضحلة، والشعاب المرجانية التي تشتهر بها المنطقة.

تشكلت المعرفة والخبرة التي ورثها ابن ماجد عن أسلافه من خلال ممارسة عملية استمرت قرابة أربعين عامًا، مما جعله مرجعًا بارزًا في فنون الملاحة. علاوة على ذلك، لم يكن ابن ماجد مجرد بحار ماهر؛ بل كان مثقفًا واسع الاطلاع، يمتلك معرفة عميقة بالشعر والأدب العربي القديم، ويعتبر دراسة علم الفلك والجغرافيا من المتطلبات الأساسية لأي شخص يطمح إلى التفوق في الملاحة. درس ابن ماجد أعمال ثلاثة من أبرز الملاحين العرب في العصر العباسي، وهم: محمد بن شاذان، وسهل بن أبان، والليث بن كهلان. ومع ذلك، أبدى شكوكًا حول قيمة أعمالهم، إذ رأى أنهم كانوا مجرد ناقلين أو جامعين للمعلومات بدلاً من كونهم مؤلفين أصليين. ولم تقتصر مراجعاته على أعمال السابقين؛ بل شملت أيضًا البحارة المعاصرين له، إذ اعتبر نفسه الأكثر خبرة ودراية في هذا المجال. وبالنظر إلى خبرته الواسعة وإنتاجه الغزير من المؤلفات المتعلقة بفنون الملاحة، فإن هذا الادعاء لم يكن بعيدًا عن الواقع، بل كان انعكاسًا لمكانته كأحد أعظم الملاحين في تاريخ الملاحة العربية.

كان ابن ماجد أول ملاح عربي يصف الساحل الإفريقي إلى الجنوب من سوفالا، وهي إحدى المقاطعات الحالية في موزمبيق. ومع ذلك، فإن وصفه الجغرافي لإفريقيا اتسم بعدم الدقة، حيث تصور القارة أصغر مما هي عليه في الواقع. ووفقاً لروايته، فإن الساحل الشرقي لإفريقيا

«ينعطف بحدة نحو الغرب ويخرج عند كانم (غانا) جنوب بلاد السود»، ومن هناك يمتد ليصل إلى المغرب الحالي، وهو أمر اتضح عدم صحته جغرافياً. اعتمد ابن ماجد في رحلاته على الخرائط البحرية والعديد من الأدوات الملاحية التي قام بتطويرها، فيُنسب إلى ابن ماجد تحسين تصميم البوصلة من خلال تجميع أجزائها ووضعها داخل صندوق متأرجح، مما جعلها أكثر ثباتاً ودقة أثناء الاستخدام في البحار الهائجة.

أما السدسية أو السُدُس (Sextant) -وهي أداة ملاحية تُستخدم لقياس الزوايا بين الأجرام السماوية والأفق، مما يساعد في تحديد خط العرض والموقع الجغرافي للسفن- فلا يمكن نسب اختراعها إلى ابن ماجد، إذ إن مبدأ هذه الأداة تم تطويره في القرن الثامن عشر الميلادي، وتحديدًا حوالي عام ١٧٣١، على يد جون هادلي (١٦٨٢-١٧٤٤) وتوماس غودفري (١٧٠٤-١٧٤٩). غير أن ابن ماجد استخدم أداة تُعرف بـ «الكمال»، التي تُعتبر الأصل التاريخي للسدسية، وقد عُرفت هذه الأداة بين الملاحين العرب منذ أواخر القرن التاسع الميلادي، وهي أداة لقياس ارتفاع النجوم فوق الأفق. ساعدتهم هذه الأداة في تحديد خطوط العرض بدقة، مما عزز قدرتهم على الإبحار في المحيطات المفتوحة والتنقل بين القارات.

وفيما يتعلق باستخدام الخرائط، يشير هنري غروسيه-غرانج إلى ضرورة تجنب التصور الخاطئ عن الملاحين العرب في ذلك العصر، ومنهم ابن ماجد. لم يكن هؤلاء الملاحون يعملون كضباط مراقبة حديثين يرسمون مواقع النجوم والمَحَامِل (Bearings) -أداة تشير إلى الاتجاه الزاوي بين موقع معين ونقطة مرجعية، وعادةً ما تُقاس بالنسبة إلى الشمال الحقيقي أو الشمال المغناطيسي- بدقة على خرائطهم لتصحيح المسارات. بدلاً من ذلك، اعتمد ابن ماجد على «الحساب التقديرى المحسّن»، الذي يجمع بين خبرته الشخصية ومعرفة أسلافه.

كانت الخرائط تُستخدم غالباً كتذكير بالمسافات بين المواقع أو لتحديد الاتجاهات العامة للسواحل والموانئ^(١)، بدلاً من استخدامها كأداة دقيقة للملاحة.

في رسالته، يقترح ابن ماجد قائمة مفصلة من المواعيد التي يجب مراعاتها عند الإبحار إلى الهند. ويشدد على ضرورة عدم التأخير في المغادرة، حيث أن الرياح الموسمية المواتية قد تتوقف قبل اكتمال الرحلة، مما يجبر السفن على العودة. وفقاً لابن ماجد، هناك فترات زمنية محددة تعتبر مناسبة للمغادرة، وهذه الفترات تعتمد على الموانئ على الساحل الأفريقي والوجهات التي يتم التوجه إليها. في هذا السياق، تظهر حادثة مهمة تتعلق بما حدث في عام ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م، عندما وصل الملاح البرتغالي الشهير فاسكو دا جاما إلى الهند، وبالتحديد إلى كاليكوت. وكان وصوله مفاجأة كبيرة، حيث لم يكن أحد يتوقع وصوله إلى هناك، خاصة وأن أسطوله لم يُرصد على شاطئ الخليج العربي. ما كان معروفاً فقط هو أن فاسكو دا جاما غادر مركزاً تجارياً في ماليندي بكينيا قبل شهر. كيف تمكن من تجنب فخاخ المحيط الهندي والوصول إلى الهند بهذه السرعة والسهولة؟

كانت الخرائط البحرية في ذلك الوقت نادرة، والأهم من ذلك أنها كانت سرية، حيث كانت تمثل مصدراً للاكتشافات والمكاسب الاقتصادية الكبيرة للدول الراعية للبعثات. وعلى الرغم من أن فاسكو دا جاما كان ملاحاً متمرساً، إلا أن المخاوف من الخوض في أعماق البحر غير المكتشفة كانت تراوده، خاصة حين يتعلق الأمر بالوصول إلى

[علم H. Grosset-Grange et H. Rouquette, *La Science Nautique Arabe* (1)
[تاريخ العلوم العربية] in *Histoire des Sciences Arabes* [الملاحة العربي]

الهند، أرض التوابل. وبناءً على ذلك، يتفق الكثيرون على أن فاسكو دا جاما قد استعان بملاح ماهر، لكن يبقى السؤال: من هو هذا الملاح؟

سرعان ما انتشرت شائعة حينها، مفادها أن البرتغاليين التقوا بابن ماجد أثناء توقفهم في ماليندي. وتدعي الرواية الأولى أن ابن ماجد قد دُعي إلى العشاء من قبل البحار البرتغالي، وأدلي بكل ما لديه من معلومات سرية تتعلق بالملاحة في المحيط الهندي تحت الضغط، مما مكّنهم من السفر إلى كاليكوت بأمان. بينما تدعي رواية أخرى أن ابن ماجد وافق طواعية على مساعدة البرتغاليين، مشروطاً راتباً مغرياً، مقابل تقديم خرائطه التفصيلية للمحيط الهندي، التي تحتوي على درجات خطوط الطول والعرض، مما يساهم في دقة الملاحة في الرحلات البحرية.

هناك أيضاً المؤرخ العربي ابن أحمد قطب الدين النهروالي (ت. ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م) الذي وصف دخول «الفرنجة الملعونين» إلى المحيط الهندي بأنه «أحد أكثر الأحداث الاستثنائية والمرعبة» في تلك الفترة. وقال في روايته: «انطلقت فرقة منهم من مضيق سبته، عبروا بحر الظلمات^(١)، واتجهوا شرقاً. مروا إلى الجنوب من جبال القمر، عبر ممر ضيق يشرف عليه جبل من جهة وبحر الظلمات من جهة أخرى». وأضاف: «لم تستطع مراكبهم الصمود أمام قسوة هذا المكان وغرقت سفنهم، واستمروا هكذا [في محاولة العبور] لبعض الوقت، وهلكوا هناك حتى نجا «غراب بينهم» ووصل إلى الهند. ولكن [قبل ذلك] كانوا قد جمعوا معلومات عن المحيط الهندي من بحار يُدعى أحمد بن ماجد. وقد توطدت علاقته مع قائد الفرنجة، أمير البحار، وذات ليلة شربوا معاً

(١) وهو الاسم الذي كان يُطلق في القرون الوسطى على المحيط الأطلسي، الذي لم يكن متاحاً للبحارة في ذلك الوقت لأنه كان يعتبر مكاناً تسكنه الوحوش.

حتى أفضى إليه ابن ماجد بالمعلومات اللازمة عن الطريق إلى الهند وهو في حالة سكر!».

من المهم أن نتذكر أنه في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، كان المسلمون والأوروبيون في حالة صراع مستمر، خاصة فيما يتعلق بطرق التجارة. وكان الملاحون يحتفظون بخرائطهم ككنوز ثمينة، إذ لم يكونوا ليكشفوا عن هذه المعلومات حتى للبلدان الإسلامية الأخرى، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالعدو؟ من جهة أخرى، نعلم أن ابن ماجد كان مسلمًا متدينًا، وكان ملتزمًا بتعاليم الإسلام التي تشمل الامتناع عن شرب الخمر. ويتضح ذلك من خلال كتاباته التي تؤكد على أن «المعلم - ربان السفينة أو قائدها - يجب أن يكون تقيًا عادلاً، غير ظالم أبدًا، مطيعاً لله دائماً، عالماً بالله في كل تصرفاته». فكيف يمكن لشخص صاحب هذه المبادئ أن يسكر ويكشف سرًا قد يسهم في تقويض الهيمنة الإسلامية على المحيط الهندي والبحر الأحمر وطرق التجارة إلى الصين والهند؟

على خلاف هذه النظريات، قام صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، حاكم الشارقة في دولة الإمارات العربية المتحدة، بكتابة بحث دقيق تاريخيًا بعنوان «لتذكرة المؤرخين ببراءة ابن ماجد». في هذا البحث، قام حاكم الشارقة بتحليل ومقارنة المؤلفات التي تعود إلى فترة فاسكو دا جاما بعناية. وبعد دراسة مستفيضة، توصل إلى استنتاج مفاده أن من قام بدور المرشد للبحار البرتغالي لم يكن ابن ماجد بالتأكيد، بل كان مسيحيًا من ولاية غوجارات (إحدى الولايات الثماني والعشرين في الهند الحالية)، وكان موجودًا في ماليندي عندما توقف فاسكو دا جاما هناك. ويستند هذا الاستنتاج إلى المخطوطات الأصلية لمذكرات رحلة جاما الأولى التي تُحفظ في مكتبة بلدية بورتو في البرتغال.

يتفق المؤرخ البريطاني ج. ر. تيببتس^(١) مع ما توصل إليه الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، حيث يرى أن من المحتمل أن يكون «ملاحًا أقل شأنًا، من غوجاراتي من ميناء ماليندي، وكان ثملًا». وبهذا، تتأكد براءة ابن ماجد من هذه التهمة. وإذا كان ابن ماجد متفوقًا على العديد من بحارة عصره، فذلك لأنه كان يُجيد العديد من اللغات، حيث كان يعرف بجانب العربية، التاميلية والفارسية. كما أنه نظم أكثر من ٣٤ قصيدة ونصًا نثريًا في علم الملاحة، بلغ مجموعها حوالي ٤,٦٠٣ بيتًا.

وأخيرًا، كان أيضًا رسام خرائط بارعًا. في هذا السياق، يمكن ملاحظة أن كولومبوس استخدم طريقة في الملاحة تشبه إلى حد بعيد تلك التي وصفها ابن ماجد في رسالته، وإن كنا، مرة أخرى، لا نملك إلا التخمين في هذا الصدد.

الإدريسي (٤٩٣هـ - ٥٦٠هـ / ١١٠٠-١١٦٥ / ١١٦٦م)

حكم الملك روجر الثاني (٤٨٧-٥٤٨هـ / ١٠٩٥-١١٥٤م) صقلية لمدة ٦٠ عامًا تقريبًا، وخلال فترة حكمه كان على علاقة دبلوماسية بالعديد من الشخصيات البارزة في العالم المعروف آنذاك، بما في ذلك الخليفة الفاطمي الحاكم لمصر في تلك الفترة الحافظ لدين الله (٥٤٤-٥٢٤هـ / ١١٣٠-١١٤٩م). كان هذا أمرًا غير معتاد في وقت كانت فيه العلاقات بين المسيحية والعالم الإسلامي مشحونة بالتوترات. ورغم أن روجر كان من أصول نورماندية (وُلد في صقلية بجنوب إيطاليا)، إلا أنه عهد بإدارة شؤونه المالية إلى رعاياه العرب، الذين كانوا يشكلون أيضًا

(١) هو مؤلف دراستين تحت رعاية الجمعية الملكية الآسيوية: «الملاحة العربية في المحيط الهندي قبل مجيء البرتغاليين» (١٩٧١) و«دراسة للنصوص العربية التي تحتوي على مادة عن جنوب شرق آسيا» (١٩٧٩).

القوة الرئيسية في جيشه إذا كانت صقلية تحت الحكم الإسلامي في القرن التاسع الميلادي وحتى توسع ملوك النورمان في جنوب إيطاليا. وكان تاج روجر المزين بزخارف إسلامية تمثل حروف عربية بالخط الكوفي ومستوحاة من فنون الفاطميين في القاهرة. وفي عام ٥٢٥هـ/ ١١٣١م، أمر ببناء كنيسة الكابيللا بلاتينا في باليرمو، حيث طلب أن تعكس زخارفها تزاوج فنون الشرق والغرب. ونتيجة لذلك، امتزجت الفسيفساء البيزنطية مع الأعمال الخشبية والمنحوتات والمقرنصات الإسلامية والكتابات العربية، بينما كان الشعراء في قصره ينشدون أبياتهم باللاتينية والعربية على حد سواء.

إحياء ذكرى أحد ملوك النورمانديين لاسترجاع سيرة جغرافي عربي قد يبدو أمرًا غير معتاد، ولكن في مرحلة معينة من التاريخ، كان مصير هذين الرجلين مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا. في الواقع، بفضل روجر الثاني، استطاع محمد الإدريسي، الذي غير نظرة العالم الجغرافية في عصره، أن يُنجز العمل الذي جعل اسمه مذكورًا في التاريخ.

من هو الإدريسي؟ هو أبو عبد الله محمد بن محمد إدريس العلي بأمير الله الإدريسي الملقب بالقرطبي، نجد أنه ينتمي إلى أسرة تعود إلى إدريس الأول، حفيد الخليفة علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، وهو ما يشير إلى نسبه الشريف. حسب ما ذكره حسن الوزان، المعروف بـ«ليون الإفريقي»، وُلد الإدريسي في مازارا ديل فالو في صقلية، ولكن هذا ليس الرأي المتفق عليه. ففي رأي الباحث المستشرق ميغيل كاسيري، وجزء كبير من المتخصصين، وُلد الإدريسي في سبتة (التي كانت آنذاك جزءًا من المغرب)، حيث لجأ أسلافه الحموديون (أسرة أمازيغية، حكمت في الأندلس في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) في عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م بعد سقوط مالقة (مالجا حاليًا بجنوب إسبانيا)، آخر معاقلهم في الأندلس إلى صقلية، وربما كان والد

الإدريسي هو من قام بذلك. وهذا الرأي ليس بعيدًا عن الصواب، خاصة وأن وجود الحاموديين في صقلية كان موثقًا في المصادر العربية واللاتينية طوال القرن الثاني عشر.

وفقًا لما ذكره الإدريسي نفسه، فقد أمضى جزءًا كبيرًا من شبابه في التنقل بين شمال أفريقيا وإسبانيا، حيث حصل على معلومات مفصلة ودقيقة عن هاتين المنطقتين. ومن المعروف أيضًا أنه درس في قرطبة لعدة سنوات، وهو ما يفسر لقبه «القرطبي». ويقال إنه زار أيضًا آسيا الصغرى. ومع ذلك، من اللافت أن ما ورد حول سيرته الذاتية باللغة العربية نادر للغاية، وما نعرفه عن أنه عاش في بلاط الملك الإيطالي روجر الثاني، الذي أثنى عليه في أعماله. اشتهر روجر الثاني بحبه للثقافة والعلم، وكان يُعرف بحمايته لأهل العلوم والفنون. وقد وفر بيئة تشجع على التنوع الثقافي، حيث امتزجت الثقافات النورماندية والإيطالية والبيزنطية والإسلامية. كما شجع على ترجمة النصوص الكلاسيكية من العربية واليونانية إلى اللاتينية، مما أسهم في التجديد الثقافي لأوروبا في العصور الوسطى. ولذا، لم يكن من المستغرب أن يقرر روجر الثاني دعوة الإدريسي إلى قصره في باليرمو بعد سماعه عن تميزه في مجال الجغرافية. ورغم أننا لا نعرف التاريخ الدقيق لوصوله إلى جزيرة صقلية، إلا أن البعض يشير إلى أن ذلك كان في بداية عام ٥٣٤هـ / ١١٤٠م.

ووفقًا لما ذكره المؤرخ العربي صلاح الدين الصفدي (ت. ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م)، فقد حضر الإدريسي إلى بلاط الملك روجر الثاني استجابة لدعوة رسمية، كُلف فيها بنقش خريطة للعالم على كرة أرضية كبيرة مصنوعة من الفضة الخالصة. ولم يكن هذا التكليف إلا جزءًا من مشروع طموح. فبعد أن أخضع الملك بلدان إيطاليا وسكانها لسلطته، أراد أن يحصل على خريطة دقيقة وشاملة لمملكته وحدودها. في مقدمة كتابه، كتب الإدريسي: «أراد أن يتعرّف على أراضيه على نحو واسع

و«ضروري». طلب الملك منه تحديد الحدود والطرق البحرية والبرية بدقة، بالإضافة إلى وصف المناخ لكل منطقة، والموانئ والخليج البحري المحاذي لها. لم يتوقف طموح الملك عند حدود مملكته فقط؛ بل أراد أيضًا معرفة أوصاف المناطق غير الخاضعة لسلطته. وكان من ضمن مطالبه دراسة مفصلة عن الأنواع المختلفة من الحبوب، والفواكه، والنباتات التي تنتجها كل منطقة، بالإضافة إلى الحرف والفنون التي يمارسها سكانها، وطبيعة أنشطتهم التجارية من صادرات وواردات. كما شمل هذا المشروع دراسة لعادات السكان، ودياناتهم، ولغاتهم، وملابسهم. كان المشروع، كما وصفه الإدريسي نفسه، تحديدًا هائلًا، ولكنه وافق أن يقوم به. ونتج عن هذا الجهد كتابه الشهير: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» المسمى أيضًا (كتاب روجر) أو (الكتاب الروجري) وذلك لأن الملك روجر الثاني ملك صقلية هو الذي طلب منه تأليفه.

تشير مصادر أخرى إلى أن بعض أقاربه من الأسرة الحمودية، الذين عُرفوا باستقرارهم في صقلية، قد شجعوه على قبول هذا المشروع. وقد ذكر الرحالة الأندلسي المسلم ابن جُبَيْر الكناني (٥٣٩-٦١٤هـ / ١١٤٥-١٢١٧م) أن الحموديين كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة وسلطة كبيرة بين مسلمي صقلية، مما قد يكون قد ساعد الإدريسي في التأقلم والتعاون مع البلاط الملكي في مدينة باليرمو.

إن حجم المعلومات التي جُمعت واستُخدمت في عمل الإدريسي كان مذهلاً، إذ تضمنت أكثر من ٤,٠٠٠ اسم لمدن وبلدان، وحوالي ٤٤٠ اسمًا للأنهار والترع والبحيرات، بالإضافة إلى مائة اسم لسلاسل جبلية وقمم متفرقة ونبايح ومواقع جغرافية ومعالٍ طبيعية أخرى، ليصل العدد الإجمالي إلى أكثر من ٢,٥٠٠ اسم. من الواضح أن الإدريسي استند في عمله إلى مصادر متعددة، أبرزها أعمال بطليموس والجغرافيين

الإسبان والعرب السابقين، إلى جانب ملاحظاته الشخصية التي استقاها خلال رحلاته، أو جمعها عبر مقابلة البحارة والرحالة. وعلى عكس العصر الأول للجغرافيا العربية، الذي ركز على إنتاج خرائط تعتمد على الحسابات الفلكية الدقيقة، فإن العصر الثاني، بدءاً من ابن حوقل (ت. ٣٨٠هـ / ٩٩٠م)، اعتمد على السفر والترحال كمصدر رئيسي لفهم العالم وجغرافيته. وقد اتبع الإدريسي هذا النهج في عمله، إذ دمج الفكر اليوناني في إطار رؤية عربية شاملة للعالم، على غرار ما فعله ابن سينا (ت. ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م) في الطب، وابن رشد (ت. ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) في الفلسفة. جمع الإدريسي المعارف المتاحة له وأضاف إليها استدلالاته وملاحظاته الشخصية، مما جعل عمله نقطة تلاقٍ بين التراث العلمي القديم والإبداع العربي. تبدأ المخطوطة الشهيرة بخريطة للعالم المعروف والمأهول بالسكان، تحيط به مسطحات مائية دائرية، وفقاً للنظرية القديمة للأقاليم السبعة. في هذه النظرية، يُقسم العالم إلى سبع نطاقات إقليمية متوازية تمتد من الشرق إلى الغرب، يؤثر كل منها على طبيعة البشر وسلوكهم بناءً على المنطقة التي يعيشون فيها. وكانت الخرائط التي صممها الإدريسي مميزة، إذ وُضعت بطريقة معاكسة لما اعتدنا عليه؛ حيث كانت تُرسم باتجاه الجنوب في الأعلى بدلاً من الشمال. هذا النهج الفريد يعكس ليس فقط رؤيته الجغرافية، بل أيضاً استعداده لتحدي المعايير التقليدية في الرسم الجغرافي.

تمثل الخريطة التي صممها الإدريسي العالم الصالح للسكن أو المأهول بالسكان، المكوّن من أفريقيا وآسيا وأوروبا. على الجانب الأيسر يظهر المحيط الهندي، بينما تحتل منابع النيل الزاوية اليمنى العليا. في الجزء السفلي، يبرز البحر الأبيض المتوسط، ويمكن رؤية الجزيرة العربية بوضوح. يتوسط الخريطة البحر الأحمر، الذي تقطعه الشعاب المرجانية المرسومة على شكل أهلة (جمع هلال) صغيرة ملونة.

إلى اليسار، بين جبلين دائريين، تظهر مدينة مكة المكرمة، إضافة إلى جزء من الجزائر والمغرب. وفي الجانب الأيسر، يمتد البحر الأبيض المتوسط، وعلى شاطئه تظهر مدينة الجزائر. في الجزء العلوي من الخريطة، تمتد سلسلة جبال الأوراس عبر المنطقة بأكملها، بينما يظهر الساحل الأطلسي للمغرب في أقصى اليمين، متضمناً مدينة الدار البيضاء. يمثل البحر باللون الأزرق مع تموجات صغيرة بيضاء، والأنهار باللون الأسود، والجبال مرسومة كأهلة بألوان متنوعة. بينما تظهر المدن كدوائر وردية صغيرة ذهبية، في حين تُلون البحيرات والأنهار بالأخضر. كُتبت أسماء المناطق باللون الأحمر العريض، بينما حظيت صقلية بتفاصيل دقيقة واستثنائية، وهو أمر متوقع نظراً لأن الإدريسي عاش فيها، وعنها قال :

أول هذه المدن هي باليرمو،

وهي مدينة رائعة لعظمتها ولامعة لأهميتها [...]

تقع هذه المدينة على الساحل، ويحدها البحر من الشرق، وتحيط بها جبال عالية وضخمة [...].

تحتوي المدينة على مبانٍ رائعة ترحب بالمسافرين

وتظهر جمال بنائها ومهارة تصميمها

وأصالتها الرائعة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

وعلى طول الشارع المركزي توجد قصور

محصنة ومساكن فخمة ونبيلة

وعدد كبير من المساجد والفنادق والحمامات

ومستودعات كبار التجار.

وتتخلل المدينة جداول ونافورات،

وتنمو فيها الفاكهة بكثرة،

ومبانيها من الجمال بحيث يعجز القلم

عن وصفها والعقل عن تخيلها،

كل شيء فيها يغري العين»

حول مدينة باليرمو، يمكن رؤية جزر البحر الأبيض المتوسط بشكل واضح. وفي آسيا الوسطى، تتدفق العديد من الينابيع والأنهار التي تصب في بحيرتين كبيرتين. تم تصوير إحداهما باللون الأخضر، إذ هي بحيرة عذبة المياه، بينما تم تصوير الأخرى باللون الأزرق، وهي بحر آرال الذي يشتهر بمياهه المالحة. ابتكر الإدريسي تقسيم الأقاليم إلى عشرة أجزاء، وهو ما منحه القدرة على تقديم صورة شاملة للعالم على شكل شبكة مقسمة. كما استند إلى موروثة قديمة، مثل وصف «سور ياجوج ومأجوج»، الذي يُقال إنه أُقيم لحجز قوم ياجوج ومأجوج التي يُفترض أن تغزو العالم المأهول بالسكان قبل يوم القيامة.

وفيما يتعلق بنظرية كروية الأرض، كان الإدريسي يؤيدها تمامًا، كما كان الحال في الجغرافيا الإغريقية. وكان يرى أن بقية العالم مغطاة بمحيط عظيم، مُشيرًا إلى أن الأرض مستديرة ككرة، والماء فيها قائم وباقي وفقًا للتوازن الطبيعي الذي لا يتغير. وقد قدّر محيط الأرض بحوالي ٣٧,٠٠٠ كيلومتر، وهو تقدير يتعد قليلاً عن الحقيقة بمقدار ٣,٠٠٠ كيلومتر.

من خلال الخرائط التي قدمها، يتبين أن الإدريسي كان على دراية واسعة بالشرق، لا سيما في مناطق إفريقيا والمحيط الهندي، التي كانت متصلة بشبه الجزيرة العربية من خلال طرق التجارة. كما كانت معرفته بالسودان في العصر الحديث دليلاً على التبادلات التجارية التي

كانت تتم عبر النيل. وعلى الرغم من معرفته الجيدة بجغرافيا إيطاليا وإسبانيا وجنوب فرنسا، إلا أن معلوماته عن مناطق بعيدة مثل الصين كانت أقل دقة، حيث وصف الصين بأنها «بلد كبير يحب سكانه الرسم أكثر من أي شيء آخر»، كما وصف إنجلترا بأنها «بلد تمطر فيه الأمطار باستمرار».

قدّم الإدريسي جغرافيته بشكل شامل، إذ لم تقتصر على الجغرافيا الطبيعية فقط مثل الأنهار والجبال والسواحل، بل شملت أيضًا الجغرافيا البشرية، مثل الطرق والمحاصيل والتجارة وغيرها. وقد وصف النباتات والحيوانات بدقة، حيث كان ذلك يدعم نظرية الأقاليم التي طرحها، والتي تفترض أن اختلاف النباتات والحيوانات من مناخ إلى آخر يمتد أيضًا ليشمل البشر. كما أضاف حكايات مثيرة وشيقة بهدف تسلية القارئ وإخضاعه لرحلة ذهنية. ولإتمام هذا العمل، اختار الملك روجر الثاني والجغرافي المسلم الإدريسي عددًا من الأشخاص، من بينهم رسامون، وأرسلهم إلى مختلف البلدان لملاحظة وتوثيق ما شاهدوه. ومع ذلك، يتجنب الإدريسي في معظم الأحيان الإشارة إلى الأمور السياسية، ربما لأن الإدريسي يعمل في بلاط صقلية التي كانت في تقاطع حضاري مع العديد من الثقافات. وبينما كان الإسلام يتراجع في البحر الأبيض المتوسط أمام الغزو الغربي، رفض الإدريسي الاعتراف بإخفاقات المسلمين، مفضلًا أن يظل صامتًا عن هذه الأحداث، ما مكنه من إعادة التأكيد على مركزية الحضارة الإسلامية التي كان يراها الحضارة الوحيدة القادرة على احتضان العالم برؤية شاملة. وكما أشار أندريه ميكيل، الباحث والمؤرخ المتخصص في اللغة العربية وآدابها: «لقد أخرج الإدريسي بوسائل عصره عملاً جديدًا ذا ثراء غير مسبوق، يفتح على الغرب المسيحي الذي كان غير معروف لبطليموس الجغرافي».

متى أكمل عمله؟

أكمل الإدريسي عمله في كتابه نزهة المشتاق في عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، حيث كانت النسخة الأولى غير المكتملة قبل وفاة روجر الثاني. ومع ذلك، استمر المشروع حتى عهد خلفه، وليم الأول (٥٤٢-٥٦١هـ/ ١١٦٦-١١٣٠م) حيث تم الانتهاء منه بعد ما يقارب خمسة عشر عامًا من العمل. على الرغم من فقدان الكرة الفضية التي كانت جزءًا من العمل، فإن الكتاب نفسه نجح في البقاء. لم يتم التعرف على هذا العمل الضخم في بقية أوروبا إلا في نهاية القرن مع القرن العاشر هجري/ السادس عشر الميلادي، وكان ذلك بشكل جزئي وغير مكتمل، عندما تم طباعة نسخة مختصرة في فلورنسا بواسطة مطابع ميديتشي. أما بالنسبة للطبعة النقدية، فقد بدأت لجنة من الأكاديميين الإيطاليين (من المعهد الجامعي الشرقي في نابولي) بالتعاون مع خبراء دوليين في إصدار أجزاء منها منذ أوائل السبعينيات. تم العثور على عشر نسخ مكتوبة بخط اليد من «كتاب نزهة المشتاق»، أقدمها يعود إلى عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م وأحدثها إلى أواخر مع القرن العاشر هجري/ القرن السادس عشر الميلادي. من بين هذه النسخ، يُعتبر أفضلها حفظًا هي النسخة التي تحتوي على الخريطة الدائرية للعالم، والتي توجد في مكتبة بودليان في أكسفورد، كما توجد نسخة أخرى في مكتبة فرنسا الوطنية.

ترك هذا الجغرافي العظيم لنا أيضًا عملاً هامًا آخر هو «كتاب الجامع لأشبات النباتات»، الذي أظهر فيه معرفته العميقة بعلم النبات. في هذا الكتاب، قدم وصفًا مفصلاً للعديد من النباتات الطبية الجديدة وقدم تقييمًا طبيًا لها. أورد أسماء هذه النباتات بست لغات وترجمها إلى اثني عشرة لغة، بما في ذلك السريانية واليونانية والفارسية والهندية واللاتينية والأمازيغية. على الرغم من بعض الانتقادات، مثل عدم اعترافه بالإسهامات الجغرافية الهامة لعلماء آخرين في عصره، مثل العالم العربي

«البيروني» الذي عاش في الخامس الهجري/ القرن الحادي عشر، واستخدامه للمصادر اليونانية والعربية السابقة دون نقد، يظل كتاب الإدريسي واحدًا من أهم الأعمال الجغرافية.

من ناحية أخرى، تجدر الإشارة إلى أن اهتمامات الإدريسي العلمية شملت أيضًا المسائل الطبية. في كتابه «كتاب الأدوية البسيطة»، الذي يسرد فيه أسماء الأدوية بعدد من اللغات، يُظهر مدى الإتقان لمهاراته اللغوية. كما يبدو أنه كان على دراية جيدة بالأدب العربي، واستنادًا إلى بعض الأشعار التي وصلتنا، فإنه كان شاعرًا بارعًا أيضًا. توفي الإدريسي في تاريخ غير معروف في الفترة بين ٥٦٠ هـ - ٥٧٠ هـ / ١١٦٥-١١٧٥ م، ومن المحتمل أن يكون قد توفي في باليرمو أو سبته.

عباس بن فرناس (١٩٤-٢٧٤ هـ / ٨١٠-٨٨٧ م)

إذا كنت تمتلك تلسكوبًا موجّهًا نحو القمر، ستتمكن من رؤية الفوهات التي تغطي سطحه، ولكن لن تتمكن من رؤية الفوهة التي تهمنا هنا، لأنها تقع على الجانب غير المرئي من القمر. تلك الفوهة حملت اسم العالم الأندلسي عباس بن فرناس، بقرار من الاتحاد الفلكي الدولي عام ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م، تخليدًا لإسهاماته العلمية ومواهبه المتعددة.

لطالما كان حلم التحليق في الهواء أو الإبحار بين السحاب شغفًا متجذرًا في خيال البشرية، تمامًا كما ورد في الأساطير القديمة التي صورت الآلهة وهي تسافر في السماء بحرية. ومن بين أشهر هذه الأساطير، تبرز قصة المهندس المعماري الأسطوري «ديدالوس» وابنه «إيكاروس»، اللذين وقعا في أسر متاهة جزيرة كريت. سعى ديدالوس إلى الهروب بابتكار عبقر، حيث صنع أجنحة باستخدام الشمع والريش لتحاكي أجنحة الطيور. وعندما حان الوقت، قرر إيكاروس تجربة تلك الأجنحة. لكن قبل الانطلاق، حذره والده قائلاً: «احذر الاقتراب كثيرًا

من الشمس!» إلا أن الشاب، الذي أغرم بلذة التحليق، نسي التحذير. ومع صعوده عاليًا نحو السماء، ذاب الشمع بفعل حرارة الشمس، وتفككت الأجنحة، ليسقط إيكاروس إلى حتفه في البحر، تاركًا قصته عبرةً في مخيلة الإنسانية.

في عام ٣٥٠ ق.م، درس أرسطو طيران الطيور في محاولة لفهم آليات الطيران واستكشاف إمكانية تقليدها عمليًا. تشير الروايات إلى أن محاولات الطيران كانت موجودة في اليونان القديمة، حيث يُقال إن المحكوم عليهم بالإعدام كانوا يُربطون بأوزة ويلقون من المنحدرات في تجربة بائسة للطيران، وكانت النهاية متوقعة: السقوط المميت. أما في الصين، فقد كانت الطائرات الورقية معروفة منذ عدة قرون قبل الميلاد، ويُعتقد أنها استُخدمت لأغراض دينية وترفيهية وحتى عسكرية. ووفقًا لروايات ماركو بولو في «كتاب العجائب»، فإن الصينيين صنعوا طائرات ورقية كبيرة بما يكفي لتحمل رجلًا واحدًا.

قبل أكثر من ١٥٠٠ عام، تخيل العالم والفنان المتعدد المهارات ليوناردو دافنشي نوعًا من الآلات الطائرة التي تحاكي طيران الطيور، لكنه لم يختبر تصميماته قط. أما في القرن السابع عشر، فقد كان الفيلسوف رينيه ديكارت متشككًا في إمكانية طيران الإنسان بقوته الذاتية، معتقدًا أنه يفتقر إلى الطاقة اللازمة لرفع نفسه عن الأرض. في ١٩ محرم ١١٩٨هـ/ ١٩ سبتمبر ١٧٨٣م، قام الأخوان مونتغولفييه بأول رحلة طيران بالمنطاد، مما أثبت أن الحركة في الهواء تتطلب أن يكون الجسم أخف وزنًا من الهواء المحيط به.

أما أول محاولة طيران باستخدام طائرة ذات محرك فكانت من نصيب الفرنسي كليمان أدير، الذي صمم طائرته «أفيون» مستوحاة من الخفافيش. ورغم ادعائه الطيران، إلا أن طائرته بالكاد ارتفعت عن

الأرض لبضع دقائق قبل أن تسقط. وفي الفترة بين ١٣١٨-١٣٢٤هـ/ ١٩٠٠-١٩٠٣م، جاء دور الأخوين الأمريكيين أورفيل وويلبر رايت لإجراء تجارب ناجحة على طائرتهما «فلاير». ففي ١٧ ذو القعدة ١٣٢١هـ/ ١٧ ديسمبر ١٩٠٣م، قاما بأربع رحلات جوية، كان أطولها عندما طار أورفيل مسافة ٢٨٤ مترًا في غضون ٥٩ ثانية، مؤكدين بذلك بداية عصر الطيران الحديث.

لكن قبل هؤلاء الرواد بوقت طويل، وقبل كليمان آدير والأخوين رايت، كان هناك أندلسي عاش في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وجزّب الطيران لأول مرة. إنه أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس، المعروف باسم ابن فرناس. ولد في عام ١٩٤هـ/ ٨١٠م، وارتبط اسمه بمحاولته الرائدة في التحليق. لا يوجد اتفاق حول أصول عائلته. فبعض المصادر تشير إلى أنه ينحدر من عائلة أمازيغية كانت تعيش في منطقة تاكرونة التي تشمل مدينة روندا الحالية. بينما يرى آخرون، مثل المؤرخ الإسباني فرانسيسكو خافيير سيمونيت باكا أنه من أصول أندلسية. ومع ذلك، تبقى هذه الفرضيات غير مؤكدة، نظرًا لندرة المصادر التي تناولت سيرته الذاتية. ما هو مؤكد أن ابن فرناس كان في خدمة ثلاثة من أمراء الأندلس: الحَكَم الأول (حكم بين ١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢٢م)، وعبد الرحمن الثاني (حكم بين ٢٠٦-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م)، ومحمد الأول (حكم بين ٢٣٨-٢٧٠هـ/ ٨٥٢-٨٨٦م). وقد أُشير إليه بصفته مولى^(١) من أصول أمازيغية، مما يؤكد ارتباطه بالبلاط الأموي في الأندلس ودوره البارز في ذلك العصر.

(١) الجمع في اللغة العربية موالى. للكلمة بالإضافة إلى معنى «السيد» معانٍ عديدة في اللغة العربية، منها ما هو مخالف: المساعد، والشريك، والموكل، والسيد، والمالك، والعبد المعتقد.

برز ابن فرناس تدريجيًا كواحد من أهم علماء القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حيث برع في العديد من فروع المعرفة، حتى أن المؤرخ القرطبي ابن حيان (ت. ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) خصص له مقالة طويلة في كتابه «المقتبس في تاريخ الأندلس»، ولقبه بـ«حكيم الأندلس». وأشار ابن حيان إلى أن بقاء ابن فرناس في بلاط قرطبة لثلاثة عهود متعاقبة يعود إلى مديحه المتقن للملوك، فضلاً عن ثباته وقدرته الكبيرة على العمل. كان ابن فرناس أشبه بـ«ليوناردو دافنشي» في إسبانيا الإسلامية، حيث كرس حياته لتطوير أدائه في مجالات شتى، بدءاً من البحث العلمي والتقني وصولاً إلى الإبداع الأدبي والموسيقي. ونقلًا عن عالم اللغة الإشبيلي أبو بكر الزبيدي (ت. ٣٨٩هـ / ٩٨٩م)، وصف المستشرق الإسباني إلياس تيريس سادابا (ت. ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ابن فرناس بأنه «من أكثر الرجال قدرة ونفاذًا في إدراك أدق المفاهيم وأسرار الفنون الجميلة». يُقال إن ابن فرناس توجه إلى بغداد، حيث درس (وربما في بيت الحكمة) وعاد إلى الأندلس حاملاً معه كتاب «زيج السند الكبير». وقد مكنت هذه الجداول من تحديد مواقع النجوم في السماء بدقة في أي تاريخ معين، بفضل مجموعة من العمليات الحسابية.

ذكر المؤرخ مرتضى الزبيدي أن ابن فرناس كان من أبرز العلماء الذين استفادوا من الكتب التي وصلت إلى الأندلس في عصره. يروي المستشرق وعالم الإسلاميات الفرنسي ليفي بروفنسال رواية عن إسهامات ابن فرناس قائلاً: «كان [ابن فرناس] بارعًا في فك أعقد مسائل علم العروض. فعندما أحضر أحد التجار إلى الأندلس مخطوطة تحتوي على رسالة الخليل في العروض، عجز الجميع عن فهم قواعد العروض ونماذجها التي وردت فيها. حينها، أخرج عباس بن فرناس المخطوطة من أحد أركان القصر، ودرسها بتمعن، ثم شرحها أمام حشد مذهول من الحضور». إلى جانب ذلك، اشتهر ابن فرناس بتدريس الرياضيات

والموسيقى، وتنظيم الشعر، كما أنه ابتكر طريقة مميزة في تقطيع البلور الصخري^(١)، وهي التقنية التي تبناها العالم الغربي لاحقًا واستفاد منها بشكل واسع، فضلًا عن ذلك، قام بإجراء تجارب خيمائية لصنع بلورات من معادن مختلفة.

لم يكن عباس بن فرناس مجرد عالم؛ بل عبقرًا مبتكرًا ترك بصماته في مجالات متعددة. من أبرز إبداعاته تصميمه ساعة مائية ذات آلية معقدة لأمير قرطبة، حيث اعتمدت على تدفق الماء الذي يتم التحكم به عبر سلسلة من الصمامات. هذه الساعة كانت قادرة على تحديد الوقت بدقة في أي وقت من النهار أو الليل. وفي مجال الفلك، أبدع ابن فرناس أول أسطرلاب كروي، وهو أداة فلكية متقدمة تُستخدم لإجراء الحسابات والرصد السماوي من خلال توجيه دوائرها وفقًا للمخططات السماوية. كما أن تصميمه لقبة سماوية ميكانيكية في مقر إقامته بقرطبة يُعد شهادة حية على عبقرته في علوم الفلك. لم يقتصر الأمر على محاكاة السماء فحسب، بل تضمنت القبة مؤثرات صوتية ومرئية تُحاكي البرق والرعد والعواصف، مما جعلها تجربة استثنائية في عصره.

لكن ما خَلَّد اسم ابن فرناس هو شجاعته وتصديه لمحاولات كانت تُعتبر جنونية في زمانه. ففي عام ٢٨٣هـ / ٨٥٢م، وأمام حشد كبير من أهالي قرطبة، ألقى بنفسه من أعلى مئذنة مسجد قرطبة (التي بلغ ارتفاعها ٥٤ مترًا) مستخدمًا قماشًا يعلوه طبقة من الشمع كجناحين للطيران. وعلى الرغم من أن الهبوط كان سريعًا وعنيفًا، وأدى إلى إصابته بكسور في عظامه، إلا أنه خرج من التجربة مؤمنًا بإمكانية تطوير الفكرة. تُعتبر

(1) Muller-Viollet, *Les Sept Villes du Savoir* [مدن المعرفة السبع] Paris: Éditions Gallimard, 2005

هذه المحاولة أول استخدام موثق لمظلة تقوم بعمل جناحي طائر في التاريخ، وتؤكد على جرأته وسعيه الدؤوب لاختبار حدود العلم.

بعد سنوات من العمل والبحث، وبالتحديد في عام ٢٦١هـ / ٨٧٥م، أقدم عباس بن فرناس على تجربة طيران جريئة هي الأولى من نوعها. استندت تجربته إلى دراسة دقيقة لحركة الطيور، حيث قام بحسابات متعمقة تتعلق بالوزن، والسرعة، واتجاه الرياح. بناءً على هذه المعطيات، صمم طائرة شراعية مكونة من هيكل خشبي مغطى بنسيج حريري ومزين بريش الطيور، في محاولة لمحاكاة الطبيعة بأدق تفاصيلها.

اقتناعاً بفراة اختراعه وإمكاناته، دعا ابن فرناس مئات الأشخاص ليشهدوا هذه التجربة التاريخية على قمة تل أروزافا بالقرب من قرطبة. كان بين الجمهور العديد من الشخصيات البارزة من بلاط الأمير محمد الأول (٢٣٨-٢٧٣هـ / ٨٥٢-٨٨٦م). وأمام أنظار المتفرجين المبهوتين، قفز ابن فرناس في الهواء باستخدام طائرته الشراعية. وفقاً للمصادر التاريخية، استمر طيرانه فترة تتراوح بين دقيقتين وعشر دقائق، في إنجاز غير مسبوق في ذلك الزمن. وعلى الرغم من أن الهبوط كان قاسياً، إلا أن ابن فرناس نجا من التجربة. لم يكن هذا الحدث مجرد مغامرة، بل كان نقلة نوعية في مجال تجربة الإنسان للطيران، حيث أصبح ابن فرناس بحق أول رجل ينجح في الطيران باستخدام مركبة أثقل من الهواء، سابقاً المحاولات الأوروبية بأكثر من ألف عام.

يُعتقد أن رسومات وتصاميم عباس بن فرناس ألهمت شخصيات بارزة في تاريخ الطيران مثل ليوناردو دافنشي، وأيضاً إيلمر من الميسبري، وهو راهب بندكتي (نظام ديني الذي يتبع تعاليم القديس بندكت، وهو أحد الأنظمة الرهبانية البارزة في الكنيسة الكاثوليكية) عاش في القرن الحادي عشر في إنجلترا. قام إيلمر بتجربة طيران مشابهة، حيث صنع أجنحة بدائية ثبتها على يديه وقدميه، ثم قفز من أعلى برج

الدير الذي كان يعيش فيه. ووفقًا للروايات، نجح في الطيران لمسافة حوالي ٢٠٠ متر، مستعينًا بالرياح، قبل أن يسقط على الأرض. من جانب آخر، يُقال إن ابن فرناس أُلّف عددًا من الكتب في مجالات مثل الفلك، والفيزياء، والميكانيكا، إلا أن هذه الأعمال فُقدت جميعها خلال فترة الاسترداد المسيحي (Reconquista) التي شهدتها الأندلس. وتلك المعلومات الباقية عن إنجازاته وصلتنا من خلال كتابات المؤرخ المغربي أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت. ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م)، الذي أكد اعتماده على مصادر متعددة لم تعد موجودة اليوم. يشير المقرئ في كتابه إلى بيت شعري من القرن التاسع يُعتقد أنه يصف إنجاز ابن فرناس في الطيران: «طار أسرع من العنقاء عندما ألبس جسده ريش نسر». للأسف، لم تصلنا أي مصادر تاريخية أخرى تؤكد أو تُفصل مغامرة ابن فرناس الشهيرة، مما يجعل الروايات حوله قائمة بالأساس على أعمال المقرئ وبعض الإشارات المتناثرة.

مثل العديد من العلماء عبر التاريخ، وُجهت إلى عباس بن فرناس اتهامات بالسحر، وحوكم بتهمة «الزندقة والفساد». وبحسب المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان، أثارت اختراعات ابن فرناس الرائدة غيرة رجال الدين وشكوكهم، خاصةً بعد تجربته الشهيرة بالطيران، والتي عززت صورته في أعين البعض باعتباره «مارقًا يمتلك قوى خارقة للطبيعة». ومع ذلك، تدخل القاضي الشهير سليمان بن الأسود الرافعي في القضية، وقام بدراسة الادعاءات بدقة. وفقًا لما ذكره عنان، «لم يتأثر القاضي بالأقاويل المغرضة. وحرصًا على اتخاذ قرار عادل، طلب مشورة مجموعة من العلماء والخبراء. وبعد المداولات، خلص إلى أنه لا توجد أي تهمة يمكن إثباتها ضد ابن فرناس، وأصدر حكمًا بتبرئته وإطلاق سراحه». ورغم مغامراته الجريئة، عاش العالم الأندلسي حياة طويلة امتدت إلى سن الشيخوخة، بين ٧٧ إلى ٨٠ عامًا. واليوم، يحمل اسمه

العديد من المطارات والجسور والتلال والحدائق والطرق، فضلاً عن الهيئات العلمية، لا سيما في البلدان ذات الروابط التاريخية مع العالم العربي. لكن التكريم الأبرز الذي سيخلد ذكره إلى الأبد هو إطلاق اسم ابن فرناس على إحدى الفوهات القمرية، لتبقى شاهدة على إنجازاته وإرثه العلمي الخالد.

الخوارزمي (١٦٤ - ٢٣٥هـ / ٧٨٠م - ٨٥٠م)

كما هو الحال غالباً عند التعامل مع الشخصيات التي عاشت منذ زمن بعيد، فإنه من الصعب للغاية تحديد مكان ولادتهم وتاريخها على وجه اليقين. ولا تشكل حالة ابن موسى الخوارزمي استثناءً من هذه القاعدة. وإذا ما رجعنا إلى بعض المعلومات المستقاة من بعض الإشارات المختصرة في الأعمال الببليوغرافية الإسلامية، فإن اسم «الخوارزمي» يشير إلى أنه كان في الأصل من خوارزم، وهي واحة شاسعة تقع على مفترق طرق القوافل، جنوب بحر آرال، بين أوزبكستان وتركمانستان الحالية. وهذا التفسير تؤكد به بعض المصادر التي تؤكد أن أصله بالفعل من خوارزم.

لكن المؤرخ البريطاني جيرالد جيمس تومر^(١) أشار في إحدى مقالاته إلى أن الطبري لقّب الخوارزمي بـ«القُطْرُبَلِي»، مما يعني أنه ربما كان من منطقة تُعرف بـ«قُطْرُبُل»، الواقعة بين نهري دجلة والفرات، بالقرب من بغداد. وفقاً لهذا الرأي، فإن أجداده فقط، وليس هو نفسه، كانوا من خوارزم^(٢).

(١) G. J. Toomer, *Biography in Dictionary of Scientific Biography* السيرة الذاتية

New York, 1970-1990. في معجم السيرة الذاتية العلمية]

(٢) الطبري، «تاريخ الأنبياء والملوك». مرجع سابق.

إضافة إلى ذلك، ذكر الطبري لقبًا آخر للخوارزمي، وهو «المجوسي»، وهو نفس اللقب الذي أُطلق على بعض العلماء، مثل مؤلف الكتاب الملكي -أحد أبرز الأعمال الطبية في التاريخ الإسلامي- «علي بن العباس المجوسي». يشير هذا اللقب إلى أن الخوارزمي ربما كان من أتباع الزرادشتية القديمة قبل أن يعتنق الإسلام. أما مؤرخ العلوم المصري رشدي راشد^(١)، فقد قدّم تفسيرًا مغايرًا تمامًا لما ورد في كلام الطبري، كما نقل ذلك الباحث جيرالد تومر.

ويفسر رشدي راشد النص قائلاً: يجب قراءة كلام الطبري على النحو التالي: «محمد بن موسى الخوارزمي والمجوسي القُطْرُبُلِّي». حيث يرى راشد أن حرف العطف «واو» قد تم إسقاطه في النص الأولي، مما يعني أننا نتحدث عن شخصيتين مختلفتين: الخوارزمي والمجوسي القُطْرُبُلِّي. ويشير راشد إلى أن هذا الالتباس لم يكن ليجتاز إلى توضيح، لولا استنتاجات غير دقيقة تم استخراجها عن شخصية الخوارزمي وأصول علمه. ويعلق قائلاً: «في مقاله، اعتمد تومر بثقة مفرطة على هذا الخطأ، لينتج استنتاجات مبتكرة لكنها تظل خاطئة في جوهرها». كما أشار جون ج. أوكونور وإدموند ف. روبرتسون^(٢) إلى أن: «هذا ليس الخلاف الأخير الذي نواجهه عند محاولة تتبع حياة الخوارزمي وأعماله».

مع ذلك، هناك أمر واحد مؤكد: أننا لا نعرف شيئًا عن الخوارزمي

(١) تاريخ العلوم العربية، المجلد ١: علم الفلك النظري والتطبيقي، سوي ١٩٩٧، ولعشاق الرياضيات، ننصح بشدة بمقالة محمد راشد «الإسلام والحضارة الإسلامية»، (الموسوعة العالمية).

[تاريخ الرياضيات: فهارس السير *History of Mathematics: Biographical Indexes* (2) University of St Andrews. الذاتية]

قبل عام ٢٠٥هـ / ٨٢٠م، وهو التاريخ الذي يظهر فيه في بغداد تحت خلافة المأمون (١٧٠ - ٢١٨هـ / ٧٨٦ - ٨٣٣م)، في «بيت الحكمة». حيث كان يعمل مع العديد من زملائه البارزين، مثل الإخوة بنو موسى الذين تم ذكرهم سابقًا. ويعكس تعليق عالم الرياضيات والمستشرق لويس بيير سيديو^(١) (١٢٢٣ - ١٢٩٢هـ / ١٨٠٨ - ١٨٧٥م) على تلك الفترة الروح العلمية السائدة، قائلاً: «ما يميز مدرسة بغداد في أيامها الأولى هو الروح العلمية الحقيقية التي تسود عملها؛ الانتقال من المعلوم إلى المجهول، والتعرف على الظواهر بهدف الانتقال من الآثار إلى الأسباب، والاعتراف فقط بما أثبتته التجربة. هذه هي المبادئ التي علّمها الأساتذة، وكان العرب في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي قد امتلكوا ناصية هذه الطريقة المثمرة التي ستصبح لاحقًا في يد العلماء المحدثين أداة لأعظم اكتشافاتهم».

ونظراً لحرص الخليفة المأمون على تحري جميع مجالات المعرفة والإيمان، مع عدم الحكم إلا بعد سماع مختلف وجهات النظر. لم يكن فكر الخليفة مرادفًا للتعصب أو العقلية المتحجرة؛ فقد كان يؤكد دائماً على الروابط الممكنة مع الثقافات والأديان الأخرى، بينما كان يندد بالتشدد الديني والانغلاق الفكري. بالنسبة للمأمون، في نظره، لم يكن الالتزام بتعاليم الدين الإسلامي يتعارض بأي حال من الأحوال مع حرية الفكر والفضول للتعلم عن العالم الخارجي والاطلاع بجميع أنواع

(1) *Histoire générale des Arabes: leur empire, leur civilisation, leurs écoles philosophiques, scientifiques et littéraires*، إمبراطوريتهم، [التاريخ العام للعرب؛ إمبراطوريتهم، مدارسهم الفلسفية والعلمية والأدبية] Dans la série *Histoire Universelle*, publiée par une société de professeurs et de savants sous la direction de F. Doroy, 1854.

المعارف. بل كان يثمن آراء المعتزلة^(١) الذين أكدوا على مسؤولية الإنسان ودور العقل في دعم الإيمان.

موهوب بهذه الصفات الفريدة، ومحفزًا دائمًا بحاجته «للفهم»، كان من الطبيعي أن يستدعي الخليفة الخوارزمي ذات يوم ليطلب منه وضع طريقة مبسطة في الحساب، لمساعدة رعاياه على حفر القنوات، وتقسيم الأراضي، وتقدير الأثمان، وتسوية مشاكل الميراث وفق النسب التي حددتها الشريعة الإسلامية، وغيرها من المهام. وكان ذلك في العام الذي بدأ فيه الخوارزمي العمل على الفور على تأليف الكتاب الذي سيمنحه شهرة عالمية. وكان عنوانه: «المختصر في حساب الجبر والمقابلة». هذا الكتاب كان العمل التأسيسي لما سيطلق عليه فيما بعد «الجبر». وكلمة «الجبر» في اللغة العربية تعني «إعادة البناء» أو «جمع الأجزاء المكسورة»، وهو ما انعكس في التسمية المستخدمة في العديد من اللغات الغربية مثل «algèbre» بالفرنسية. تعليقًا على هذا التكليف، يقول الخوارزمي: «عشق العلم، وما من الله به على المتعلمين من اللطف والتلطف، وسرعة حمايته وتأييده لهم في إيضاح الغامضات وتذليل الصعاب، دفعني إلى تأليف مصنف مختصر في الحساب، مقتصرًا فيه على ما هو أسهل وأنفع في الحساب». من المهم أن نذكر في هذا السياق أن الناس في زمن الخوارزمي في زمن الخوارزمي (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، كان العرب والمسلمون يعتمدون على نظام

(١) المعتزلة فرقة كلامية إسلامية نشأت في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري)، وتبنت منهجًا عقلانيًا في تفسير العقيدة الإسلامية. اشتهروا بتقديم العقل على النقل في المسائل الدينية، وأكدوا على العدل والتوحيد كأهم أصولهم. من أبرز أفكارهم الإرادة الحرة للإنسان، حيث قالوا إن الإنسان مسؤول عن أفعاله، ونفوا الجبرية. كان لهم تأثير كبير في العصر العباسي، لكن نفوذهم تراجع بعد القرن التاسع الميلادي.

الأرقام الهندية، والتي عُرفت لاحقًا في الغرب باسم «الأرقام العربية». الخوارزمي نفسه كان له دور كبير في نشر وتطوير هذا النظام العددي، وألّف كتابه الشهير «كتاب الحساب الهندي»، الذي أسهم في تعريف العالم الإسلامي والأوروبي بهذا النظام. وفي ذلك الوقت كانت الأرقام الرومانية تُستخدم في أوروبا، مما كان يُعد أمرًا شاقًا للغاية.

لكنه، استنادًا إلى نظام الترقيم العشري الذي اخترعه الهندوس، توصل الخوارزمي إلى فكرة مبتكرة لتمثيل أي عدد باستخدام عشرة رموز بسيطة فقط. قوام الفكرة هو استخدام الأرقام من ١ إلى ٩، بالإضافة إلى الصفر لتمثيل جميع الأعداد من ١ إلى ما لا نهاية. وكان الرقم صفر ذا أهمية خاصة، لأنه كان يُستخدم لتكوين أرقام العشرات والمئات. أما جبر الخوارزمي، فهو ليس الجبر الذي نعرفه اليوم؛ بل كان بلاغيًا وبلا أي رمزية حتى بالنسبة للأرقام. فقد أطلق على العدد البسيط «الدرهم» (عملة ذلك الوقت)، وعلى المجهول «الشيء». وقد تمثل أسلوبه في اختزال جميع المعادلات إلى واحدة من المعادلات الست الحسابية التي كان يعرف حلها. باختصار، كان أسلوبه يتمثل في اختزال المعادلات الست الحسابية التي كان يعرف حلها إلى معادلة واحدة، بدلاً من استخدام ست معادلات مختلفة في كل مرة.

لتنفيذ هذا، قام الخوارزمي بابتكار مجموعة من القواعد الحسابية التي مكّنته من حل المسائل باستخدام عدد محدود من العمليات. وبعبارة أخرى، وضع «الخوارزمية»^(١) - وهو المصطلح المشتق من اسمه «الخوارزمي». لهذا السبب، يُعتبر من الأنسب أن يُطلق عليه لقب «أبو

(١) لعدم وجود تاريخ دقيق لميلاده، فإن مادة «الخوارزمية» تظل مرتبطة بالخوارزمي بلا منازع. وأشهر خوارزمية رياضية معروفة هي خوارزمية إقليدس، الذي يُعتقد أنه عاش حوالي عام ٣٠٠ قبل الميلاد.

الجبر» أكثر من ديوفانتوس، عالم الرياضيات الإسكندري في القرن الثاني الميلادي، لأنه كان أول من قدم الجبر في شكله الأولي. انتشر عمله بسرعة بفضل ليوناردو فيبوناتشي، عالم الرياضيات الإيطالي، الذي وجه الأوروبيين وشجعهم على تبني الأرقام في هيئتها العربية. ظهر اسم الخوارزمي في كتاب فيبوناتشي «Liber abaci» - يُعرف باللغة العربية باسم «كتاب الحساب»- الذي نشر في عام ٥٩٨هـ / ١٢٠٢. لكن من المثير للدهشة أن الأرقام العربية التي قدمها الخوارزمي لم تحظَ بترحيب كبير في الغرب؛ حيث أصدرت فلورنسا قانونًا في عام ١٢٩٩م يحظر استخدام هذه الأرقام، ولم تُستخدم سوى في الجامعات.

لم يكن الخوارزمي مجرد عالم رياضيات؛ بل كان له أيضًا إسهامات كبيرة في مجالات متعددة، من بينها الجغرافيا. فكان له مخطوطًا في الجغرافيا ساهم من خلاله بتحديد مواقع جغرافية دقيقة لـ ٢,٤٠٢ موضع على سطح الأرض باستخدام خطوط الطول والعرض، استنادًا إلى مؤلفات بطليموس الفلكي. هذا الكتاب يُعد مرجعًا هامًا في مجال الجغرافيا خلال تلك الحقبة. كما قام الخوارزمي بترتيب المدن والبحار والجبال والجزر والأنهار مع تحديد إحداثياتها بشكل دقيق، مما جعل عمله أكثر تفوقًا على خرائط بطليموس في المناطق التي كان يمتلك فيها معرفة محلية، مثل مناطق العالم الإسلامي وأفريقيا والشرق الأقصى. من جهة أخرى، كان للخوارزمي دور بارز في مشروع المأمون لتحديد محيط الأرض، حيث أشرف على ٧٠ جغرافيًا للعمل على مشروع رسم خريطة للعالم المأهول في ذلك الوقت.

بالإضافة إلى إسهاماته الرئيسية في الرياضيات والجغرافيا، كتب الخوارزمي أيضًا العديد من الأعمال الصغيرة التي تناولت مواضيع متنوعة مثل الإسطرلاب والمزولة. من بين هذه الأعمال، رسالته حول التقويم اليهودي بعنوان «رسالة في استخراج العصر اليهودي». لم يكن اهتمامه

بهذا الموضوع مستغرباً بالنسبة لعالم فلك ممارس مثله، حيث قدم الخوارزمي في هذه الرسالة وصفاً دقيقاً للتقويم اليهودي، بما في ذلك دورة التقويم التي تفصل بين السنوات الـ ١٩. كما عرض الخوارزمي في رسالته قواعد تحديد يوم الأسبوع الذي يقع فيه اليوم الأول من شهر تشرى (هو الشهر السابع في التقويم العبري اليهودي)، وأجرى حسابات حول الفترة الفاصلة بين تاريخ خلق آدم عليه السلام والحقبة السلوقية. كما قدم طريقة لحساب متوسط خطوط الطول للشمس والقمر باستخدام التقويم اليهودي. على الرغم من أن العمل كان صغيراً، إلا أنه يعد دقيقاً ومفيداً، ويعتبر دليلاً هاماً على تاريخ التقويم اليهودي^(١).

وأخيراً، جمع الخوارزمي أيضاً مجموعة من الجداول الفلكية استناداً إلى مجموعة متنوعة من المصادر الهندوسية واليونانية. تضمن هذا العمل جدولاً للجيوب وجيوب التمام (مصطلحات هندسية)، من الواضح أنه لدائرة نصف قطرها ١٥٠ وحدة. وقد تُرجم هذا العمل الفلكي (أو مراجعة أندلسية له) إلى اللاتينية، مثله مثل أطروحاته في الجبر الهندوسي العربي والأعداد. وقد توفي الخوارزمي عالم الرياضيات الفذ هذا في بغداد حوالي عام ٢٣٦هـ / ٨٥٠م.

إثر نشر «المختصر في الجبر» انكبّ عليه عدد من المؤلفين وعلقوا عليه على نطاق واسع. وللأسف، لم يُعثر حتى الآن على أي من هذه الشروح التي تعود إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. إلى

(1) David A. King, "Astronomy and Islamic Society" [علم الفلك والمجتمع] in Régis Morelon and Roshdi Rashed (eds.), *Histoire des Sciences Arabes: Volume I, Astronomie Théorique et Appliquée* [تاريخ العلوم العربية: المجلد الأول، علم الفلك النظري والتطبيقي]، Éditions du Seuil, 1997.

جانب هذه الأعمال المفقودة، أُنتِجَت كتابات أخرى كانت سمتها المشتركة ملاحظة التداخل بين الجبر العربي والهندسة اليونانية. أما أوروبا، من جانبها، فقد استغرقت خمسة قرون (من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر الميلاديّين) للتعرف على هذا النظام الجديد ودراسته واستيعابه وممارسته، قبل أن تشهد انفجارًا حقيقيًا في الإبداع في القرن السابع عشر. وعلى غرار ابن فرناس، هناك فوهة على الجانب البعيد من القمر تحمل اسمه، اعتمده الاتحاد الفلكي الدولي (IAU) رسميًا في عام ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

ابن الهيثم أو أبو علي الحسن بن الهيثم المعروف في اللاتينية بالحازن (٣٥٤ - ٤٣٠هـ / ٩٦٥ - ١٠٣٩م)

في القاهرة وفي أحد أيام عام ٤١٢هـ / ١٠٢١م، دَوَّت صرخة مدوية في المنزل المطل على ضفاف النيل، جعلت الحمام والعصافير تطير مذعورة نحو السماء: مات! مات الخليفة!

سقط قلم ابن الهيثم من يده على الأرض من شدة الدهول. رفع عينيه إلى الخادم الذي كان يلهث وهو يكرر:

«مات الحاكم! الحاكم؟»

ثم قال ابن الهيثم: كيف يعقل هذا؟ لقد كان في الخامسة والثلاثين من عمره، ولم أسمع يومًا أنه كان مريضًا!

أجاب الخادم بسرده لإشاعة تقول إنه كان يمشى في مكان غير بعيد عن المقطم برفقة اثنين من فتيان الإسطنبول، ولكن فجأة غاب عن الأنظار. بحثوا عنه طويلاً ولم يجدوه، وعندما عادوا إلى القصر في الصباح، عثروا على ملابسه ملطخة بالدماء وعليها آثار طعنات، ولكن

لم يجدوا جثته. يقال إن أخته غير الشقيقة، ست الملك، هي التي أمرت بقتله؛ لأنها كانت تشعر بالتهديد.

نهض ابن الهيثم من مكتبه واتجه بخطوات هادئة نحو الحديقة. وقف للحظة مستشعراً الهواء من حوله، ثم ارتسمت ابتسامة على شفثيه وهمس لنفسه: أنا حر... حر أخيراً!

في تلك اللحظة، كان العالم الرياضي سعيداً. لقد انتهت الآن سنوات من التظاهر بالجنون، سنوات كان فيها مكبلاً تحت رقابة مشددة بأوامر الحاكم. وأخيراً، أصبح حرّاً ليستأنف عمله العلمي دون قيود.

عشر سنوات عاشها ابن الهيثم تحت الإقامة الجبرية، بأمر من الخليفة الحاكم بأمر الله، الذي اشتهر بجنونه وقراراته الغريبة. لم يكن ينبغي لعالم الرياضيات أن يوافق على دعوة الأمير قبل عشر سنوات للقدوم إلى القاهرة، حيث أراد الخليفة أن يرى كيف يمكن لابن الهيثم أن ينظم فيضان النيل. كان ابن الهيثم قد أعلن أثناء إقامته في البصرة: «لو أتيت لي الفرصة، لابتكرت حلاً لتنظيم فيضان النيل»، فقد تصور أنه قادر على ترويض النهر عبر بناء سد وخزان يتحكمان في تدفق المياه. ولكن بمجرد وصوله إلى مصر، أدرك مدى تعقيد المهمة.

لنستمع إلى رواية أحد مؤرخي ذلك العصر عن اللقاء الذي جمع الخليفة بعالم الرياضيات الشهير^(١):

«توجه ابن الهيثم إلى مصر، حيث أمر الحاكم بأمر الله باستقباله استقبالاً حافلاً. وبعد أن استقر ليستريح من عناء السفر، استدعاه الخليفة وسأله عن وعده بتنظيم فيضان النيل. لم يكن أمام ابن الهيثم إلا الشروع

(١) أوردها رشدي راشد في كتاب «في سبيل العلم»، العدد ١٣. يسلط عمل رشدي راشد في فرنسا الضوء بشكل كامل على شخصية الحسن الاستثنائية.

في المهمة التي جاءت به إلى القاهرة. فتوجه إلى الجنوب، برفقة جماعة من الحرفيين والمهندسين المعماريين، ليعينوه في تنفيذ تصورات الهندسية. وعندما وصل إلى الجنادل، ذلك الموضع الشهير جنوب مدينة أسوان في صعيد مصر، حيث ينحدر ماء النيل من ارتفاع عالٍ، بدأ بمراقبة دقيقة لتدفق المياه، واختبر منابع النهر ومصبه، ليكتشف ابن الهيثم أن ما وعد به الخليفة كان مبنياً على افتراضات غير دقيقة.

عند عودته إلى القاهرة، أدرك ابن الهيثم أن عليه التفكير بحكمة لتجنب غضب الحاكم بأمر الله، الخليفة المعروف بتقلباته المزاجية وسلوكه غير المتوقع. وبدلاً من مواجهة مصير محتوم، قرر عالم الرياضيات العبقري التظاهر بالجنون. فقد علم أن الشريعة الإسلامية تحرم معاقبة المجنون، ليجد في هذا المخرج وسيلة لحماية نفسه. قرر الحاكم بأمر الله، عوضاً عن إعدامه أو نفيه، وضعه تحت الإقامة الجبرية. وهكذا، قضى ابن الهيثم عشر سنوات كاملة تحت المراقبة تحت قبضة خليفة اشتهر بقراراته الغريبة وحكمه المتقلب. تولى الحاكم بأمر الله السلطة عام ٣٨٦هـ / ٩٩٦م وهو في الحادية عشرة من عمره، بعد وفاة والده. وسرعان ما أظهر طبيعة متقلبة جعلت منه واحداً من أكثر الخلفاء إثارة للجدل. ففي عام ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م، أصدر سلسلة من القوانين التعسفية، فقد حظر تناول الخمر على الجميع، مسلمين ومسيحيين ويهوداً، وقام بتحويل بعض الكنائس في القاهرة إلى مساجد.

وفي خطوة غير مسبوقة، فرض تمييزاً واضحاً على أهل الذمة (غير المسلمين الذين يعيشون تحت حماية الدولة الإسلامية). أجبر الأقباط على ارتداء صليب حول أعناقهم، وألزم اليهود بتعليق جرس. كما فرض على الجميع ارتداء لباس أسود حتى في أوقات الاستحمام. لم تتوقف قراراته عند ذلك؛ فقد أمر بقتل جميع الكلاب في القاهرة، وأصدر تعليماته بأن يعمل الناس ليلاً ويستريحوا نهاراً. لكن أكثر أفعاله صدمة

كانت تدمير كنيسة القيامة في القدس عام ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م. في ظل هذا المناخ الصعب، كان على ابن الهيثم أن يتبع سبيل الحكمة والاحتياط للبقاء على قيد الحياة، منتظرًا الفرصة التي ستتيح له الحرية من جديد.

لا يسعنا إلا أن نتساءل عن الخلفية التعليمية لابن الهيثم. فقد وُلِدَ في مدينة البصرة، التي بلغت أوج ازدهارها بين القرن الأول والقرن الثاني الهجري (السابع وأوائل الثامن الميلادي). وقد بلغ عدد سكانها حينذاك حوالي ٤٠٠,٠٠٠ نسمة، وكانت تدين بازدهارها الاقتصادي لنشاطها النهري. كما اشتهرت بكونها مركزًا ثقافيًا من الطراز الأول، حيث دُرست فيها شتى العلوم، بما في ذلك النحو، وإعداد المعاجم، وعلم الفقه، والتصوف. وليس من المستغرب أن يكون الجاحظ (١٦٠-٢٥٥هـ / ٧٧٦-٨٦٩م)، اللغوي اللامع متعدد المواهب، أحد أعلام هذه المدينة. عندما وُلِدَ الحسن بن الهيثم حوالي عام ٣٥٤هـ / ٩٦٥م، كانت البصرة قد بدأت تشهد حالة من التدهور. فمنذ تأسيس بغداد على يد الخليفة المنصور في عام ١٤٥هـ / ٧٦٢م، فقدت المدينة مكانتها كحاضرة للعراق، وعانت من الاضطرابات الاجتماعية والسياسية.

مع ذلك، يُنظر إلى ابن الهيثم على أنه شخص اكتسب ثقافة قوية في كلا المجالين العلمي والديني. وبحسب بعض كتّاب السيرة، فقد اطلع على المؤلفات اليونانية الجوهريّة، لا سيما أعمال إقليدس (القرن الثالث قبل الميلاد)، وهيرون السكندري (القرن الأول الميلادي)، وأرخميدس (ت. ٢١٢ ق.م)، وبطليموس (ت. حوالي ١٦٨م). ويبدو أن هذا الاطلاع لم يكن ممكنًا إلا بفضل المكتبات المرموقة التي ترجع إلى زمن ازدهار البصرة كمركز ثقافي كبير، قبل أن ينالها التدهور. ولا شك أن ابن الهيثم كان ينتمي إلى إحدى العائلات الثرية في البصرة؛ تلك التي كانت وحدها قادرة على تحمل تكاليف التعليم. يُقال إنه تلقى تعليمه الأولي في أحد مساجد البصرة، التي كانت تضم مدرسة للتعليم، على

غرار المساجد في ذلك الوقت. وفيما بعد، بدأ ابن الهيثم دراسة الفلسفة والعلوم، قبل أن يتخصص في الفيزياء، والرياضيات، والفلك. وترد معظم المعلومات عن سيرته من كتابات المؤرخ العربي ابن القفطي (٥٦٧-٦٤٦هـ / ١١٧٢-١٢٤٨م) المؤرخة بالقرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. ومع ذلك، لا يذكر ابن القفطي تحديدًا متى عُيِّن ابن الهيثم قاضيًا في البصرة. وعلى أي حال، يبدو أن ابن الهيثم قد سُم هذا المنصب بسرعة، لأنه شغله عن أنشطته العلمية التي كانت محور اهتمامه الأكبر.

باعتباره مسلمًا تقيًا، أمضى ابن الهيثم جزءًا كبيرًا من حياته محاولاً في البحث في القضايا الدينية. وبحسب ابن القفطي، فقد انشغل منذ شبابه بمناقشة إشكالية الفرق الإسلامية المختلفة أثناء دراسته. ففي عصره، كما هو الحال اليوم، برزت فرقتان رئيسيتان في الإسلام عقب وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم: السنة والشيعة. بعد دراسة متعمقة للمذاهب الدينية المختلفة، كان ابن الهيثم يرى أن البحث العقلي ضروري لفهم العلوم الطبيعية، كما كان يؤمن بأهمية التحقق والتجربة، دون أن يتعارض ذلك مع قناعاته الدينية. ومن هنا جاءت الكلمات المنسوبة إليه: «إذا كان تعلم الحقيقة هو هدف العالم... فعليه أن يجعل من نفسه عدوًا لكل ما يقرأ». وكان يرى أن البحث والتجربة ضروريان للتحقق من صحة ما كُتب، بدلاً من الاعتماد على الافتراضات وحدها.

وخلال هذه الفترة أيضًا، أصبح ابن الهيثم مهتمًا بعمق بأعمال أرسطو. فقد كتب في سيرته الذاتية: «عندما اكتشفت ما قام به أرسطو، استغرقتني رغبتني في فهم الفلسفة بكل جوارحي»، فبدأ بتلخيص أعمال الفيلسوف اليوناني والتعليق عليها. ومن الجدير بالذكر أنه خلال السنوات العشر التي قضاها في إقامته الجبرية بالقاهرة، لم يستسلم وأنشغل بطلب العلم، بأن بذل جهدًا كبيرًا في استغلال وقت فراغه القسري. خلال تلك

الفترة، ألف ابن الهيثم عدة كتب في موضوعات متنوعة، شملت علم الفلك، الطب، طب العيون، الرياضيات، ومقدمة في المناهج العلمية. ومن بين هذه الأعمال، كتب أهم مؤلفاته «كتاب المناظر»، الذي عُرف باللاتينية باسم *De aspectibus*، وهو العمل الذي أكسبه لقب «أبو البصريات»، وستناوله بمزيد من التفصيل لاحقاً.

في كتابه «حل شكوك أقليدس»، تناول ابن الهيثم الحالات الخاصة لنظريات إقليدس، واقترح تركيبات بديلة، واستبدل بعض البراهين غير المباشرة بأخرى مباشرة، مما يُظهر قدرته الفذة على الابتكار والتحليل. أما في عمله الفلكي «تكوين العالم»، فقد قدّم وصفاً غير تقني لكيفية فهم النماذج الرياضية المجردة التي تناولها كتاب «المجسطي» لبطليموس، بما يتماشى مع الفلسفة الطبيعية السائدة في عصره. ورغم أن هذا العمل الأول له في علم الفلك وافق فيه ضمناً على أفكار بطليموس، إلا أن ابن الهيثم عبّر لاحقاً عن نقده لها في كتابه «شكوك على بطليموس»، حيث خالف بعض نظريات المجسطي، مما يُظهر قدرته على مراجعة الأفكار السائدة وتحليلها بعين ناقدة.

بعد وفاة الخليفة، بقي ابن الهيثم في القاهرة، واختار الإقامة في منطقة بقرب جامع الأزهر، الذي ارتبط به ابن الهيثم، حيث كان الجامع الأزهر وجامعة القاهرة. هل قام ابن الهيثم بتدريس الرياضيات والفيزياء في الأزهر؟ وهل كان يكسب المال من نسخ النصوص العلمية؟ هذه الاحتمالات ليست مستبعدة. على أي حال، ما نعلمه بالتأكيد هو أنه واصل أبحاثه العلمية بنشاط، وأن العديد من معاصريه في القاهرة استشهدوا بأعماله، مما يدل على تأثيره الكبير في مجالات العلوم خلال تلك الفترة.

لكن دعونا نعود إلى العمل الرئيسي لابن الهيثم «كتاب المناظر»،

وهو العمل الذي أكمله حوالي عام ٤١١هـ / ١٠٢١م، بعد ست سنوات من الجهد المستمر في الكتابة. كيف كان هذا العمل ذو أهمية فريدة؟ لفهم أهميته علينا أن نعود بالتاريخ لفترة ما قبل ابن الهيثم، حين كانت هناك مدرستان فكريتان منذ العصور القديمة في مجال علم البصريّات. بحسب أرسطو وتلاميذه، كانت العين ترى بفضل الضوء الذي تسلطه على الأجسام المحيطة بها. أما ابن الهيثم، فقد خالف هذه النظرية جذرياً، حيث أثبت بالتجربة أن الأشعة لا تنبعث من العين، بل تأتي من الأجسام الموجودة في مجال الرؤية. فقد أوضح أن العين تستقبل الأشعة الضوئية المنعكسة من الأجسام بشكل سلبي، ولا تطلق أشعة كما اعتُقد سابقاً. بالإضافة إلى ذلك، أثبت ابن الهيثم من خلال التجربة أن الضوء ينعكس من الجسم إلى العين، والتي تشكّل صورة مقلوبة لهذا الجسم. كان لهذا الاكتشاف تأثير كبير على فهم عملية الإبصار، وقاد لاحقاً العالم «يوهانس كبلر» إلى صياغة آلية تكوين الصورة في شبكية العين. وفي خطوة أبعد من ذلك، استخدم ابن الهيثم البراهين الهندسية لإثبات كيف تمكّننا الرؤية المجهرية من فهم المسافات التي تفصلنا عن الجسم الذي ننظر إليه، بالإضافة إلى أبعاده. وفي رأيه، لم تكن العدسة البلورية العضو الوحيد المسؤول عن الإبصار، بل كانت جزءاً من عملية أكثر تعقيداً تشمل انتقال الأشعة إلى الدماغ عبر العصب البصري. فقد بيّن أن الصورتين اللتين تشكلهما العدسة في كل من العينين تنتقلان عبر الأعصاب البصرية (التي شبهها بأنابيب)، وتلتقيان عند التقاطع البصري. بعد هذا الاندماج، تنتقل الصورة إلى أجزاء مختلفة من الدماغ لتحليلها.

ولكي تكون الصورة التي يدركها الدماغ ذات صلة في توجيه أفعالنا اليومية، يجب أن تعكس ترتيب الأشياء في العالم الحقيقي. فكيف يمكن للإنسان أن يتحرك بتنسيق، يلتقط الأشياء، أو يصعد درجات السلم، إذا كانت الصور التي يدركها معكوسة وغير مطابقة للواقع؟ الجدير بالذكر أن

ابن الهيثم قدّم تفسيراً مذهلاً لهذه الظاهرة، لكن حل لغز انعكاس الصورة الشبكية وتأثيرها على الإدراك لم يكتمل إلا في القرن العشرين، رغم أن اكتشاف هذه الظاهرة بدأ يُدرس بعمق منذ القرن السابع عشر.

في كتابه «المناظر»، الذي يُعد أبرز المراجع في علم البصريات، وصف ابن الهيثم طريقة عمل العدسة في الكاميرا الحديثة، المعروفة اليوم بـ«الغرفة المظلمة». وقد شرح فكرتها بوضوح: غرفة مغلقة تماماً أمام الضوء، يتم فيها عمل ثقب صغير موجه نحو مشهد مضاء إضاءة ساطعة. وأوضح أن أشعة الضوء القادمة من الخارج تعبر هذا الثقب لتخلق صورة مقلوبة للمشهد داخل الغرفة المظلمة.

كما يوصف هذا النابغة بأنه أحد أعظم علماء الفيزياء في كافة العصور، حيث ترك بصمة لا تُمحى في مجالات متعددة، كان لها أثر عظيم على اختراع التلسكوبات والكاميرات والمجاهر (جمع مجهر). فقد أسهم وصفه الدقيق لكيفية عمل العين في إحداث طفرة كبيرة في علم طب العيون وجراحة الشبكية. ومع ذلك، يبدو أن كتابه العظيم «المناظر» قد أُهمل لفترة طويلة في الشرق حتى نُشر التعليق الذي أعده عالم الرياضيات حسن الفارسي (توفي عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م). كما أسهمت في إعادة إحياء هذا العمل ترجمة لاتينية للكتاب، أُنجزت على يد عالم مجهول في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. هذه الترجمة، التي كانت حرفية أحياناً وتفسيرية أحياناً أخرى، لعبت دوراً محورياً في التأثير على الفكر الأوروبي، حيث ألهمت مفكرين بارزين في القرن الثالث عشر، مثل الفيلسوف والعالم الإنجليزي روجر بيكون (ت. ٦٧٢هـ / ١٢٩٢م)، بالإضافة إلى علماء لاحقين، مثل عالم الفلك الألماني يوهانس كبلر (ت. ١٠٣٩هـ / ١٦٣٠م).

يتضمن الكتاب أيضاً «مسألة ابن الهيثم» الشهيرة، التي تتناول كيفية

تحديد النقطة على سطح مرآة كروية التي ينبغي أن يُوجه إليها شعاع ضوئي، بحيث ينعكس ويصل إلى نقطة محددة أخرى. يمكن تشبيه هذه المسألة بمشكلة أكثر تخيلاً: «على طاولة بلياردو دائرية، ما الاتجاه الذي يجب أن تُرسل فيه الكرة بحيث ترتد عن حافة الطاولة وتصل إلى الكرة الهدف؟» وقد كانت الإجابة عن هذه المسألة موضع بحث طويل حتى تمكن بيتر نيومان، عميد كلية الرياضيات بجامعة أكسفورد، من إيجاد حل لها في عام ١٩٩٧.

في عام ٢٠١٥، أعلنت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) «العام الدولي للضوء والتقنيات الضوئية»، وهو ما أتاح فرصة مميزة لتسليط الضوء على الإرث العلمي العظيم الذي خلفه العالم المسلم ابن الهيثم. كان ابن الهيثم عالماً غزير الإنتاج، إذ كتب أكثر من ٢٠٠ مؤلف في مجالات متنوعة، وصل إلينا منها ما لا يقل عن ٩٦ عملاً علمياً، بقي منها حوالي ٥٠ مؤلفاً حتى يومنا هذا. من أبرز هذه الأعمال: كتاب المناظر، رسالة في الضوء، ميزان الحكمة، رسالة في مركز الجاذبية، شكوك حول بطليموس، تكوين العالم، نماذج حركة الكواكب السبعة. وقد توفي ابن الهيثم في القاهرة نحو عام ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م.

ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٩هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦م)

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، واحد من أعظم المفكرين في تاريخ البشرية. ورغم أن العديد من البلدان تدعي نسبه إليها، سواء كانت أصوله تونسية، مغربية، مصرية، إسبانية، أو سورية، إلا أن حقيقة هويته تتجاوز الحدود الجغرافية. وبفضل مؤلفاته، أصبح ابن خلدون بعلمه وفكره ملكاً للبشرية جمعاء.

وُلد في تونس، لكنه ينحدر من أصول حضرمية، كما يتضح في

اسمه ونسبه. فهو ينتمي إلى أسرة يمنية كانت قد استقرت في تونس بعد الهجرة من حضرموت في اليمن. على الرغم من أنه كان تونسياً من حيث المولد والنشأة، فقد كانت أسرة ابن خلدون قد هاجرت من اليمن بلاد أخرى. وقد هاجر أجداد ابن خلدون من جنوب الجزيرة العربية في الثاني الهجري/ القرن الثامن الميلادي، حيث استقروا أولاً في مدينة كارمونا في الأندلس قبل أن ينتقلوا إلى إشبيلية. هناك، اعتُبرت عائلتهم واحدة من أرقى وأهم العائلات في المدينة، وقد وصفها ابن حزم وغيره من المؤرخين بأنها كانت تتمتع بمكانة رفيعة. استمر ازدهار الأسرة الخلدونية دون انقطاع طوال فترة حكم الأمويين، وظلت تحتفظ بمكانتها الرفيعة حتى انقسام إسبانيا إلى عدة ممالك مستقلة.

على مدار القرون الأربعة التالية، شغل أفراد عائلة خلدون المناصب الإدارية والسياسية الرفيعة في عهد الأمويين والمرابطين والموحدين. كما شارك بعضهم في الحياة العسكرية، وكان منهم من لقي حتفه في معركة الزلاقة عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٦م، تلك المعركة التي شهدت انتصار العرب على قوات استرداد شبه جزيرة أيبيريا، مما أدى إلى وقف زحفهم. لكن فترة الهدوء لم تدم طويلاً. ففي ١٦ يوليو ١٢١٢م الموافق لعام ٦٠٩هـ في معركة لاس نافاس، ألحق الجيش المسيحي بقيادة ملك قشتالة، ألفونسو الثامن، وألفونسو الثاني ملك البرتغال، هزيمة قاسية بقوات الخليفة يعقوب بن يوسف الموحدي (٥٩٥ - ٦٢٢هـ/ ١١٩٩ - ١٢٢٤م). كانت هذه الهزيمة بداية تدهور هيبة الموحدين، ما جعل آل خلدون يشعرون بأن نهاية إسبانيا الإسلامية باتت وشيكة. لذا، قرروا في عام ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، أي قبيل سقوط إشبيلية وقرطبة، عبور مضيق جبل طارق للاستقرار مؤقتاً في سبتة التي تقع على الساحل الشمالي للمغرب.

ثم انتقلت العائلة إلى تونس في الثامن الهجري/ القرن الثالث عشر الميلادي، حيث وُلد ابن خلدون في ٢٧ مايو ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م، في الحي

الذي يُعرف الآن باسم «الخلدونية»، حيث لا يزال من الممكن رؤية مكان ولادته دون تغيير تقريباً. تمتع اللاجئين من إسبانيا في تونس بمكانة اجتماعية واقتصادية أعلى بكثير من سكان شمال إفريقيا المحليين، وسرعان ما دعت العائلة لشغل مناصب إدارية رئيسية في الحكومة. تجدر الإشارة إلى أن ملوك المرينيين كانوا يحكمون المغرب في تلك الفترة، حيث اجتذب البلاط عدداً من العلماء المشهورين. بعد ذلك بخمس سنوات، أي في عام ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م، تخلى أبو بكر محمد بن خلدون - والد ابن خلدون - عن مهنته ليتفرغ لدراسة علم الكلام والفقه والأدب. يقول عنه ابن خلدون: «كان [أبي] متميزاً في معرفته بالعربية وله فهم للشعر في مختلف أشكاله، وأذكر جيداً كيف كان رجال الأدب يسألونه رأيه في المسائل الخلافية ويعرضون عليه مؤلفاتهم».

لذا، كان من الطبيعي أن يكون والده هو معلمه الأول، فقد كان له دور كبير في توجيه ابن خلدون نحو التعلم والمعرفة. بعد ذلك، واصل ابن خلدون دراسته على يد كبار معلمي مدينة تونس، الذين علموه النحو واللغة والشريعة والشعر. يقول ابن خلدون: «تربيت تحت نظر والدي حتى بلغت سن المراهقة. وتعلمت قراءة القرآن الكريم على يد معلم اسمه أبو عبد الله محمد بن سعد بن بورال الأنصاري، من مقاطعة بلنسية (في إسبانيا). تتلمذت على يد الأساتذة الأوائل في تلك المدينة وما جاورها، وتفوقت على جميع معاصري في معرفة الدروس القرآنية». يقدم ابن خلدون في سيرته الذاتية سرداً مفصلاً عن تعليمه، حيث ذكر الكتب الرئيسية التي قرأها، ووصف أساتذته ومؤلفاتهم. حفظ القرآن الكريم، ودرس الأحاديث النبوية، وتعمق في الفقه، كما اطلع على روائع الأدب العربي. لقد اكتسب أسلوباً واضحاً وجذاباً، بالإضافة إلى قدرته على كتابة الشعر، وهو ما سيكون ذا فائدة كبيرة له لاحقاً عندما يوجه قصائد المدح أو الاستجداء إلى الحكام الذين قابلهم في مسيرته.

من الملاحظ غياب كتب الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والعلوم الاجتماعية الأخرى من قائمة دراسته، لكن هذا لا يعني أنه لم يتطرق لهذه المواضيع في وقت لاحق. فمن المعروف أنه كتب ملخصات لعدة مؤلفات لابن رشد. يمكننا أن نفترض أنه بدأ يولي اهتمامًا لهذه الموضوعات بعد أن أكمل تعليمه الأساسي.

حوالي منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، كتب ابن خلدون موضحاً أنه وقع طاعون قاتل أذاق الأمم سوء العذاب، هلك جزءاً كبيراً من هذا الجيل، واجتاح ودمر أرقى منجزات الحضارة. وقد ظهر عندما كانت الإمبراطوريات في فترة انحطاطها واقتربها من نهاية حياتها. حطمت هذه الجائحة معنوياتهم، وسحبت من عزيمتهم، وأضعفت قوتهم، إلى درجة تهديدهم بالدمار الكامل. توقفت فلاحه الأرض لقلة الرجال، وخلت المدن من السكان، وتهدمت المباني، واندثرت الطرق، واختفت الآثار، وبقيت البيوت والقرى بلا سكان، وفقدت الأمم والقبائل قوتها، وتغيرت ملامح المساحات المزروعة.

أثناء هذه المأساة، فقد ابن خلدون أباه وأمه. وفيما كان لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، حضر محاضرات ألقاها العلماء الذين كانوا ضمن حاشية السلطان المريني أبو الحسن (٧٣٣ - ٧٥٠هـ / ١٣٣٣ - ١٣٤٩م). استفاد ابن خلدون من هذه المحاضرات في إتقان معرفته بالمنطق والفلسفة وعلم الكلام، وغيرها من فروع الفصاحة العربية. وتفسر الروابط التي أقامها في ذلك الوقت مع العلماء وكبار المسؤولين في البلاط المريني سبب دعوته، بعد بضع سنوات حوالي عام ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م، إلى بلاط فاس من قبل السلطان أبو عنان فارس (٧٣٠ - ٧٥٩هـ / ١٣٢٩ - ١٣٥٨م) من الواضح أن العديد من الشخصيات البارزة كانت قد أوصت به بحرارة لدى السلطان. وفي المقابل لم يتردد ابن

خلدون في تلبية الدعوة، فقد كانت فاس في ذلك الوقت جوهرة التاج المغربي، وكانت قد حلت محل مراكش كعاصمة للمملكة. والأهم من ذلك كله، كانت موطنًا لجامع القرويين، أقدم جامع وجامعة في العالم لا تزال تعمل حتى اليوم. وجد الشاب نفسه عضوًا في المجلس الاستشاري بصفته عالمًا، وبعد سنة قرر السلطان تعيينه أمينًا للسر ومسؤولًا عن الطغراء أو التوقيع السلطاني، ومن ذلك الحين، بدأ ابن خلدون يخط بحروف كبيرة على المراسيم والرسائل السلطانية عبارة «الحمد لله والشكر لله» بين «بسم الله» وبقية النص.

لم تكن هذه المهمة من المهام التي استهوتته، لكنها وفرت له فرصة الاستفادة من دروس العلماء الذين تميزت بهم مدينة فاس. امتلك ابن خلدون قدرًا كبيرًا من الأناقة والحضور الطاعني، فضلاً عن ذكاء فطري ورشاقة في الفكر والهيئة، إضافة إلى بلاغة لغوية مذهشة مكنته من التعبير عن أفكاره بكلمات قليلة وبأسلوب سلس وبديع. وقد أضفى حسه النقدي وحيويته طابعًا مميزًا عليه، جعله محط إعجاب الشباب الآخرين الذين غالبًا ما امتلأت قلوبهم بالغيرة منه. كل هذه الخصال رفعت مكانته إلى مصاف الشخصيات البارزة في المملكة.

لكن فجأة، تدهور حال ووضع ابن خلدون بشكل غير متوقع، كما يحكي عن الأسباب قائلًا: «لقد منحني السلطان دليلًا واضحًا على رضاه عني، عندما سمح لي بالمشاركة في المناقشات الأدبية التي كانت تُعقد بحضوره. ولكن هذا الامتياز أثار قدرًا كبيرًا من الغيرة، فتكاثرت الوشايات ضدي حتى أشعلت في نفس الأمير نفورًا شديدًا تجاه شخصي بشكل لا يمكن وصف شدته. قرب نهاية عام ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م، مرض الأمير، ولم يمضِ وقت طويل حتى أمر باعتقاله». قد يكون من غير

المفيد الخوض في التفاصيل السياسية التي أدت إلى هذا القرار، ولكن يكفي أن نشير إلى أن ابن خلدون كان على صداقة مع الأمير الحفصي^(١) أبي عبد الله محمد، الذي كان معتقلاً في فاس وكان أمير بوجي (المعروفة اليوم بمدينة بجاية بالجزائر) سابقاً. يبدو أن السلطان لم يكن راضياً عن هذه العلاقة التي جمعت بينهما. كما يوضح ابن خلدون: «من باب الغيرة ومن حسن طالعي، قدم عدد من الأشخاص تقارير إلى أبي عنان زعموا فيها أن الأمير الحفصي يخطط للفرار إلى بوجي، وأني تعهدت بمساعدته على أمل أن أصبح وزيره الأول».

دام سجن ابن خلدون سنتين طويلتين ولم يُطلق سراحه إلا في سنة ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م، وذلك بعد وفاة السلطان أبو عنان فارس مخنوقاً على يد وزيره الحسن بن عمر. كان المؤرخ ابن خلدون قد أرسل إلى أبي عنان، قبل وفاته بقليل أثناء تواجده بتلمسان، قصيدة من حوالي مائتي بيت على شكل استجداء. ويبدو أن السلطان تأثر بها تأثراً شديداً، ووعده بأنه سيطلق سراحه بمجرد عودته إلى فاس. وفي اليوم التالي لوفاة أبي عنان، كان الحسن بن عمر، قاتله، هو الذي سارع إلى إطلاق سراح ابن خلدون وأعادته إلى وظائفه. سنتجنب هنا مرة أخرى الخوض في التفاصيل السياسية المعقدة التي تورط فيها ابن خلدون، ولكن يمكن الإشارة إلى أنه منذ سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م دخل فاس سلطان جديد، وهو أبو سالم بن إبراهيم (٧٦٠ - ٧٦٢هـ / ١٣٥٩ - ١٣٦١م). وكان ابن خلدون قد تقرب إليه منذ بعض الوقت. فما إن بُوع أبو سالم حتى جعله أمينه الخاص المسؤول عن صياغة مراسلاته. ومع ذلك، كانت حياة ابن خلدون، الذي يُعتبر مخترع علم الاجتماع، مقدرة أن تكون مليئة

(١) سلالة من أصل أمازيغي حكمت أفريقيا بين ١٢٢٨ و ١٥٤٧م.

بالاضطرابات والأحداث غير المتوقعة، من مجدٍ وانحطاطٍ على حد سواء.

بعد ذلك بعامين، أي في عام ٧٦٢هـ / ١٣٦١م، استولى وزير جديد، وهو عمر بن عبد الله، على عاصمة دولة بني مرين فاس. وحشد جميع المرينيين حوله وأمر بخنق السلطان أبو سالم. والمثير للدهشة أن هذا الانقلاب لم يؤثر على وضع ابن خلدون؛ بل على العكس، فقد أبقى الوزير الجديد على منصبه وزاد راتبه. ومع ذلك، لم يشعر ابن خلدون بالسعادة بهذه الترقية؛ ربما لأنه بدأ يمل من مخالطة أهل السلطة وأجواء البلاط. وبعد إلحاح شديد، حصل على إذن بمغادرة البلاط، لكن بشرط ألا يتوجه إلى تلمسان. قرر ابن خلدون حينها الذهاب إلى إسبانيا، حيث وصلها في نهاية شهر أكتوبر سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦٢م، بعد أن أرسل زوجته وأولاده إلى قسنطينة بالجزائر ليقيموا عند أحوالهم.

في ١٠ جمادى الأولى ٧٦٤هـ / ٢٧ ديسمبر ١٣٦٢م دخل ابن خلدون مدينة غرناطة جنوب إسبانيا، حيث تم استقباله بأبهة واحتفال كبيرين. فقد علم الأمير ابن الأحمر بوصوله، فأرسل موكبًا من التشريفات مكونًا من كبار موظفي البلاط لاستقباله. لم يكن ابن خلدون قد تجاوز الثلاثين من عمره، لكنه كان قد ذاع صيته بالفعل.

ويمكننا أن نستمر في استعراض سيرته الذاتية ومناقبه، لكن هذا يتطلب مجلدات. ويكفي أن نشير إلى محطات تاريخية في حياته ومنها:

* ٧٦٥هـ / ١٣٦٤م: قاد ابن خلدون بعثة دبلوماسية إلى الملك المسيحي بيدرو ملك إشبيلية (حكم بين ٧٥١هـ / ١٣٥٠م و٧٦٩هـ / ١٣٦٩م). وامتنانًا له عرض عليه الملك إعادة أراضي أجداده إليه، لكنه رفض العرض بأدب جم.

* ٧٦٦هـ / ١٣٦٥م: غادر غرناطة لتولي منصب وزير لدى أمير

الحفصيين في بجاية (الجزائر الحالية). وأُرسل في مهمة لجباية الضرائب بالقوة من القبائل البربرية في الجبال المحيطة.

* ٧٦٧هـ / ١٣٦٦م: بعد وفاة الأمير الحفصي، بايع ابن خلدون على الفور منافسه أبو العباس القسنطيني، لكنه سرعان ما فقد حظوته لديه.

* ٧٦٩هـ / ١٣٦٨م: رفض دعوة من السلطان أبو حمو موسى الثاني للحضور إلى تلمسان، مرسلاً أخاه يحيى بن خلدون بدلاً منه.

* ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م: أُلقي القبض عليه في فاس على يد الحاكم المريني عبد العزيز، خلال محاولته الهروب إلى غرناطة.

* ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م: بعد فترة من الاضطرابات السياسية في فاس، تمكن من الوصول إلى غرناطة. لكن بمجرد وصوله، تم نفيه وأعيد إلى شمال إفريقيا.

* ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م: لجأ إلى قبيلة أولاد عريف، التي آوته في قلعة على قمة جبل تُعرف بقلعة ابن سلامة، بالقرب من تغازوت في الجزائر الحالية.

وهناك اعتزل ابن خلدون كل شيء وأنشأ في أربع سنوات فقط العمل الذي كان أساس شهرته: كتاب العبر أو «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، ويُعرف اختصارًا باسم «كتاب العبر». وأهم ما جاء في هذا الكتاب المقدمة الشهيرة التي كتبها ابن خلدون، وتُعرف باسم «مقدمة ابن خلدون»، حيث يقول لنا: «أقمت في دار ابن سلامة المحصنة أربع سنوات وأنا أفكر في كل ما مضى من النكبات. خططت لهذا الكتاب وشرعت فيه، وبهذا العزم وتلك الظروف أكملت المقدمة.

* في عام ٧٨٠هـ / ديسمبر ١٣٧٨م، تصالح ابن خلدون مع الحاكم

الحفصي القوي أبو العباس لمعروف أيضًا باسم أبو العباس أحمد المستنصر، وعاد إلى تونس.

* في عام ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م طلب ابن خلدون الإذن للذهاب إلى الحج، ربما هروبًا من مؤامرات البلاط التي كانت تحيط به.

* في عام ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م وبدلاً من الذهاب إلى مكة المكرمة استقر في القاهرة، حيث أقام مع السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق^(١).

* في ربيع الأول ٧٨٥هـ / مارس ١٣٨٤م، عُيِّن ابن خلدون أستاذاً ومدرساً في مشيخة الأزهر الشريف.

* في شعبان ٧٨٥هـ / أغسطس ١٣٨٤م، عُيِّن ابن خلدون رئيساً للقضاة المالكية في مصر.

* في ذي القعدة ٧٨٥هـ / أكتوبر / نوفمبر ١٣٨٤م، توفيت زوجة ابن خلدون وبناته الأربعة في غرق سفينة أثناء توجههم للالتحاق به في القاهرة، بينما نجا ولده.

* في عام ٧٨٩هـ / الموافق ١٣٨٧م، ذهب ابن خلدون إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وعاد بعد ثمانية أشهر.

* في عام ٧٩١هـ / الموافق ١٣٨٩م، خُلع الظاهر سيف الدين برقوق من الحكم بسبب فتن داخلية.

* في عام ٧٩٢هـ / الموافق ١٣٩٠م، استعاد برقوق عرشه، وفقد ابن خلدون منصبه المريح كرئيس لخانقاه برقوق.

(١) السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق هو مؤسس الدولة المملوكية البرجية (الشركسية)، وقد حكم مصر لفترتين: الفترة الأولى: من عام ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م إلى عام ٧٩١هـ / ١٣٨٩م. الفترة الثانية: من عام ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م إلى عام ٨٠١هـ / ١٣٩٩م.

* في عام ٨٠١هـ / ١٣٩٩م، بعد تسع سنوات، عاد ابن خلدون قاضيًا مرة أخرى بعد أن استعاد حظوته لدى السلطان الجديد الناصر فرج ابن سيف الدين برقوق.

* في عام ٨٠٢هـ / الموافق ١٤٠٠م، حلّ منافس محل ابن خلدون في منصب قاضي القضاة المالكي.

* في عام ٨٠٣هـ / الموافق ١٤٠١م، غزا المغولي تيمورلنك سوريا، وخرج السلطان الناصر فرج لملاقاته على رأس جيش مملوكي، مصطحبًا ابن خلدون وغيره من الأعيان. وبعد ذلك بقليل، هُزم الجيش وفرّ السلطان، تاركًا ابن خلدون في دمشق المحاصرة.

مع تصاعد حدة الأزمة، بادر أعيان المدينة بفتح قنوات التفاوض مع تيمورلنك، الذي فاجأ الجميع بطلبه مقابلة ابن خلدون شخصيًا. ولتيم اللقاء، تم إنزال ابن خلدون من فوق سور المدينة باستخدام الحبال، ليقتضي ابن خلدون حوالي سبعة أسابيع في معسكر المغول، وهو ما وصفه بالتفصيل في سيرته التي تحدث فيها عن نفسه. أظهر تيمورلنك احترامًا كبيرًا تجاه ابن خلدون، الذي استغل الموقف بحنكته الدبلوماسية وبلاغته في التأثير على المحتل الشرس. وخلال لقائهما، طلب تيمورلنك من ابن خلدون تقديم وصف مفصل لشمال إفريقيا، فاستجاب المؤرخ ليس بمحاضرة قصيرة فحسب، بل أيضًا بتقرير مكتوب شامل حول المنطقة. في لحظة ودية، انتهز ابن خلدون الفرصة لطلب الأمان للأهالي المدنيين الذين تركوا في دمشق، إضافة إلى الحصول على إذن للعودة إلى مصر. وافق تيمورلنك على طلبه، إلا أن هذا لم يمنعه من تنفيذ نواياه المدمرة، إذ قام بنهب دمشق وإضرار النار في الجامع الأموي الكبير.

بعد عودته إلى مصر في عام ٨٠٤هـ وبالتحديد في مارس ١٤٠١م،

تم تعيين ابن خلدون في منصب قاضي القضاة، وهو المنصب الذي أعفي منه وأعيد تعيينه فيه عدة مرات نتيجة للظروف السياسية وتغير الولاءات والسلاطين في تلك الحقبة. وبعد حوالي ٤ سنوات في عام ٨٠٨هـ، وبالتحديد وفي ١٧ مارس ١٤٠٦م توفي ابن خلدون عن عمر يناهز ٧٤ عامًا، ودُفن في جبانة باب النصر بالقاهرة.

لو أردنا تلخيص حياة هذا الرجل الاستثنائي في بضعة أسطر، لقلنا إن ابن خلدون عاش حياة حافلة بالمكائد والصراعات. ومن خلال هذه الحياة المتقلبة التي كان يديرها بدهاء، وإن لم يخلُ ذلك من براغماتية مشروعة، استطاع أن يكتسب معرفة فريدة بآليات السلطة والسياسة، وهي آليات تبدو في كثير من أوجهها مستمرة حتى اليوم. وقد شهدت الحقبة التي عاش فيها ابن خلدون انهيار الإمبراطورية الموحدية التي وحدت شمال إفريقيا والأندلس في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. تبع ذلك تفكك سياسي عنيف أسفر عن ظهور تكتلات قوى التي ستصبح لاحقًا دول المغرب، الجزائر، وتونس. كما خيمت الحروب والتمردات والاغتيالات على تلك المرحلة، فلم تكن هناك وظائف أو مواقع آمنة من المكائدات في ظل هذه الأحداث السياسية المتقلبة، أما في حالة ابن خلدون، فيبدو أنه كان يتمتع بموهبة خاصة في اجتذاب الأعداء، وهو ما يفسر شكواه المتكررة من المؤامرات التي حاكها ضده خصومه، والذين سعوا دائمًا للإيقاع به لدى أرباب وأصحاب السلطة الذين ساندوه وقاموا بحمايته.

خلال السنوات الأربع التي قضاها ابن خلدون في القاهرة انكب على تدريس العلم وإثراء الحياة الفكرية هناك. في هذه الفترة، أكمل تحفته الخالدة «مقدمة ابن خلدون»، التي وضع فيها تصورًا جديدًا لما أسماه «علم العمران»، الذي كان في ذلك الوقت علمًا جديدًا لفهم نشوء الدول والحضارات وسقوطها.

يتألف الكتاب من مقدمة وستة أقسام رئيسية، تناولت الموضوعات التالية:

١ - علم الاجتماع العام للحضارة: دراسة المبادئ الأساسية لنشوء وتطور المجتمعات الإنسانية.

٢ - سوسيولوجيا البداوة: تحليل بنية المجتمعات البدوية وأثرها على الحضارة.

٣ - الفلسفة السياسية: استقصاء طبيعة الحكم وأسس السلطة.

٤ - سوسيولوجيا سكان المدن: استكشاف حياة المدن ومشكلاتها الاجتماعية.

٥ - الاقتصاد السياسي: تفسير الظواهر الاقتصادية وتأثيرها على تطور المجتمعات.

٦ - سوسيولوجيا المعرفة: دراسة العلاقة بين الظروف الاجتماعية والإنتاج الفكري.

بدأ ابن خلدون كتابه بنقد منهجي للأعمال التاريخية التي سبقتها، حيث اعتبر أن كثيرًا من المؤرخين لم يدركوا العوامل العميقة التي تحكم الأحداث التاريخية، وأغفلوا فهم القوانين الاجتماعية التي تتحكم في نشوء وسقوط الحضارات.

يرى ابن خلدون أن علم «العمران»، الذي يكشف فيه الفلسفة عن معنى التاريخ، يمثل أداة جديدة تعين المؤرخين على تجاوز التقليد الأعمى لنتاج العلماء السابقين. كما يوجه نقدًا لبعض مفسري القرآن الكريم والأحاديث النبوية الذين يقتصرون على التفسير الحرفي دون الغوص في تحليلها أو فهم سياقاتها. هؤلاء العلماء، بحسب رأيه، يشبهون المؤرخين التقليديين الذين أغفلوا استخدام الفلسفة لمراجعة افتراضاتهم وأفكارهم التاريخية، مما أدى بهم إلى الابتعاد عن الحقيقة

وارتكاب أخطاء فادحة تستند إلى تصورات خاطئة. ومن هنا جاءت الخطوة الأولى لابن خلدون في بناء نظريته: تخصيص مكانة جديدة للتاريخ في بنية المعرفة، حيث اعتبره علمًا مستقلًا يحتاج إلى منهجية خاصة به. ولذا يُنظر إليه بحق بوصفه «مؤسس علم الاجتماع». أما الخطوة الثانية، فقد استندت إلى إدراكه أن الواقع هو المصدر الوحيد للحقائق (بمعني يجب النظر للأسباب الواقعة للوصول إلى الأسباب الحقيقية). انطلق ابن خلدون من هذه الفكرة لتحليل العلاقات السببية التي تحكم الأحداث والوقائع، متبعاً تداخلاتها وتراكماتها ضمن سلسلة بنيوية مترابطة.

أما عن الدين، فقد رأى فيه ابن خلدون عنصرًا محوريًا يلعب دورًا سياسيًا واجتماعيًا ضمن هذه السلسلة من الأسباب. ورغم إقراره بأن التاريخ يحمل غموضًا غيبيا ذا طابع إلهي، إلا أنه لم يسعَ لإثبات وجود خطة إلهية واضحة تحكم مجريات الأحداث. بدلاً من ذلك، اجتهد في التوصل لدور العوامل الدينية كجزء من البناء الاجتماعي والسياسي، مؤكدًا على دوره ضمن منظومة شاملة تستند إلى فهم الأسباب والنتائج.

يرى ابن خلدون أن التاريخ يتحرك في دورات متكررة من الصعود والهبوط، حيث تمر المجتمعات بمراحل من الازدهار ثم تسقط في الانحطاط، دون أن يكون هناك تطور خطي أو تقدم مستمر. وفقًا له، الفرق الوحيد الذي يمكن ملاحظته هو الانتقال من المجتمع البدائي إلى المجتمع المتحضر. ومع ذلك، أظهر ابن خلدون قدرته على فهم التحولات المفاجئة في التاريخ التي تخلق واقعًا جديدًا كليًا، مشيرًا إلى أنه كان شاهدًا على واحدة من تلك التحولات. فيقول: «عندما يحدث تغير عام في الأحوال، كأنه خلق جديد ومتكرر لعالم ولد للثو من جديد». ويشير ابن خلدون إلى أن واحدة من الأسباب الرئيسية لمثل هذا التغير العميق كانت جائحة الموت الأسود أو الطاعون الكبير التي

ضربت العالم الإسلامي وغيّرت ملامح المجتمع بشكل جذري. إلى جانب ذلك، كان واعيًا تمامًا لتأثير الغزوات المغولية وما حملته من تداعيات هائلة على المجتمعات الإسلامية في عصره.

من وجهة نظر ابن خلدون، هناك توازن معقد بين القيم الإنسانية كالأخوة، والإيثار، والتضامن المجتمعي من جهة، وبين الرغبات الفردية مثل السعي وراء الرفاهية واقتناء السلع الفاخرة من جهة أخرى. ويرى أن هذا التوازن ينعكس في المراحل المختلفة لدورة حياة السلالة الحاكمة. يقسم ابن خلدون حياة السلالة الحاكمة إلى ثلاثة أجيال، أو ما يعادل حوالي ١٢٠ عامًا، ويشبه كل جيل بمرحلة من حياة الإنسان. الجيل الأول يشبه الطفولة، حيث تتسم السلالة بالحيوية والنقاء والشجاعة. ثم يأتي الجيل الثاني الذي يمثل مرحلة الشباب والنضج، حيث تبدأ السلالة في التوسع والاستمتاع بمكتسباتها. وأخيرًا، الجيل الثالث الذي يشبه الشيخوخة، حيث تنحدر السلالة نحو الضعف والانحطاط بسبب الترف والإفراط في الملذات. أما البدو، فيرى ابن خلدون أنهم يمثلون جوهر الحضارة العربية وأساسها النقي. فهم يعيشون حياة بسيطة ونقية غير ملوثة برغبات الرفاهية والترف، ويقارن طبيعتهم بطبيعة روح الطفل، التي لم تتأثر بتعقيدات العمر أو التجربة. هذه البساطة والقيم النقية التي يحملها البدو تجعلهم، في نظر ابن خلدون، أقرب إلى الخير المثالي الذي يمكن أن ينهض بالحضارة.

يُبرز ابن خلدون تطور السلالات الحاكمة ويشير إلى أن أفرادها يكتسبون تدريجيًا المزيد من السلطة والثروة، مما يمنحهم قوة أكبر. ومع هذه المكاسب، قيامهم بتأسيس جيش يحمي الجماعة ويدافع عنها، مما يجعل أفراد المجتمع يشعرون بعدم الحاجة إلى إدارة شؤونهم بأنفسهم. لكنه يرى أن القوانين والجيش لعبا دورًا في إضعاف استقلالية الأفراد، حيث أصبحوا أقل تفكيرًا وفعالية، مما أدى إلى خمول وتراجع حيوية

المجتمع. وفي المقابل، ينشغل الحكام تدريجياً برفاهيتهم الشخصية على حساب رعاية مصالح شعوبهم. ومع مرور الوقت، تنسى السلالة الحاكمة مفهوم العصبية، الذي يشير إلى التماسك الاجتماعي أو التضامن، وتبدأ في التدهور تدريجياً. تنجرف السلالة نحو الشيخوخة، وتتآكل شجاعته بفعل نمط الحياة المستقرة. يختصر ابن خلدون هذه الدورة التاريخية في انحسار الهوية «البدوية» التي كانت تمثل القوة والحيوية، وتلاشيها بعد الاستقرار على مدى ثلاثة أو أربعة أجيال. يصبح أحفاد الفاتحين مغرمين بعادات الشعوب التي حكموها، ويتغنون بذكرى أجدادهم المحاربين في قصائد طويلة. كما يستعرضون الخيول القوية والأسلحة البراقة، لكنهم يفتقدون الشجاعة وروح التضامن التي ميزت أسلافهم. وهكذا، يعتمد هؤلاء المستقرون على الدولة كما تعتمد النساء والأطفال على رب الأسرة، ما يعكس تراجع استقلالية المجتمع وحيويته.

يعرض ابن خلدون في «المقدمة» رؤية متكاملة للتاريخ والمجتمع، تعتمد على فكرة التماسك المجتمعي والتكافل بين أفراد المجتمع، حيث يعتمد المستقرون على الدولة كما تعتمد النساء والأطفال على رب الأسرة. وقد لفتت حداثة هذه الأفكار انتباه الأوروبيين منذ القرن التاسع عشر، خاصة عبر التأثير التركي الذي حمل إرث ابن خلدون إلى أوروبا. في هذا السياق، قارن العديد من المفكرين أفكار ابن خلدون بمفاهيم ميكافيلي ومونتسكيو. كان من بين هؤلاء أحد أوائل المؤلفين الغربيين الذين نشروا مقتطفات من مقدمته، حيث أطلق عليه لقب «مونتسكيو العرب»^(١)، وهو وصف تبناه لاحقاً العديد من الباحثين في أوروبا والشرق الأوسط. في عام ١٨٢٨، أعرب والي مصر محمد علي باشا

(١) البارون جوزيف فون هامر-بورجستال، دبلوماسي ومستشرق نمساوي، ١٧٧٤ -

(١٢١٣-١٢٦٥هـ / ١٨٠٥-١٨٤٩م)، الذي كان قد اطلع على ترجمة كتاب «الأمير» لميكيافيلي إلى التركية، عن اعتقاده بأن فكر ابن خلدون يتفوق على فكر ميكيافيلي. وفي السياق نفسه، وصف المفكر المصري رفاة الطهطاوي (١٢١٦-١٢٩٠هـ / ١٨٠١-١٨٧٣م)، أحد رواد حركة النهضة العربية، مونثسكيو بأنه «ابن خلدون الغرب»، مؤكداً على التشابه بين فكر الاثنين. واختتم المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي تقييمه لعبقرية ابن خلدون بقوله: «لقد وضع وصاغ فلسفة للتاريخ هي بلا شك أهم الأعمال الفكرية التي كُتبت على الإطلاق»^(١)، مما يؤكد الأثر العميق الذي تركه ابن خلدون في الفكر الإنساني.

البیروني (٣٦٢ - ٤٤٠هـ / ٩٧٣ - ١٠٤٨م)

همذان (مدينة بإيران)، ربيع الثاني ٤١٠هـ / فبراير ١٠٢٠م

أَبَا الرَّيْحَانِ أَخِي تَقَبَّلْ تَحِيَّاتِي،

كَيْفَ أَعْبُرُ عَنْ سُرُورِي بِرِسَالَتِكَ؟ نظام البريد هنا لا يوصل الرسائل الخاصة إلا استثناءً. فَأَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ الْفَضِيلَةِ الَّتِي تَفْضُلُ بِهَا عَلَيْنَا مَوْقِعُنَا فِي دَارِ الْعُظَمَاءِ. قرأت بشغف النسخة التي أرسلتها إلي من كتابكم المختصر في الهندسة والحساب، وكذلك الصفحات الأولى من رسالتكم في علم المعادن. أحسبك على قدرتك على كتابة مثل هذه المؤلفات؛ أما في الوقت الحاضر فأنا بعيد كل البعد عن ذلك. فمنذ المجلدات العشرين من كتابي «علم النتائج والنتيجة»، وكتاب «فلسفة العروض»، لم أكتب سطرًا واحدًا يستحق الاهتمام. ربما باستثناء «قصيدة في المنطق». بالإضافة إلى «مختصر في إقليدس» و«مقدمة في فن

(1) *The Study of History*, vol. III [دراسة التاريخ] Oxford University Press, 1956.

الموسيقى»، مستوحاة من لقاء جمعني بشخصية مذهشة وهو موسيقي فاقد للبصر.

تسألني عن حياتي ومشاريعي؛ في الوقت الحالي، ليس أمامي خيار سوى البقاء في همدان، حيث أعمل لدى شمس الدولة كطبيب خاص رغمًا عني. تنقسم أيامي بين التمرّض والتدريس. وفي مكتبة المدرسة، اكتشفت بعض المؤلفات النادرة التي جلبوها من الهند والتي تتناول علم الصيدلة، وأيضًا علم الفلك، ربما وجدت بعضها أيضًا. في مجال الطب، عندما أتأمل في الإرث الذي تركه لنا الأسلاف، أسأل نفسي: ماذا سيحدث له إذا لم يتخذ أحد قرارًا بترتيبه وتنظيمه؟ لم يكن هناك إسهام جديد يُذكر من الحضارات الأوروبية في الطب آنذاك، بينما كانت العلوم الطبية مزدهرة في العالم الإسلامي والهند. فهذا الإرث بهذا الشكل وضعه أشبه بمن هو في وسط حطام سفينة غارقة؛ بل لعلها غرقت في الليل. أما في علم الفلك، فقد اكتشفت أيضًا إحدى الترجمات الأولى لكتاب «المجسطي» لبطليموس العظيم إلى اللغة الفهلوية وهي لغة فارسية قديمة، ويقال إن تاريخها يعود إلى أكثر من ثلاثمائة سنة. كما تعرفت على الجداول الفلكية الهندية. وفي هذا السياق، أعترف أنني متشكك إلى حد ما فيما يسميه العلماء هناك «يوم براهما» (هو مصطلح مرتبط بمفاهيم الزمن عكس دورة الكون المستمرة في الهندوسية). فهل من الممكن علميًا أن نتصور أن كل دورة من ٤٣٢ مليون سنة تشهد عودة النجوم إلى موقعها الأول؟ هلا أخبرتني، يا من لا تخفى عليك أسرار أرض الهندوس المقدسة، ما رأيك في ذلك؟

لقد أجبته عن الأسئلة الثمانية عشر التي طرحتها عليّ، والتي كان سبعة منها تتعلق بكتاب «السما والعالَم» لأرسطو^(١). ومع ذلك، يبدو

(١) دي كايو هي رسالة لأرسطو تتألف من أربعة كتب يعرض فيها نظرياته في علم الفلك.

أنك لم تقتنع تمامًا بإجاباتي. لقد تلقيت اعتراضاتك، التي أثارت بدورها أسئلة جديدة. وللأسف، ليس لديّ الوقت الكافي لدراستها في الوقت الراهن. ولكن، اطمئن؛ فقد أوكلت المهمة إلى تلميذي النجيب، أبي سعيد المعصومي، وهو فقيه ذو موهبة كبيرة ولديه جميع الصفات التي تتطلبها هذه المهمة.

أحييك يا أخي وصديقي، وأسأل الله أن يحفظك أينما كنت، على أمل أن أراك مرة أخرى قبل أن يتوفانا الله العليّ القدير.

يا ابن سينا، تقبل تحياتي،

هذا صاحبك أبو الريحان يكتب إليك من باغيانا جار (اليوم، حيدر آباد، الهند)، في شهر جمادى الأولى سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م). هذه هي المرة الثالثة التي أصحب فيها محمود الغزنوي^(١) إلى البلاد الصفراء.

ماذا أقول لك؟ سوى أن ابن سبكتكين يسعى لإقامة مملكة على الضفة اليسرى من عمودارية، غرب نهر السند. قاد محمود الغزنوي عدة حملات في الهند بهدف توسيع رقعة الدولة الإسلامية ونشر الإسلام هناك، وواجه خلالها مقاومة محلية، مما أدى إلى معارك دامية.

يا ابن سينا، فجأة يبدو كل شيء فارغاً...

طلبتُ القربَ والحماية من ملك غزنة فقط لأشبع فضولي لاكتشاف العالم. والآن، تبدو لي كلُ المعلومات التي جمعتها عبثًا مقارنةً بالطريق الطويل الذي قطعته للوصول إلى هناك. ومع ذلك، أوصل الكتابة دون توقف. وخلال فترة إقامتي، تعلمتُ اللغة السنسكريتية، مما مكّني من

(١) محمود الغزنوي (ولد عام ٣٦١هـ / ٩٧١م - توفي عام ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) هو أبو القاسم محمود بن سبكتكين، أحد أبرز سلاطين الدولة الغزنوية التي كانت تحكم مناطق واسعة من آسيا الوسطى وشبه القارة الهندية في العصر الإسلامي.

جمع معلومات ثمينة دونتها في كتاب عنوانته بـ «كتاب الهند». في هذا الكتاب، لم أكتفِ بسرد عادي لهذا الجزء من العالم، بل قدمت تحليلاً مقارنةً للحضارات وثقافتها ودياناتها، متحلياً بالحياد اللازم لإجراء دراسة متعمقة. هذا الكتاب ليس بأي حال من الأحوال كتاب جدلٍ أو مناظرة يعرض حجج الخصم للتمييز بين الصحيح والباطل. بل هو سردٌ مباشر ينقل آراء الهندوس، مضيفاً إليها ما قاله اليونانيون في مواضيع مشابهة لإجراء مقارنة عادلة^(١). وقد رأيتُ أن هذا العمل قد يكون مفيداً للرحالة والمؤرخين في المستقبل. لقد انتهيتُ أيضاً من تأليف كتابي في الهندسة والتنجيم. فجزاك الله خيراً على تكليفك تلميذك بالردّ على تعليقاتي. وأنا أنتظرها بفارغ الصبر الذي لا أستطيع وصفه. وأرجو أن تكون السعادة قد غَشِيَتْكَ، وأن تكون قد وجدتُ أخيراً السكينة في بلاط همذان. أرجوك أن تكتب لي، في أقرب وقت يسمح به انشغالك. كلماتك ستمنحني الراحة وتُهدئ روعي المعذبة. أنا دائم التفكير فيك. فليحفظك الله العليّ القدير.

إذا كان هناك بالفعل تبادل رسائل بين هذين العالمين العظيمين، فالرسائل الواردة هنا مستوحاة منها. ويحتوي الجزء السادس من هذه المراسلات على ردّ كتبه أبو سعيد أحمد بن علي المعصومي على أسئلة البيروني. تشير الملاحظات إلى أن المعصومي كان قد اتبع تعليمات سيده ابن سينا، ولكن رسالته الأصلية ضاعت، مما اضطره إلى إعادة كتابة

(1) Al-Biruni, *Alberuni's India* [الهند للبيروني] An account of the religion, philosophy, literature, geography, chronology, astronomy, customs, laws, and astrology of India about A.D. 1030. An English edition, with notes and indices by Dr. Edward C. Sachau. K. Paul, Trench, Trübner & Co., Ltd., 1910.

الردود. وما بقي محفوظًا هو إجابات على سبعة من الأسئلة العشرة الأولى التي طرحها أبو الريحان البيروني (ضاعت إجابات الأسئلة رقم ٣، ٥، و٦). بالإضافة إلى ذلك، تضمنت المراسلات إجابات على الأسئلة الثمانية من السلسلة الثانية التي أرسلها البيروني إلى ابن سينا^(١).

كان البيروني يتقن العربية والفارسية، واستخدم الفارسية في بعض أعماله العلمية، لكنه فضّل العربية في معظم كتبه، كجميع العلماء في عصره، بسبب انتشارها كلغة علمية آنذاك. وقد ذكر في صفحة شهيرة من رسالته حول العقاقير الطبية: «إن العلوم التي انتقلت إلينا من كل حذب وصبوب بفضل الترجمات التي نُقلت إلينا من جميع الجهات بالعربية، التي زادت بها حُسْنًا وسمحت لها بالتسلل إلى قلوبنا».

وُلِدَ أبو الريحان البيروني سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م في خوارزم، وهي منطقة تقع على حدود تركمانستان وأوزبكستان حاليًا. وعُرفت المدينتان الرئيسيتان في تلك الفترة باسم كاث وجرجانية. وُلِدَ البيروني في مدينة كاث تحديدًا والتي أصبحت فيما بعد جزءًا من خوارزم، وأطلق على كاث لاحقًا اسم «البيرونية» تكريمًا للبيروني الذي ولد بها. في تلك الحقبة، كانت خوارزم تُعتبر مركزًا ثقافيًا بارزًا، إذ ازدهرت مدنها بالقصور الفخمة والمساجد والمدارس، وعُرفت بنهضتها العلمية المتميزة.

نحن لا نعرف الكثير عن نسب البيروني أو طفولته. بل أكثر من ذلك، فقد ذكر ذلك بنفسه في قصيدة أدرجها في إحدى رسائله قائلاً: «في الحقيقة، لست متأكدًا من نسبي، لأنني لا أعرف حقًا من كان

(1) Ibn Sina - Al-Biruni Correspondence trans. [مراسلات ابن سينا والبيروني]، Rafik Berjak, Muzaffar Iqbal. Center for Islam and Science, Canada.

جدي. وكيف لي أن أعرف من كان جدي وأنا لا أعرف حتى من كان أبي»^(١)؟

درس البيروني العلوم العربية (الفقه، الشريعة، وعلم النحو) في سن مبكرة جدًا، بالإضافة إلى العلوم «غير العربية» التي كانت تركز أساسًا على الفلسفة اليونانية. تتلمذ على يد عالم الفلك والرياضيات البارز أبو نصر المنصور، الذي كان أكبر منه بثلاث سنوات فقط، ولكنه كان قد صنع لنفسه مكانة علمية باكتشافه «قانون الجيب»^(٢). ويقال إنه عرّف تلميذه على القسمة الإقليدية (نسبة إلى إقليدس) وعلم الفلك لبطليموس. كتب البيروني عن تلك الفترة قائلاً: «لقد كانت معظم أيامي مباركة بما أسبغه الله عليّ من مواهب وامتيازات كانت تنعم عليّ بشكل متزايد». في الوقت نفسه، بدأ البيروني دراسة النجوم والمعادن وسبر أسرار السماوات والأرض وقراءة مئات الكتب لفهم معنى التاريخ. وفي سن السابعة عشرة تقريبًا (حوالي عام ٣٧٩هـ / ٩٨٨م)، تمكن من تحقيق إنجاز حساب خط عرض مدينة كاث -مسقط رأسه- عن طريق تتبع قوس متدرج على ظهر لوحة حسابية واستخدام خيط مصنوع من الرصاص. كانت هذه عملية معقدة، دون شك، باستخدام أداة بدائية مثل تلك.

في عام ٣٨٦هـ / ٩٩٥م، حين كان في سن الثانية والعشرين تغير مصير البيروني. فقد أُجبر على الفرار من مدينته. ويبدو أن الوضع

(١) بوبوجان غافوروف، وهو عضو في أكاديمية العلوم في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، ومدير معهد الدراسات الشرقية التابع للأكاديمية ورئيس الرابطة الدولية لدراسة ثقافات آسيا الوسطى التي ترعاها اليونسكو.

(٢) في علم المثلثات، قانون الجيب هو علاقة تناسب بين أطوال أضلاع المثلث وجيب الزاويتين المتقابلتين. بمعلومية زاويتين وضلع واحد، يمكن استخدام هذه العلاقة لحساب طول الضلعين الآخرين.

الفوضوي الذي كان سائداً في نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وبداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كان له دور كبير في قراره. فقد كانت تلك فترة اضطرابات كبيرة وحرب أهلية. كانت خوارزم آنذاك جزءاً من الإمبراطورية السامانية، التي كان مركزها بخارى. أما الولايات الأخرى في المنطقة، فقد كونت الدولة الزيارية وعاصمتها جرجان على شواطئ بحر قزوين، وهي المدينة التي زارها ابن سينا. إلى الغرب كانت الدولة البويهية، التي تقع بين بحر قزوين والخليج الفارسي، وكذلك في بلاد ما بين النهرين. أما المملكة الأخرى، التي اكتسبت نفوذاً سريعاً، فهي مملكة الغزنويين، التي كانت عاصمتها غزنة في أفغانستان الحالية. وقد لعب حاكمها، محمود الغزنوي، دوراً حاسماً في حياة البيروني.

إلى أين ذهب بعد فراره من خوارزم؟ لم يبقَ لنا سوى التخمين أو الاستناد إلى الإشارات الوحيدة التي قدّمها البيروني نفسه. وبفضل الأحداث الفلكية التي طوّرها في مؤلفاته، يمكننا أن نحدّد بدقة إلى حدّ ما التواريخ والأماكن التي تخلّلت حياته. على سبيل المثال، يمكننا أن نقول إنه في لحظة معينة ذهب إلى بلدة الري، لأنه يصرح في كتابه الشهير «الآثار الباقية عن القرون الخالية» قائلاً: «كنت بلا سند عندما وجدت نفسي في بلدة الري وكنت أعيش في فقر». ويخبرنا أيضاً أن أحد المنجمين المحليين استغل وضعه ليسخر من آرائه وفقره. ومن المحتمل جداً أنه بعد ذهابه إلى الري، ذهب إلى بخارى في عام ٣٩٦هـ/ ٩٩٦م، حيث التقى بابن سينا وأقام الرجلان صداقة وثيقة وتبادلا الرسائل. كان البيروني أكبر من ابن سينا بسبع سنوات. ووصفه لخسوف القمر الذي شاهده في كاث في عام ٤١٩هـ، وبالتحديد في ٢٤ مايو ٩٩٧م، يشير إلى أنه عاد إلى بلده الأصلي بعد عامين من ذهابه إلى المنفى. ونظراً لأن الخسوف كان مرئياً في بغداد أيضاً، فقد رتب البيروني مع الفلكي الشهير

محمد أبو الوفا (٣٢٨ - ٣٩٠ هـ / ٩٤٠ - ٩٩٨ م) لرصده في نفس الوقت. ومن خلال مقارنة خطي الطول اللذين تقع عليهما المدينتان، تمكنا من حساب الفرق في التوقيت بينهما. وفي عام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٠ م، يمكننا أن نحدد بدقة تواجده في جرجان في خدمة الأمير قابوس بن وشمجير (٣٩٩ - ٤١٧ هـ / ١٠٠٩ - ١٠٢٦) حاكم الدولة الزيارية. وبالفعل، فقد أهدى إليه في هذه السنة كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، على الرغم من أن العمل لم يكن كاملاً.

يُعدُّ كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» واحداً من الأعمال التي أسهمت في شهرة البيروني الكبيرة في الغرب. ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام رئيسية: القسم الفلكي (الفصول من الأول إلى الخامس)، القسم التاريخي (الفصول من السادس إلى الثامن)، والقسم الديني (الفصول من التاسع إلى الواحد والعشرين). يتضمن الكتاب العديد من التداخل بين الأجزاء، كما أن هناك استطرادات متناثرة عبر العمل، مما يُحسن من تجربة القراءة ويعزز من الثقافة العامة للقارئ. يعتمد الكتاب على عدد من الوثائق العربية المتعلقة بالجزيرة العربية وفلسطين وسوريا والعراق وفارس، بالإضافة إلى المعلومات الشفهية التي جمعها البيروني من معاصريه في شمال وشمال شرق بلاد فارس. فيما يخص الملاحظات حول المصريين واليونانيين والرومان والبيزنطيين، فقد تمَّ استنساخها من النسخ العربية والنصوص اليونانية، بينما كانت ملاحظات البيروني حول الهند محدودة، حيث لم يستند إلى أي اتصالات مباشرة مع الهنود في تلك الفترة، وهو ما استفاد منه في وقت لاحق. ورغم أن هذا الكتاب لا يُعتبر عملاً تاريخياً بحثاً، فإنه يُعدُّ دراسة إثنوغرافية تبقى ذات أهمية كبيرة حتى اليوم. وفي الوقت الذي كان يكتب فيه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» كان قد أكمل بالفعل سبعة أعمال على الأقل في مجالات

علم الفلك والتنجيم والتاريخ، وكان يخطط لكتابة كتابين آخرين، لكن لسوء الحظ لم يكتب أيّ منهما.

كان البيروني لا يزال في جرجان خلال الفترة من ١٩ ربيع الآخر ٣٩٥هـ / ١٠٠٣م إلى ١٤ ذو الحجة ٣٩٥هـ / ١٠٠٣م، وهي التواريخ التي يشير فيها إلى أنه رصد خسوف القمر خلال هذه الفترة. وفي ٤ رجب من نفس العام عاد البيروني إلى خوارزم، ليخبرنا أنه شاهد خسوفًا آخر للقمر من بلدة الجرجانية. وبعد ذلك، وبسبب شهرته الواسعة، تمّ الترحيب به في بلاط أبي العباس مأمون بن مأمون، المعروف بمأمون الثاني الذي عاش بمنتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حاكم جورجانديج، حيث التقى بابن سينا الذي كان قد لجأ إلى تلك المنطقة منذ عام ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م. ظل البيروني في قرقندج حتى عام ٤٠٧هـ / ١٠١٦م، أي قبل عام واحد من طلب محمود الغزنوي أن يُسلّم إليه جميع العلماء المقيمين في البلدة، بما فيهم ابن سينا. وفيما يتعلق بعام ٤٠٧هـ / ١٠١٦م، وفقًا لكتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، يذكر البيروني أنه كان في ذلك الوقت في الجرجانية، حيث بنى آلة مكتبته من تحليل عبور خط الزوال الشمسي، وأجرى ١٥ رصدًا بين ٧ شوال ٤٠٧هـ / ٧ يونيو ١٠١٦م و ٧ ذو الحجة ٤٠٧هـ / ٧ ديسمبر ١٠١٦م.

في ٢٢ شعبان ٤٠٨هـ / ٣ يوليو ١٠١٧م، قام محمود الغزنوي - الذي كان في أوج قوته - بغزو مدينة كاث. وتم أسر البيروني وأستاذه أبو نصر المنصور في تلك الحملة، وأُخذوا إلى غزنة، عاصمة السلالة الغزنوية. تبع ذلك فترة غريبة وصعبة، حيث تشير كتابات البيروني إلى أنه عانى من «صعوبات كبيرة»، على الرغم من اعترافه بأن الأمير الغزنوي دعم عمله العلمي. ويمكننا، كما في فترات سابقة، تحديد بعض التواريخ والمواقع من خلال الأحداث الفلكية التي سجلها

البيروني. فقد كان في كابول في ٣ ربيع الأول ٤٠٩هـ / ١٤ أكتوبر ١٠١٨م، حيث تمكن من إجراء بعض الملاحظات الفلكية باستخدام أداة مبتكرة صنعها من مواد متاحة له. مكنته هذه الأداة من تحديد خط عرض مدينة غزنة بدقة. وفي ٢٥ ربيع الأول ٤١٠هـ / ٨ إبريل ١٠١٩م، في لامغان (أو لغمان) شمال كابول، رصد كسوفاً للشمس.

في كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، يذكر البيروني قائلاً: «لم أعرف سوى بضع سنوات من السلام عندما أذن الله جل في علاه بعودة مواطني مدينتي إلى بلادهم، بينما ظلت أنا مجبراً على المشاركة في الحياة العامة». وتبقى العلاقة بين محمود الغزنوي والبيروني ملتبسة للغاية. فعلى الرغم من أن البيروني لم يكن يدعم الغزنوي في قرارته الحربية ومعاركه الشرسة؛ لكن لم يمنع ذلك البيروني من مرافقة الغزنوي في حملاته العسكرية إلى الهند. حين بدأت جيوش محمود الغزنوي، حوالي عام ٤١٣هـ / ١٠٢٢م، بفرض سيطرتها على المناطق الشمالية من الهند، وفي عام ٤١٦هـ / ١٠٢٦م وصلت حملاته إلى المحيط الهندي. يبدو أن البيروني ظل في الأجزاء الشمالية من الهند خلال تلك الحملات، ولم تُعرف بدقة عدد الزيارات التي قام بها. ومع ذلك، فإن الملاحظات الفلكية والجغرافية التي جمعها هناك مكنته من تحديد خطوط العرض لإحدى عشرة مدينة في منطقة البنجاب وحدود كشمير. واستغل البيروني الفترة التي قضاها في الهندوس بين المجتمعات الهندية لدراسة أدبهم الأصلي، فتمكن من ترجمة العديد من النصوص المكتوبة باللغة السنسكريتية إلى اللغة العربية، مما جعله واحداً من أوائل العلماء المسلمين الذين قدّموا الأدب الهندي للعالم الإسلامي.

وأثناء إقامته في الهند، ألّف البيروني كتابه الشهير «تاريخ الهند»، وهو عمل موسوعي ضخم يتألف من ١٢ فصلاً يغطي مختلف جوانب الحياة في الهند. يتناول هذا الكتاب الديانة والفلسفة والنظام الطبقي

والعادات والتقاليد الهندية، بالإضافة إلى أنظمة الكتابة والأرقام المستخدمة في الهند. كما ركز بشكل كبير على علم الفلك الهندي والتنجيم. علاوة على ذلك، قدم البيروني إسهامًا بارزًا في علم المعادن من خلال كتابه «كتاب الجماهر في معرفة الجواهر»، الذي يعد واحدًا من أكثر الأعمال دقة وأهمية في علم المعادن خلال العصور الوسطى. في هذا الكتاب، قام البيروني بتصنيف العديد من الأحجار الكريمة مثل الماس، والياقوت، والزمرد، والفيروز، والجمشت، والسبع، بالإضافة إلى العديد من المعادن مثل الملكيت، والأزوريت، والكاسيتيريت، والمغنيت. ووصف خصائصها الفيزيائية والجمالية، كما قدم قياسات دقيقة للأوزان النوعية لبعضها، مما ساهم في رفع مكانة الجيولوجيا كعلم مستقل. وفي كتابه الجغرافي «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن»، وهو عمل يجمع بين الجغرافيا والجيولوجيا والحفريات، يتحدث البيروني عن التغيرات الطبيعية التي شهدتها كوكب الأرض. يقول: «هكذا أصبح البحر يابسًا واليابسة بحرًا، وهذه التغيرات مهمة لأنها حدثت قبل وجود الإنسان، وعندما تكررت فيما بعد لم يتم تذكرها بسبب بطء العملية التي تتم على مراحل». ويكشف هذا النص عن إدراك البيروني لديناميكية الأرض وفهمه لطول تاريخها، والتغيرات الطبيعية التي حولت البحار إلى يابسة والجبال إلى محيطات عبر العصور. كما أدرك أن هناك أنواعًا سبقت غيرها وأن لكل نوع دورة حياة خاصة به. من المذهل أن هذا النمط من التفكير العلمي يعود إلى حوالي ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م، مما يجعل البيروني أحد أعظم العقول في تاريخ العلم.

على غرار العديد من العلماء المسلمين في العصور الوسطى، كان البيروني يؤمن بكونية الأرض، وقد تناول هذا الاعتقاد بعمق في كتابه «القانون المسعودي». في هذا العمل، جمع البيروني إحداثات ما يقرب

من ٦٠٠ موقع، مستنداً إلى معرفة مباشرة أو مصادر موثوقة. كانت شهرة هذا الكتاب كبيرة في المشرق الإسلامي، ما أدى إلى نسخه بشكل متكرر منذ تأليفه، وهو ما يتضح من العدد الكبير للمخطوطات التي ما زالت محفوظة حتى يومنا هذا. ومع ذلك، لم يلقَ «القانون المسعودي» نفس الانتشار في الغرب؛ فلم يُترجم إلى اللاتينية، ولم يُستخدم كمصدر مباشر لعلماء الفلك الأوروبيين، سواء العرب منهم أو اللاتينيين. وعلى الرغم من أهميته العلمية، لم يبرز الكتاب كمرجع مؤثر في تاريخ علم الفلك إلا في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، عندما بدأ الباحثون المعاصرون في دراسة مساهمات البيروني وإبراز مكانته في هذا المجال.

يُعد «القانون المسعودي» من أعظم المراجع الفلكية المكونة من أحد عشر كتاباً وفيها، كتب البيروني عن ظل الأرض الملقى على القمر قائلاً: «إذا لاحظنا ظل الأرض الملقى على القمر، يمكننا أن نرى أن حوافه مستديرة، خاصة أثناء الكسوف الكلي، حيث يظهر تقريباً كل محيط الأرض وهو يلقي بظلها، مما يشير إلى كروية الأرض. ومن هنا، يمكننا أن نستنتج أن التقاطع بين الجزء المضيء من الأرض الذي تضيئه الشمس والجزء الذي يلقي فيه الظل يشكل دائرة، ومن ثم لا يمكن أن يكون هناك شك في شكل الأرض؛ فهي مستديرة من جميع الجوانب»^(١).

حوالي عام ٤١١هـ / ١٠٢٠م، قرر البيروني قياس نصف قطر كوكب الأرض. كان في ذلك الوقت في منطقة حصن ناندانا، وهي منطقة جبلية في شمال غرب الهند، جنوب إسلام آباد. وقد توصل إلى أن المسافة بين مركز الأرض وسطحها تبلغ في أغلب التقديرات حوالي ٦,٣٣٩,٦

(1) *Le Courrier de l'UNESCO* [بريد اليونسكو] juin 1974. Disponible sur unesdoc.unesco.org.

كم، وهي قيمة لم تُحسب في أوروبا إلا بعد ستة قرون في عصر النهضة. الفارق بين القيمة التي قاسها البيروني وتلك التي تم الحصول عليها باستخدام التقنيات المعاصرة يقدر بحوالي ما يقرب من ٠,٢٤٪. بعد ذلك، قاده هذا الاكتشاف إلى تصور فكرة حركة الأرض حول الشمس، وكذلك إمكانية دوران الكواكب بشكل بيضاوي، أي غير دائري. هذه الفكرة سبقت نظرية كوبرنيكوس بخمسة قرون. ومع ذلك، لم يتابع البيروني هذه الأفكار إلى أبعد من ذلك، وهو ما كان سيؤدي حتماً إلى قطيعة تامة مع النظام الفلكي لعصره، الذي كان يعتمد على فكرة الحركات الدائرية المنتظمة والكون المثالي.

توفي الأمير محمود الغزنوي في عام ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م، وخلفه ابنه الأكبر مسعود (٤٣٢ - ٤٤٣هـ / ١٠٤٠ - ١٠٥١م). سجّل التاريخ أنه كان حاكماً عادلاً، وعامل البيروني بتقدير واحترام. وبعد عشر سنوات، اغتيل مسعود في عام ٤٤٣هـ / ١٠٥١م. في ذلك الوقت، رغم أن البيروني كان قد ناهز السابعة والستين، استمر في إنتاج عدد كبير من الأعمال العلمية حتى وفاته. كان إنتاجه حقاً مثيراً للإعجاب، وتشير التقديرات إلى أنه كتب حوالي ١٤٦ عمل علمي، بلغ مجموع صفحاتها حوالي ١٣,٠٠٠ صفحة^(١).

تُعد «الرسالة الشاملة في الظلال»^(٢) واحدة من أهم مؤلفات

(1) E. S. Kennedy, *Biography in Dictionary of Scientific Biography* [السيرة الذاتية في قاموس السيرة العلمية] New York, 1970-1990.

(2) E. S. Kennedy (trans.), *Al-Biruni's Treatise on Shadows* [رسالة البيروني في الظلال] Institute for the History of Arabic Science, 1976. Available at: https://webpace.science.uu.nl/~gent0113/islam/downloads/al_biruni_treatise_on_shadows_1.pdf.

البيروني، حيث تناول فيها العديد من الجوانب المتعلقة بعلم الظلال وتطبيقاته الفلكية. الكتاب يتضمن التسميات العربية للظواهر المرتبطة بالظلال، وتاريخ دوال الظل والقاطع، بالإضافة إلى التطبيقات العملية مثل تحديد أوقات الصلاة باستخدام الظل. أما فيما يتعلق بتعاون البيروني مع علماء آخرين، فقد تميز بتبادل الأفكار والنقاشات العلمية مع العديد منهم. وكان له تعاون طويل مع أستاذه أبي نصر المنصور، الذي طلب منه القيام ببعض الأعمال لدعم أبحاثه. كما جرت مراسلات علمية مع ابن سينا حول طبيعة الحرارة والنور، بالإضافة إلى موضوعات أخرى مثل مسائل في الفلسفة وعلم الفلك والفيزياء، حيث أرسل ابن سينا إليه ١٨ رسالة ردًا على استفساراته^(١). أخيرًا، يجدر بنا أن نخص بالذكر شخصية هذا العبقرى الذي لُقّب بـ «الأستاذ». على عكس العديد من العلماء الآخرين، تتيح لنا كتاباته فرصة للتعرف عن كثب على ملامح شخصيته. وعلى الرغم من أن أكثر من ٨٠٪ من أعماله قد ضاعت مع مرور الزمن، فإن ما تبقى منها يمنحنا صورة واضحة إلى حد كبير عن طبيعته. لم يكن البيروني مبتكرًا لثورات نظرية جديدة، سواء في الرياضيات أو غيرها من المجالات، بل كان متفوقًا في تطوير المعرفة القائمة وتعميق الفهم العلمي.

كان البيروني يمتلك قدرة عالية على الملاحظة الدقيقة، وكان كذلك مؤيدًا قويًا للمنهج التجريبي، كما كان عالمًا لغويًا عظيمًا، قادرًا على قراءة عدد هائل من المؤلفات والتمكن منها من أول وهلة. كان يدرك بوضوح أن تطور العلم جزء من عملية تاريخية، وكان حريصًا دائمًا على وضع هذا العلم في سياقه الزمني. وعلى الرغم من كثرة مؤلفاته في علم

[البيروني وابن سينا: *Al-Birûni and Ibn Sina: Correspondence* (ed. Muminov) (in Russian). Tashkent, 1973. مراسلات]

التنجيم، فإن البيروني، مثل ابن سينا، لم يكن يعتقد في صحة هذا العلم الزائف، بل استخدمه كأداة لدعم عمله العلمي.

كان البيروني أيضًا مسلمًا معتدلاً، ولم يظهر أي تحامل على الطوائف الدينية أو الأجناس المختلفة، لكنه لم يتردد في انتقاد بعض أعمالهم. ومن أبرز الأمثلة التي ذكرها إتلاف بعض العرب للنصوص القديمة في خوارزم حين دخلوها أول مرة. وفيما يتعلق بالعقيدة المسيحية، درس البيروني فكرة الغفران، وكتب في كتابه «تاريخ الهند»: «إن المسيحية فلسفة نبيلة، ولكن أهل هذا العالم ليسوا كلهم فلاسفة... والواقع أنه منذ أن أصبح قسطنطين المنتصر مسيحياً، كان السيف والسوط هما المستخدمان». أما عن التسامح، فقد كتب رسالة مهمة أضاف فيها: «إن اللغة البشرية، المشبعة بأنواع متعددة من القيم الذاتية المرتبطة بالعقلية المختلفة، التي غالباً ما تحمل معتقدات غير عقلانية وأسطورية، لا تفي بمتطلبات التعبير العلمي. فاللغة الوحيدة المناسبة هي اللغة الرياضية، لأنها توفر الدقة المطلقة. فهي لغة ذات دلالات واحدة فقط، وكل معادلة لها مدلول واحد لا غير، وكل مدلول يعين بدلالة واحدة لا غير. ومن ثم فإن هذه اللغة تضمن دقة موضوعية تامة»⁽¹⁾.

لم يتردد البيروني في انتقاد التعصب، ووصف المتعصبين بالمعتوهين دون موارد. من أبرز الأمثلة على ذلك رده على أحد رجال الدين الذي اعترض على استخدامه لآلة لتحديد أوقات الصلوات، بحجة أنها تحمل نقوشاً بالشهور البيزنطية. في مؤلفه «ظلال»، يسخر البيروني من هذا الاعتراض قائلاً: «البيزنطيون أيضًا يأكلون الطعام، فهل ستمتنعون عن ذلك حتى لا تقلدوهم؟» أما في كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»،

[الموسوعة *Encyclopaedia Universalis* (البيروني)، Roger Arnaldez, *Al-Birûni* (1) Paris, A. Michel, 1997. العالمية]

فيتحدث البيروني عن معاناته الصحية بعد بلوغه الخمسين، حيث أصيب بعدة أمراض خطيرة. وفي خضم محنته، لجأ إلى استشارة عدد من المنجمين حول المدة التي سيعيشها، لكنه وجد إجاباتهم متناقضة إلى حد العبث، وبعضها كان لا يخلو من السخف الواضح.

وإذا كان البيروني رجلاً استثنائياً في روحه، فقد كان أيضاً استثنائياً في سلوكه، لقدرته على الحفاظ على احترام الذات وتقدير الإنسانية بمفهومها الشامل. وقد عرّف جورج سارتون، مؤسس علم تاريخ العلوم، البيروني بأنه «أحد أعظم علماء الإسلام، بل أحد أعظم العلماء على الإطلاق»^(١).

البَتَّاني (٢٤٥-٣١٧هـ / ٨٥٨-٩٢٩م)

هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني البتّاني الذي اشتق لقبه من مدينة بتان في منطقة حران بالقرب من أورفا الواقعة اليوم في تركيا. كان من العلماء الذين أحدثوا تأثيراً كبيراً في مجال الفلك في العالم العربي والإسلامي، واعتُبر أحد أشهر العلماء في أوروبا خلال العصور الوسطى. كان يُلقب بـ «بطليموس العرب» نظراً لمساهماته العظيمة في علم الفلك والتنجيم، التي استمرت آثارها لفترة طويلة بعد وفاته. وبالرغم من شهرة هذا العالم، فإن السيرة الخاصة به تظل محاطة بالكثير من الغموض، حيث يصعب التحقق من بعض تفاصيل حياته بسبب المسافة الزمنية الكبيرة.

كان البتّاني ينتمي إلى عائلة يُعتقد أنها كانت من الصابئة، ثم اعتنقت الإسلام، وهي طائفة اشتهرت بعبادة النجوم واهتمت بشكل خاص بعلم

(١) George Sarton, *Introduction to the History of Science* [مدخل في تاريخ العلم] Carnegie Institution, Washington, 1927.

الفلك. وقد أخرجت هذه الطائفة العديد من علماء الفلك والرياضيات البارزين، مثل ثابت بن قرة (٢١٨-٢٨٧هـ / ٨٣٦-٩٠١م)، الذي كان أيضًا من أهل حران، وقد حمل لقب بـ «محمد» وكنيته «أبو عبد الله». ومنذ صغره كان البتاني شغوفًا بعلم الفلك، ولكن لا توجد معلومات دقيقة بشأن تعليمه أو الأماكن التي درس فيها العلوم^(١). وفقًا لما ذكره ابن النديم في كتابه «الفهرست»، فإن والده، جابر بن سنان الحراني الذي كان عالمًا معروفًا في مجال علم الفلك، وكان له تأثير كبير في نقل الأفكار الأولى في علم الفلك إلى ولده. في تلك الحقبة، كان علم الفلك أحد العلوم الرئيسية التي شغلت العلماء العرب، وظل هذا الاهتمام قائمًا بلا هوادة طوال العصر الذهبي للحضارة الإسلامية.

في عام ٢٦٤هـ / ٨٧٨م، وبحسب ما ورد في «الفهرست» لابن النديم، انتقلت عائلة البتاني إلى مدينة الرقة في سوريا، الواقعة على بُعد حوالي ١٥٠ كم من أورفا على ضفاف نهر الفرات. كان البتاني في ذلك الوقت في سن العشرين. كانت الرقة قد شهدت في السابق أوقاتًا من الازدهار العربي عندما قرر الخليفة العباسي هارون الرشيد بناء العديد من القصور الفخمة فيها، مما جعلها تُعرف بمدينة الرشيد. ومع ذلك، بحلول الوقت الذي وصل فيه البتاني وعائلته إلى المدينة، كانت الرقة قد استرجعت اسمها القديم. وعند وصوله إلى مكان إقامته الجديد، كرس البتاني نفسه لدراسة النصوص القديمة بجدية، ويبدو أن أعمال الفلكي اليوناني بطليموس كانت من أبرز العوامل التي دفعته للتعمق في دراسة علم الفلك. وقد أظهر البتاني براعته في وقت وجيز في هذا المجال، وأصبح من أبرز علماء الفلك في عصره.

(1) Frank N. Magill (ed.), *The Middle Ages: Dictionary of World Biography*, Volume 2 ١٩٩٨، [العصور الوسطى: قاموس السير الذاتية العالمية، المجلد ٢]،

كتب ابن النديم في «الفهرست» عام ٣٤٧هـ / ٩٥٨م عن البتاني قائلاً: «كان رائدًا في الهندسة وعلم الفلك النظري والعملي والتنجيم. ألف مصنفًا في علم الفلك، به جداول شارحة، تضمن أرصاده الخاصة للشمس والقمر ووصفًا أدق لحركتهما من ذلك الذي اقترحه بطليموس. [...] لم يحقق أحد في الإسلام مثل هذا الكمال في رصد النجوم وفحص حركاتها».

ووفقاً لما أورده ابن النديم، يبدو أن البتاني قد أسس مرصدًا خاصًا في الرقة حيث قام بأولى مشاهداته الفلكية. لكن الغموض يحيط بكيفية بناء هذا المرصد والموارد التي اعتمد عليها. فلم يذكر التاريخ تفاصيل واضحة حول ذلك، مما يجعل الأمر أشبه بلغز لم يُحل بعد. وعلى الرغم من كونه ملتزمًا بنظرية بطليموس الكونية، التي تقضي بأن الأرض ثابتة في مركز الكون^(١)، وأن باقي الأجرام السماوية تدور حولها، كان البتاني يتميز بدقة أرصاده الفلكية ومنهجيته العلمية المتقدمة.

قادته حساباته إلى ملاحظة اختلافات لم تتوافق تمامًا مع نموذج مركزية الأرض الذي كان سائدًا في عصره، معتبرًا أنه ربما قد عفا عليه الزمن، لكنه لم يتمكن من إثبات نموذج مختلف رياضيًا وفلكيًا كان يقوم على فكرة أن الشمس هي مركز الكون، وأن الأرض تدور حولها، في تناقض واضح مع الفكرة المقبولة آنذاك بأن الأرض هي الثابتة والمركزية. جدير بالذكر أن هذا المفهوم لم يُثبت بشكل علمي ورياضي إلا بعد حوالي خمسة قرون، على يد العالم البولندي نيكولاس كوبرنيكوس (توفي عام ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م).

(١) مركزية الأرض هي نموذج قديم (تم دحضه منذ ذلك الحين)، والذي بموجبه كانت الأرض ثابتة في مركز الكون.

خلال دراسته لكتاب المجسطي لبطليموس، توصل البتاني إلى اكتشاف نقطة الأوج الشمسي (Aphelion)^(١)، وهي النقطة التي تكون فيها الأرض في أبعد مسافة عن الشمس أثناء دورانها السنوي حولها. وقد أثبت البتاني أن المسافة بين الأرض والشمس تتغير بشكل ملحوظ على مدار العام، وهو اكتشاف كان له تأثير كبير على فهم حركة الأجرام السماوية. ومع ذلك، وكما أشار أستاذ الفيزياء الفلكية نويل مارك سويردلو، فإن البتاني كان يتمتع بتواضع علمي، فلم يجرؤ على معارضة عالم الفلك اليوناني بطليموس علانية. لكن هذا التواضع لم يمنعه من اتخاذ موقف نقدي تجاه النظريات الحركية التي أسسها بطليموس، فقد اعتمد على ملاحظاته الدقيقة لتصحيح عدد من الأخطاء التي وقع فيها بطليموس. شملت هذه التصحيحات أخطاء في تحديد الخصائص الرئيسية لحركة الكواكب، وكذلك في الاستنتاجات الخاطئة المستندة إلى ملاحظات غير دقيقة أو ناقصة. ومن أبرز هذه الأخطاء التي صححها البتاني كانت فكرة ثبات ميل مسير الشمس أو موقع الأوج الشمسي. جدير بالذكر أن ميل مسير الكسوف يشير إلى الزاوية بين مستوى مدار الأرض ومستوى خط الاستواء السماوي.

أشار البتاني في أعماله إلى أن ملاحظاته أدت إلى تحسين دقة أرصاد بطليموس، قائلاً: «لقد أجريتها وفقاً لمذهب بطليموس عندما توقع أنه من الممكن، في الأزمنة القادمة، تصحيح بعض نتائج الفلكية بنفس الطريقة التي صحح بها نتائج هيبارخوس وغيره من العلماء». ومع ذلك، لم يكن المتفرد في نقده لنظام بطليموس الفلكي، بل كان واحداً من

(١) يختلف تاريخ ووقت مرور الأرض إلى الأقول اختلافاً طفيفاً من سنة إلى أخرى، بسبب أسبقية مدار الأرض والاضطرابات المختلفة الناجمة عن مواقع الكواكب الأخرى في المجموعة الشمسية.

العلماء المسلمين الذين أعادوا النظر في الأفكار الفلكية السائدة آنذاك. فعلى سبيل المثال، قدّم الحسن بن الهيثم (٢٥٤-٤٣٠هـ / ٩٦٥-١٠٤٠م) في كتابه الشهير «الشكوك على بطليموس» تحليلًا نقديًا دقيقًا للأخطاء في النظام البطليموسي. في نفس الفترة تقريبًا، وفي جنوب إسبانيا، كان الفيلسوف الأندلسي ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ / ١١٢٦-١١٩٨م) يعارض المفاهيم التي اقترحها بطليموس للكون التي تقوم على الحركات الدائرية المنتظمة والمتحدة المركز، وأصر على الحاجة إلى نموذج أكثر انسجامًا وبساطة.

أجرى البتّاني فحوصًا دقيقة للغاية لدراسة الاعتدال، وهو الوقت الذي تمر فيه الشمس أمام خط استواء الأرض، لا سيما اعتدال بداية الخريف. ومن خلال هذه الدراسات، توصل إلى حساب عدد أيام السنة الشمسية بدقة مذهلة وهو: ٣٦٥ يومًا و ٥ ساعات و ٤٦ دقيقة و ٢٤ ثانية، وهو ما يختلف فقط بفارق دقيقتين و ٢٢ ثانية عن الحسابات الحديثة!

بالإضافة إلى ذلك، تميزت حساباته لرصد الاعتدالات والانقلابات وطول الفصول بدرجة عالية من الدقة، تضاهي، بل وأحيانًا تتفوق على تلك التي وضعها عالم الفلك الدنماركي تايكو براهي (٩٥٤-١٠٠٩هـ / ١٥٤٦-١٦٠١م) بعد أكثر من سبعة قرون. لم تقتصر بحوث وقياسات البتّاني على مدينة الرقة، بل سافر إلى مناطق أخرى لإجراء أرصاده الفلكية، بل تنقل عبر المنطقة لإجراء المزيد من الأرصاد. من أبرز المدن التي زارها أنطاكية، شمال سوريا، حيث قام بتطوير واستخدام أدوات جديدة لرصد الأجرام السماوية. ففي هذه المدينة، صمم جهازًا أطلق عليه «منظار البتّاني»، الذي استخدمه بشكل أساسي لرصد خسوف القمر بدقة متناهية. ومن إنجازات البتّاني الأخرى استنتاج كيفية حدوث خسوف الشمس الحلقي (عندما يكون القمر بعيدًا جدًا عن الأرض بحيث لا يحجب الشمس تمامًا، تاركًا حلقة من الضوء مرئية حول القمر). كما

ألف العديد من الكتب التي تضمنت أرصادًا دقيقة للنجوم ومقارنات شاملة بين التقاويم المختلفة. ومن بين جميع أعماله، يبقى كتابه الأشهر «كتاب الزيج الصابئ» أو «كتاب الجداول الفلكية»، الذي ظل مرجعًا هامًا في علم الفلك حتى القرون اللاحقة.

وهذا الكتاب، الذي يستند إلى كتاب «المجسطي» لبطليموس، لم يكن مجرد ترجمة، بل كان عملاً أصليًا تضمن سلسلة كاملة من الملاحظات والتصحيحات والابتكارات الجديدة. وقد كان أحد أكثر الأعمال تأثيرًا في علم الفلك وحساب المثلثات في العصور الوسطى، واستُخدم على نطاق واسع في العالم الإسلامي وأوروبا على حد سواء. وقد قام في كتابه «الزيج الصابئ» بفهرسة نتائج اثنين وأربعين عامًا من الملاحظات والتعليق عليها. فكتب: «بعد أن عكفتُ لفترة طويلة على دراسة هذا العلم (علم الفلك)، لاحظتُ أن الأعمال المتعلقة بحركات الكواكب كانت تختلف باستمرار عن بعضها البعض، وأن العديد من المؤلفين ارتكبوا أخطاءً في الطريقة التي قاموا بها في رصدهم ووضع قواعدهم. ولاحظتُ أيضًا أنه بمرور الوقت تغيرت مواقع الكواكب وفقًا للأرصاء الحديثة والأقدم، وهي تغيرات ناجمة عن ميل مسير الشمس مما أثر على حساب السنين والكسوف. وقد أدى التركيز المستمر على هذه الأمور إلى إتقان هذا العلم وتأكيده». كما يكتسب كتاب «الزيج الصابئ» أهمية كبيرة لأنه أدخل فيه علم حساب المثلثات في دراسة الكرة السماوية لأول مرة. وقد أثبت هذا النهج الجديد أنه أكثر دقة بكثير من طريقة بطليموس الهندسية، وأثر على الشخصيات الأوروبية العظيمة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مثل عالم الفلك البولندي نيكولاس كوبرنيكوس في عمله المسمي بـ «حول دوران الكواكب السماوية» (باللاتينية: *De revolutionibus orbium coelestium* / وبالإنجليزية *On the Revolutions of the Celestial Spheres*)، الذي نُشر في عام ١٥٤٣م والذي

قدّم فيه نظرية كوبرنيكوس حول مركزية الشمس في الكون أشار كوبرنيكوس عدة مرات إلى البتاني، مستشهداً به تحت الاسم اللاتيني «ألباتينيوس».

في عام ٥١٠هـ/ ١١١٦م، تُرجم كتاب «الزيج الصابئ» إلى اللاتينية على يد عالم الفلك الإيطالي-البرتغالي أفلاطون التيفولي، ولاحقاً بين عامي ٥٣٥هـ/ ١١٤١م و ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م على يد روبرت التشستري، المعروف أيضاً باسم روبرتوس ريتينينسيس. وفي القرن الثالث عشر الميلادي، قام الملك ألفونسو ملك إسبانيا بطلب ترجمة أخرى للكتاب. إلا أن أفضل ترجمة أُعدّت في ميلانو بإيطاليا ما بين ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م و ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م من قبل كارلو ألفونسو نلينو (١٨٧٢-١٩٣٨م)، الذي نشرها في ثلاثة أجزاء تضمنت النص العربي وترجمته اللاتينية. وفي عام ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م، عندما حرر العالم الفرنسي جان-باتيست جوزيف ديلامبر (١٧٤٩-١٨٢٢م) تاريخاً لعلم الفلك في العصور الوسطى، خصص ثلاثة وخمسين صفحة لتحليل «الزيج الصابئ». وفي الوقت الذي كان فيه البتاني يكرس نفسه لعلم الفلك، اهتم أيضاً بالمفاهيم الرياضية للعلماء الذين طوروا معارفهم في الهند. وفي مجال العلوم الدقيقة، كان البتاني أول من استخدم الجيب وجيب التمام بدلاً من الوتر، الذي كان الأسلوب المستخدم حتى ذلك الحين من قبل الإغريق. كما يُنسب إليه اكتشاف قانون المثلث المتساوي الأضلاع الكامل. ولا تزال التفاصيل الدقيقة لحياته مبهمة حتى اليوم. في عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، بينما كان ضمن وفد اتجه إلى العراق لعرض مظالم أهل الرقة، توفي في طريق عودته في مكان يُسمى «قصر الجص» بالقرب من مدينة سامراء. وتقديراً لجهوده العلمية الرائدة، أطلقت وكالة ناسا اسمه على فوهة على سطح القمر وسُميت «فوهة ألباتيجنيوس» «Albategnius».

ومن الطرائف أن إحدى السفن الفضائية في سلسلة «ستارتريك» سُميت «البتاني» تكريماً له!

الكندي (١٨٥-٢٥٩هـ / ٨٠١-٨٧٣م)

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي المعروف لدى الغرب باسم الكندوس Alkindus، يُعرف الكندي بأنه «فيلسوف العرب الأول»، واكتسب هذا اللقب ليس لأنه تفوق على جميع معاصريه أو من تلاه من الفلاسفة، بل لأنه كان أول من نجح في تحقيق مزج مبدع بين الفلسفة اليونانية والفكر الديني، متميزاً عن أقرانه من غير العرب الذين شرعوا في دراسة الحكمة الدنيوية. إلى جانب اهتمامه بالفلسفة اليونانية القديمة، انشغل الكندي بتصنيف وتقييم معارف عصره في شتى المجالات، مثل الرياضيات، الفلك، الفيزياء، الحساب، الحساب الهندي، واللوغوغريف (فن استنباط كلمات متعددة من حروف كلمة رئيسية). كما اشتهر بشغفه بالموسيقى، التي كانت تمثل جزءاً أساسياً من اهتماماته العلمية.

ما هو الحال مع العديد من أعلام العصور الإسلامية المبكرة، فإن المعلومات المتاحة عن حياة الكندي محدودة ومبهمّة في كثير من الأحيان^(١). ومع ذلك، تشير الروايات إلى أنه وُلد ما بين عامي ١٨٣هـ/ ٧٩٩م و ١٨٦هـ/ ٨٠٢م لعائلة ذات نسب عريق في الكوفة، العاصمة العباسية الأولى في العراق. وقد عاصر الكندي عهود ثلاثة خلفاء عباسيين، وهم: المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م)، المعتصم

(١) أفضل مقدمة للكندي هي لجورج ن. عطية: *Al-Kindi: The Philosopher of the*

Arabs [الكندي: فيلسوف العرب]، Rawalpindi: Institute of Islamic Research, 1966.

(٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م) من أبناء هارون الرشيد، والمتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م) حفيد هارون الرشيد وابن المعتصم، ما يعكس دوره الفكري في فترة ازدهار العلم والثقافة العباسية. تعود أصول أسرته إلى قبيلة كندة في جنوب الجزيرة العربية، وتحديداً وسط اليمن. وتُشير الروايات إلى أنه بدأ تعليمه في مدينة البصرة، حيث كان والده والياً عليها، ثم انتقل إلى بغداد، حيث تلقى تعليمه في «بيت الحكمة». تجدر الإشارة إلى أن هذه المدن الثلاث، الكوفة والبصرة وبغداد، كانت في ذلك الوقت مراكز رئيسية للعلم والثقافة في العالم الإسلامي، ومشهورة بنفوذها الفكري وتقدمها العلمي.

حوالي عام ٢١٩هـ / ٨٣٤م أو ٢٢٠هـ / ٨٣٥م، اجتذب الكندي انتباه الخليفة المعتصم الذي استعان به لترجمة المعارف اليونانية إلى اللغة العربية. كانت هذه الفرصة بمثابة نافذة للكندي لاكتشاف الجواهر المخبأة في كتب الفلاسفة اليونانيين، وسرعان ما وقع في حب الفلسفة. وربما أنه عمل أيضاً كطبيب وفلكياً في البلاط العباسي، وفي هذه الفترة أهدى للمعتصم كتابه الأشهر «كتاب الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد». الكتاب عبارة عن رسالة أصيلة ومنظمة تعيد النظر في قضية المعرفة الميتافيزيقية، وتعيد التفكير في مفاهيمها. يرى الكندي أن الفلسفة، باعتبارها انعكاساً للتعبير الصحيح عن الأفكار، تتوافق مع السلطة السياسية والدينية على حد سواء. لكن ما يميز الكندي حقاً هو انفتاحه الفكري، وهو ما يظهر جلياً في قوله: «يجب ألا نخجل من أن نجد الحق جميلاً، أو من الحصول على الحق من أي مكان يأتي، حتى لو جاء من أجناس بعيدة عنا ومن أمم مختلفة؛ بالنسبة لأولئك الذين يبحثون عن الحق، لا يجب أن يتقدم شيء على الحق، فالحق لا يحط أو ينتقص من قدره وفقاً لقائله، ولا ينتقص من قدر من يقوله أو من يأتي به، ولا يحط من قدر أحد يقول الحق، بل يعظم الجميع به».

وكما نلاحظ، فإن أصول أرسطو اليونانية لم تكن عائقًا بالنسبة للكندي، فقد كان يؤمن بوجود طريق إلى الحكمة، إلى فهم طبيعة العالم. وفي هذا السياق، لا يعد من المبالغة أن نعتبره في مقدمة مفسري فلسفة أرسطو بالعربية. من الصعب تقديم وصف دقيق لفكر الكندي نظرًا لقلة أعماله المتبقية (أقل من ٤٠ عنوانًا منشورًا، في مجالات الفلسفة والعلوم؛ وقد جرى جمع بعض الأعمال غير المنشورة ودراساتها). ومع ذلك، يمكننا رسم الخطوط العريضة لفكره، أو على الأقل ملاحظة بعض ملامحه البارزة، استنادًا إلى النصوص المتوفرة.

وفي الكيمياء التطبيقية في أطروحته «كتاب في كيمياء العطر والتصعيدات»، وصف الكندي عملية التقطير - وهي عملية كانت ذات أهمية كبيرة في التكنولوجيا الكيميائية في ذلك الوقت، نظرًا لاستخدامها الواسع في تصنيع العديد من المنتجات الصيدلانية ومستحضرات التجميل على وجه الخصوص.

في علم الصيدلة، كتب الكندي رسالة بعنوان «رسالة في قدر منفعة صناعة الطب»، حيث تناول فيها شدة فعالية الأدوية المركبة بطريقة رياضية. استند في عمله إلى كتابات القدماء، لكنه لم يكتفِ بالنقل، بل أعاد صياغتها وأضاف إليها تحليلات رياضية ومنهجية جديدة. وفي الوقت الحاضر، يمكننا أن نطلق على هذه النسب: «التأثيرات الثانوية». سرعان ما أصبح الكندي أنموذج لسعة اطلاعه وعمق معرفته وتدريبه الفلسفي. وفي القائمة الطويلة لعناوين كتبه، يحتل أرسطو مكانة بارزة. اهتم الكندي بدراسة فلسفة أرسطو وشرحها، لكنه لم يكن مترجمًا مباشرًا لها، بل استعان بترجمات سابقة وأضاف شروحه وتعليقاته ونقده لأي نص خاطئ أو دخيل.

بالإضافة إلى ذلك، كلما وجد الكندي مسألة لم تُشرح بوضوح،

كان يسعى لحلها. كما انتقد الكندي الخيمياء في بعض رسائله، معتبراً أن تحويل المعادن الأساسية إلى ذهب ليس أمراً ممكناً بالطرق المعروفة. في الفلسفة، تأثر الكندي بمزيج من الأفلاطونية المحدثة والأرسطية، مع بعض التأثيرات النيوفيثاغورية (مدرسة فكرية فلسفية نشأت في العصور حوالى القرن الأول الميلادي، وهي امتداد للفكر الفيثاغوري الذي أسسه الفيلسوف الإغريقي فيثاغورس)، وقسم الفلسفة إلى ثلاثة فروع: الرياضيات، الفيزياء، والأخلاق. في الفرع الأول، اعتبر الكندي أن الرياضيات تلعب دوراً أساسياً في دراسة الفلسفة والعلوم، لكنه لم يكن يشترط إتقانها ليكون الشخص فيلسوفاً. وتجدر الإشارة إلى أن علم الرياضيات في عصره كانت تشمل العديد من المواضيع التي قد تكون أوسع من موضوعات الرياضيات الحديثة. وقد صنف الفيلسوف الإيطالي وعالم الرياضيات جيرولامو كاردانو (١٥٠١-١٥٧٦) الكندي من بين الشخصيات الفكرية العظيمة في فترة ما قبل عصر النهضة، مثل ابن رشد، الذين سعوا طوال حياتهم إلى دمج الإيمان مع العقل.

سعى الكندي إلى تحقيق هذا الهدف من خلال أطروحته الفلسفية العديدة التي تُرجمت إلى اللاتينية في العصور الوسطى، مثل كتاب «العقل» الذي استوحاه من كتاب «رسالة في النفس» لأرسطو. وقد عرّف الفلسفة بأنها «معرفة حقيقة الأشياء وفقاً لقدرات الإنسان»، معترفاً بوجود حقيقة عليا وشاملة يمكن للعقل المستنير بالإيمان الوصول إليها. فهو كان يرى أن «الإيمان يسبق العقل ويتبعه». وبهذا، كان الكندي أول فيلسوف في العالم العربي والإسلامي يتناول مسألة علاقة الإنسان بالله، ساعياً إلى دمج الفلسفة اليونانية - وبالأخص أفكار سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وأفلوطين - مع التصور الإسلامي للعالم.

مع وصول الخليفة المتوكل إلى الحكم عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م، تراجعت مكانة الكندي في البلاط العباسي بسبب توجه المتوكل نحو

تقليل تأثير الفلسفة والمعتزلة خلافاً لسلفيه، وسعى كذلك للدفاع عن الأصولية. وبالتالي، لم ينج الكندي الذي كانت آراؤه الفقهية تتسم بطابع المعتزلة من انتقام الخليفة، ولذلك صودرت مكتبته ولا نعرف على وجه التحديد هل تمكن الكندي من استعادتها مرة أخرى أم لا.

على الرغم من أن الكندي تبنى مبادئ العلوم اليونانية واستفاد من تراثها، إلا أنه طوّر أفكاراً أصلية في جميع مؤلفاته العلمية، وخاصة في البصريّات، والفلك، والأرصاد الجوية، والصيدلة. كما واجه خصوم الفلسفة الذين هاجموه باسم الدين، معتبراً أن بعض فقهاء الشريعة المتشددين كانوا بعيدين عن الحقيقة ومعادين للفلسفة، خشية فقدانهم لمناصبهم التي حصلوا عليها دون استحقاق [...] أو بسبب استغلالهم للدين في تحقيق مصالح شخصية. كان الكندي يحرص على تبجيله للرسالة النبوية الشريفة وما جاءت به، ولم يمنعه ذلك تبني توجهاً فكرياً عقلانياً يختلف عن منهج العلماء النقليين. فقد كان يرى أن المعرفة يمكن أن تأتي من أي مصدر، وهي قابلة للتطور، معتبراً أن «الله» جل جلاله هو الحق المطلق، الخالق، الذي تتجلى حكمته في كل من الوحي والعقل معاً. أما بالنسبة للإنسان، فقد اعتبره مركباً من الروح والجسد. وعندما يتجسد الإنسان في هذا العالم ويعيش تجربته الحياتية، فإن روحه تكتسب صفات معينة تؤثر على عقله، مما يجعله يتطور تدريجياً ويكتسب المعرفة، سواء من خلال الإدراك المباشر عبر الحواس والعقل أو عبر التأمل العقلي في الحقائق الخالدة والمبادئ الفلسفية العميقة. وبهذا المنهج، وضع الكندي أسس الفلسفة الإسلامية العقلانية، التي سعت إلى التوفيق بين الإيمان والعقل دون تعارض بينهما.

ركزت الأعمال العلمية الأصلية للكندي على مجالات البصريّات والصيدلة، ففي علم البصريّات، قدم أطروحته الشهيرة التي نُقلت إلى اللاتينية من خلال ترجمة جيرارد كريمونا -مترجم إيطالي عاش في القرن

الثاني عشر (حوالي ١١١٤-١١٨٧م). اشتهر بترجمته العديد من الأعمال العلمية والفلسفية من اللغة العربية إلى اللاتينية - تحت عنوان Liber de aspectibus causis diversitatum aspectus. أما في علم الموسيقى، فقد قدم نظامًا جديدًا للتدوين الموسيقي يعتمد على الأبجدية والثمانيات، وهو تقدم ملحوظ مقارنةً بأساليب إقليدس وبطليموس. وفي الجغرافيا، كتب أطروحات تناولت الجغرافيا الطبيعية، وعلى وجه الخصوص «وصف الأجزاء غير المأهولة من الأرض». من الإنصاف القول إنه بفضل الكندي، أصبحت الفلسفة اليونانية جزءًا أساسيًا من الثقافة العربية الإسلامية. وللأسف، من بين مائتين وخمسين مؤلفًا منسوبًا إليه، لم يصلنا منها سوى خمسين فقط. وقد توفي الكندي في بغداد حوالي عام ٢٥٧هـ / ٨٧٣م.

أبو بكر الكرجي (حوالي ٣٤١ - ٤٢٠هـ / ٩٥٣ - ١٠٢٩م تقريبًا)

هو أبو بكر محمد بن الحسن الكرجي عالم رياضيات بارز يُعرف أيضًا باسم الحاسب. ورد اسمه في المصنفات الحديثة تحت اسم «الكرجي» أو «الكرخي». وحيث أن الكرج بلدة تقع في منطقة طهران، فيُرجَّح أنه ينحدر من أصل فارسي. ومع ذلك، تُشير احتمالية أخرى إلى أن أصله من الكرخ، وهي ضاحية في بغداد، مما يجعل تحديد أصله أمرًا معقدًا. وكما أشار مؤرخ العلوم المصري رشدي راشد، فإن ندرة المعلومات المتوفرة عنه في المصادر العربية الكلاسيكية^(١) تجعل من الصعب ترجيح إحدى النسبتين بدقة. وبغض النظر عن ذلك، فمن

(1) Roshdi Rashed, "Al-Karaji" [الكراجي], *Dictionary of Scientific Biography* New York. [قاموس السيرة العلمية].

المؤكد أنه عاش وعمل خلال أكثر فترات حياته ازدهارًا في بغداد، حيث أنتج أهم مؤلفاته. من أبرز هذه المؤلفات كتابه «الفخري في الجبر والمقابلة»، الذي أهداه إلى فخر الملك، وزير بهاء الدولة البويهية، حاكم بغداد. كما ألّف في الفترة ما بين (٤٠٥-٤١١هـ / ١٠١٥-١٠٢٠م) كتاب «الكافي في علم الحساب»، وهو مؤلف يُعتقد أنه موجه للعاملين في الحساب بدلاً من علماء الرياضيات. يشرح الكتاب قواعد التعامل مع الأعداد الصحيحة والكسور، واستخراج الجذر التربيعي، ويتضمن معادلات لحساب المساحات والحجوم، فضلاً عن العديد من الأمثلة العملية. اللافت للنظر أن الكرجي لم يستخدم في هذا الكتاب النظام الهندي (العشري)، بل اتبع النظام الرقمي التقليدي الذي تُكتب فيه الأرقام بالكلمات. ومن بين مؤلفاته الأخرى المهمة رسالة «البديع في الحساب»، التي أعدها خلال نفس الفترة. تحتوي هذه الرسالة على عدد كبير من المسائل الرياضية، إلى جانب كونها مقدمة قيّمة للطرق الجبرية التي وضعها ديوفانتوس، عالم الرياضيات الإسكندري. كما يتضمن الكتاب تطويراً للفصول التي تناولها كل من إقليدس وعالم الرياضيات اليوناني نيقوماخوس، مع تركيز خاص على العمليات الجبرية.

سعى الكرجي، بوصفه عالم رياضيات، إلى الجمع بين التقليد والابتكار في أطروحاته الرياضية، حيث عمل على تحرير الجبر من العمليات الهندسية التي كانت جزءاً من علم الحساب اليوناني حتى تلك الفترة. وبدلاً من ذلك، قدم عمليات رياضية تتناسب مع جوهر علم الجبر المعاصر، موضعاً الصيغ وحل المعادلات باستخدام الرسوم الهندسية. يرى البعض أن الكرجي لم يُضف جديداً بل أعاد صياغة أفكار العلماء السابقين، مثل ديوفانتوس، إلا أن غالبية الخبراء يرون أنه كان مبتكراً، لأنه بدأ في فصل الجبر عن الهندسة. فقد وضع الكرجي لأول مرة نظرية لاستخراج الجذر التربيعي لكثيرة الحدود بمجهول

واحد. وقد أشاد مؤرخ الرياضيات الألماني فرانز وپكه (١٨٢٦-١٨٦٤) بالكرجي في كتابه، معتبراً إياه «أول من أدخل نظرية حساب التفاضل والتكامل الجبري». كما أضاف رشدي راشد قائلاً: «يحتل عمل الكراجي مكانة خاصة في تاريخ الرياضيات. فقد مكّنه اكتشاف وقراءة أعمال ديوفانتوس الحسابية في ضوء التصورات والأساليب الجبرية التي طورها الخوارزمي وغيره من الجبرين العرب، من تحقيق نقلة نوعية في علم الجبر»^(١).

استخدم الكرجي أيضًا برهانًا بالاستقراء الرياضي لإثبات نظرية ذات الحدين^(٢) ومثلث باسكال. يُسمى مثلث باسكال على اسم عالم الرياضيات الفرنسي الذي وصفه لأول مرة في القرن السابع عشر، وهو عبارة عن مصفوفة مثلثة من الأعداد حيث يكون كل عدد هو مجموع العددين اللذين يعلوه مباشرة. يبدأ كل صف في مثلث باسكال بالعدد ١، وكل رقم تالٍ هو مجموع الرقمين اللذين يعلوه. في مرحلة لاحقة من حياته، ربما حوالي عام ٣٩٢هـ / ١٠١٤م، غادر الكراجي العاصمة العباسية بغداد إلى «منطقة جبلية»، ومنذ ذلك الحين يبدو أنه تفرغ لعلوم أخرى مثل الهيدرولوجيا والهيدروليكا، متخليًا عن الرياضيات. وبالتالي، من المعقول أن يكون كتابه «كتاب إنبات المياه الخفية»، الذي يعود تاريخه إلى عام ٣٩٣هـ / ١٠١٥م، ينتمي إلى هذه الفترة المتأخرة من حياته. في تلك الفترة، شهدت المدن الكبيرة في العالم العربي الإسلامي

(١) نيقوماخوس الجيراسي هو عالم رياضيات وفيلسوف إغريقي قديم، وُلد حوالي عام ٦٠م في جيراسا، التي تُعرف اليوم باسم جرش في الأردن. اشتهر بكتابه «مقدمة في الحساب» حيث كان من أوائل من كتبوا عن نظرية الأعداد بأسلوب فلسفي وتعليمي، وكان لأعماله تأثير كبير على الفلاسفة والعلماء اللاحقين، مثل بطليموس وبوثيوس.

(٢) تعد نظرية ذات الحدين من أشهر النظريات في علم الجبر، ولها تطبيقات عديدة في مجالات الجبر والاحتمالات والإحصاء.

نمواً سريعاً، مما استلزم البحث عن أساليب جديدة للإمداد بالمياه، فضلاً عن تطور الزراعة وأنظمة الري. يُعد كتاب الكرجي هذا من أقدم الكتب في مجال علم المياه، ويظهر إتقاناً حقيقياً من المؤلف لهذا الموضوع.

بعد مقدمة تحتوي على ملاحظات حول سيرته الذاتية واعتبارات عامة عن جغرافية الكرة الأرضية، والظواهر الطبيعية، ودورة المياه، ودراسة التضاريس، يصف المؤلف التقنيات المستخدمة في العثور على المياه الجوفية واستغلالها. كما يتناول بناء وصيانة القناطر، وهي أعمال هيدروليكية مصممة لالتقاط المياه الجوفية ونقلها إلى خارج الأرض. يقدم الكرجي أيضاً عدداً من الأدوات التي اخترع بعضها بنفسه. يعد هذا العمل مساهمة أصيلة في علم الهيدرولوجيا، ويُعتبر وثيقة قيمة تكشف عن المعرفة في هذا المجال في العالم العربي الإسلامي في القرن العاشر. على الرغم من عدم وجود مصدر قديم يذكر التواريخ الدقيقة لميلاد الكرجي أو وفاته، إلا أن بعض تفاصيل سيرته الذاتية وسنة نشر كتابه «كتاب إنبات المياه الخفية» تجعلنا نميل إلى أنه توفي بعد عام ٣٩٤هـ / ١٠١٥م وتاريخ وفاته غير مؤكد.

عمر الخيام (٤٢٦ - ٥٠٩هـ / ١٨ مايو ١٠٤٨ - ٤ ديسمبر ١١٣١م)

كَمْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ كَائِنٍ غَيْرِ حَيٍّ!
كَمْ مِنْ آخِرِينَ مَذْفُونِينَ فِي دَارِ الْغَيْبِ!
وأمام صحراء العدم هذه أقول لنفسي

كم من كائنات ستأتي إلى هنا، كم من كائنات رحلت!

هو غِيَاثُ الدِّينِ أَبُو الْفُتُوحِ عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ صَالِحِ الْخِيَّامِ النِّيسَابُورِيِّ، هو واحد من أعظم الشخصيات في تاريخ الفكر العربي والإسلامي. قد يثير تساؤلات حول كونه شاعراً أم عالماً رياضياً أو فلكياً. في الواقع، كان الخيام شخصاً جامعاً بين هذه الأدوار المتنوعة، حيث اشتهر أولاً بشعره، خاصة رباعياته، وهي قصائد شهيرة تتكون من أربعة أبيات، والتي عبّر فيها عن فلسفته في الحياة والموت والوجود. ومع ذلك، يتجاهل الكثيرون أن الخيام كان عالماً فذاً في عصره، فقد برع في العديد من المجالات العلمية.

وُلِدَ عمر الخيام حوالي عام ٤٢٦هـ / ١٠٤٨م في حي الشدياق في مدينة نيسابور القديمة بمقاطعة خراسان. ومع ذلك، يشير بعض الباحثين إلى أنه ولد في أستراباد (التي تُعرف اليوم بجرجان)، بينما يذكر آخرون أن مسقط رأسه مدينة لوكار الواقعة على الضفة الشرقية لنهر مرغاب جنوب مرو. بينما يؤكد أبو بكر البيهقي (٣٥٨-٤٥٨هـ / ٩٩٤-١٠٦٦م)، كاتب سيرته الذي قابله شخصياً، أن أسلاف الخيام جميعهم من نيسابور. اسمه «الخيام» يعني في اللغة العربية «صانع الخيام»، وهو اسم ورثه على الأرجح عن أبيه إبراهيم. وقد ذكر رحيم رضا زادة مالك^(١)، المحرر وصاحب كتاب سيرة «عمر الخيام»، في كتابه أن والده كان قد ترك الديانة الزرادشتية ليعتق الإسلام السني، ولذلك أُعتبر «الخيام»، المُلقب من قبل البعض بـ «أبو الفتح»، من الجيل الأول من المسلمين في فارس. وتشير هذه الكنية «أبو الفتح» إلى أن عمر الخيام كان له ابن بهذا الاسم. ومع ذلك، لم يتم تأكيد أي من هذه الافتراضات من قبل كتاب السيرة

(١) رحيم رضا زادة مالك، عمر الخيام. (طهران: مهارت، ١٩٩٨).

الآخرين. وبسبب شكه في أن الأساتذة المشهورين سيقبلون تعليم ابن صانع خيام فقير، طلب إبراهيم والده من القاضي وإمام المسجد محمد، أن يقبل عمر ابنه تلميذاً لديه^(١).

بعد دراسته لعلوم القرآن الكريم والنحو والأدب العربي، واصل التلميذ دراسته على يد أستاذ آخر علّمه مختلف فروع الرياضيات والفلك والمذاهب الكونية التقليدية، لا سيما عمل بطليموس الرئيسي «المجسطي». ليصبح في النهاية جاهزاً للدراسة على يد الإمام الموفق النيسابوري، الذي لم يكن يُعلّم إلا الأفضل^(٢). وفقاً لما ذكره إدوارد فيتزجيرالد في مقدمته لكتاب «الرباعيات»، أتيت للخيّام، تحت وصاية النيسابوري، الفرصة لمقابلة نظام الملك، الذي أصبح فيما بعد وزيراً في بغداد.

تداولت بعض الأقاويل إن الخيام كان تلميذاً لابن سينا، ولكن هذا الكلام عاري تماماً عن الصح؛ فعندما وُلد الخيام في ٤٢٦هـ / ١٠٤٨م، كان «الشيخ الرئيس» قد توفي منذ أحد عشر عاماً. إلا أنه من المحتمل أنه درس في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة على يد أحد تلاميذ ابن سينا الأكثر نبوغاً، وهو أبو الحسن بهمنيار^(٣). وهذا ما يفسر لماذا كان

(1) Aminrazavi, M. (2005). *The Wine of Wisdom (The Life, Poetry and Philosophy of Omar Khayyam)* [خمر الحكمة (حياة وشعر وفلسفة عمر الخيام)] England: Oneworld Publications.

(2) المرجع السابق

(3) بهمنيار وُلد في أذربيجان وتوفي عام ١٠٦٦م. كان أحد أبرز تلامذة ابن سينا وتأثر بفلسفته بشكل كبير. كتب كتاب «المناقشات»، وهو عبارة عن مجموعة من الأسئلة التي طرحها على ابن سينا وإجابات الأخير عليها. جُمع هذا العمل بين عامي ١٠٢٤م و١٠٣٧م، خلال فترة إقامة ابن سينا في أصفهان، حيث كان يعمل طبيباً ومستشاراً في بلاط الأمراء البويهيين.

مؤيدًا متحمسًا لفلسفة ابن سينا طوال حياته. لم يمض وقت طويل قبل أن تنتشر شهرة الخيام في جميع أنحاء المنطقة إلى درجة أنه مُنح ألقابًا فخريّة مثل «برهان الحق» و«راعي الإيمان» و«الإمام»، وهي ألقاب تشير إلى الاحترام والتقدير الذي كان يحظى به. وقد قيل عنه إنه كان خجولاً وحساساً، سيئ المزاج، قليل الصبر، متردداً في مشاركة علمه مع الآخرين. وقد عزا البعض عدم اهتمامه بالتدريس إلى رغبته في عدم لفت الأنظار إليه فكرياً. وهناك العديد من الروايات التي تشيد بذاكرته الرائعة. ففي إحدى رحلاته إلى مدينة بلخ، صادف كتاباً أثار اهتمامه وكان حريصاً على شرائه، ولكن على الرغم من إصراره، لم يسمح له أصحابه إلا بقراءته على الفور. فوافق الخيام، وعند عودته إلى نيسابور أملاه بالكامل على أحد تلاميذه.

لكن هنا مرة أخرى، لا تزال صحة هذه الروايات غير واضحة. ففي عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م، اقترح مالك شاه ووزيره نظام الملك على الخيام وغيره من علماء الفلك المشهورين بناء مرصد في أصفهان وتحديث التقويم الجلالّي أو الفارسي^(١). ينحدر هذا التقويم من التقويمات الزرادشتية في بلاد فارس قبل الإسلام. ويقال إن نظام السنوات الكبيسة، وهو نظام أكثر تعقيداً ولكنه أيضاً أكثر دقة من النظام الميلادي، قد أدخله عمر الخيام.

(١) التقويم الشمسي المستخدم في إيران وأفغانستان على وجه الخصوص مستمد من التقويمات الزرادشتية التي كانت مستخدمة في بلاد فارس قبل الإسلام. تُحسب السنوات ابتداءً من السنة الهجرية (٦٢٢م وفقاً للتقويم اليولياني)، ولكن بدلاً من اعتماد ١٦ تموز/ يوليو كتاريخ لبداية السنة، كما هو الحال في التقويم الهجري التقليدي، تم استبداله بتاريخ الاعتدال الربيعي، مما يجعل التقويم أكثر دقة من الناحية الفلكية.

لم يكن علماء هذا العصر يعيشون حياة سهلة إذا لم يكن لديهم دعم من راع قوي. وهذه هي المشكلة التي ذكرها الخيام في «رسالة في بيان المسائل الجبرية»: «لم أتمكن من الخوض في هذا الموضوع (الجبر) بسبب العقبات الكثيرة التي ظهرت على مر الزمن. لقد حُرمتنا من جميع أهل العلم إلا طائفة واحدة منهم كانت فريسة لمشاكل كثيرة، منها أن يجدوا الفرصة سانحة للتفرغ لتحقيق علم من العلوم وإتقانه، فصاروا في غفلة من الزمن. وجمهور الناس الذين يقلدون الفلاسفة يخلطون الحق بالباطل، ما انفكوا يخدعون ويتظاهرون بالعلم، ولا يستعملون ما يعرفونه من العلوم إلا في أغراض دنيئة ومادية، وإذا رأوا إنسانًا يطلب الخير ويؤثر الحق، ويبذل جهده في دحض الباطل والكذب ويترك الرياء والخداع، سخروا منه واستهزأوا به»^(١).

في عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م، وضعت الأحداث السياسية حدًا للهدوء النسبي الذي كان يعيشه الخيام. توفي مالك شاه في نوفمبر من ذلك العام، بعد شهر واحد من اغتيال وزيره نظام الملك على يد حركة «الحشاشين»، وهي حركة إرهابية أسسها الحسن بن الصباح زعيم الحشاشين. تولت زوجة مالك شاه الثانية السلطة لمدة عامين، ولأنها كانت قد اصطدمت مع نظام الملك، تراجعت عن دعم جميع الذين استفادوا من حمايتها سابقًا وكان منهم عمر الخيام. وفور حرمانه من الحماية، وجد الخيام نفسه عرضة لانتقادات المسلمين الأصوليين الذين شعروا أن «فلسفته» أو بالأحرى حرية فكره (خاصة في المجال الديني)

(1) B. A. Rosenfeld, A. P. Youshkevitch, *Biography in Dictionary of Scientific Biography* [السيرة الذاتية في قاموس السير العلمية] New York, 1970-1990.

لا تتماشى مع العقيدة. ربما في هذا الوقت كتب هذه الرباعية التي ترجمها الشاعر البريطاني إدوارد فيتزجيرالد إلى الإنجليزية^(١):

«بالفعل، لقد أساءت الأصنام التي أحببتها طويلاً

إلى رصيدي في أعين الناس كثيراً:

أغرقت شرفي في كأس ضحلة،

وبعت سمعتي مقابل أغنية».

مكتبة

t.me/soramnqraa

وعلى الرغم من أن الخيام لم يكن يحظى بتقدير الجميع، إلا أنه ظل في البلاط، يسعى جاهداً ليستعيد رضا زوجة مالك شاه، لكن دون جدوى. قرر بعد ذلك الرحيل إلى مرو (اليوم في تركمانستان)، حيث كان هناك مركز كبير للتعليم الإسلامي. ويفترض أنه ربما كتب في هذه المدينة رسالته «جبر عمر الخيام» التي ترجمها إلى الفرنسية ف. فوبكه عام ١٨٥١.

ويوضح فوبكه في مقدمته: «ومع ذلك لم يفكر أحد من قبل في دراسة هذه الرسالة التي لفتت انتباه علماء الهندسة والمستشرقين، عندما أعلن السيد سيديلو في «المجلة الآسيوية الجديدة» أنه اكتشف في مخطوطة عربية في المكتبة الملكية جزءاً مثيراً للاهتمام من رسالة في الجبر. وكان محتوى هذه القطعة يحمل تشابهاً ملحوظاً مع ما كان من المحتمل أن يشكل موضوع مخطوطة «ليدن». وقد وصف السيد سيديلو هذه القطعة بمزيد من التفصيل في بحث أدرجه في مذكرات وإضافات

(١) كان إدوارد فيتزجيرالد هو الذي جعل عمر الخيام معروفاً في جميع أنحاء العالم عام ١٨٥٩م، عندما ترجم ما يقرب من ٦٠٠ رباعية مصحوبة بالرسوم التوضيحية. تضمن هذا المنشور سيرة ذاتية للشاعر، والتي أصبحت المصدر الأساسي لكل ما نعرفه عنه تقريباً.

مخطوطات المكتبة الملكية^(١). ووفقًا للتحليل الذي قدمه السيد سيديلو، أعلن السيد شاليس في عمله الرائع عن تاريخ الهندسة أن نشر هذه القطعة كاملة سيكون ذا أهمية حقيقية لتاريخ العلوم الرياضية.

لم تبدأ دراسة أبحاث «الخيام» الجبرية واكتشافها إلا في القرن التاسع عشر، وهو ما يفسر لماذا لم يكن لها التأثير الذي كان ينبغي أن يكون لها في العالم العلمي. ففي الوقت الذي لفتت فيه انتباه العلماء، خاصة في القرن التاسع عشر، كانت العلوم قد وصلت بالفعل إلى مستوى أعلى، بحيث لم تكن معرفة أعماله العلمية إلا ذات أهمية تاريخية.

ومع ذلك، فقد كتب مؤرخ العلوم الأمريكي جورج سارتون: «كان الخيام أول من اهتم بالمعادلات الخطية والمربعة والتكعيبية. وقد قدم تصنيفًا رائعًا للمعادلات وبحث عن أشكالها الهندسية. وقدمت أطروحته في الجبر تفكيرًا منظمًا جيدًا. وتعد هذه الرسالة من أبرز الرسائل في العصور الوسطى».

مع ذلك، يمكننا أن نشير إلى أن له مساهمات علمية بارزة، لا سيما من خلال تحقيق سلسلة من الاكتشافات في مجالات الرياضيات والفلك والفيزياء. فهو أول من اقترح تصنيفًا كاملاً لجميع أنواع المعادلات، بما في ذلك المعادلات الخطية والمربعة والتكعيبية. ومن خلال تطوير نظرية منهجية لإيجاد حلول المعادلات التكعيبية، أسس نظرية حل المعادلات الجبرية. كما كتب أطروحتين مهمتين في تاريخ الرياضيات: «شرح المسائل الجبرية» التي كتبها عام ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م في سمرقند، و«شروح على صعوبات بعض مسلمات كتاب إقليدس» التي كتبها عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م في أصفهان.

(١) باريس، بنجامين دوبرات، مكتبة معهد المكتبة الوطنية للجمعيات الآسيوية في باريس ولندن وكلكتا.

كانت بعض أعماله مذهلة للغاية بالنسبة لعصرها، ولا تزال تُعد من أهم المساهمات العلمية في تاريخ الرياضيات والفلك. لا يزال تعريفه للفيزياء موضوعًا مثيرًا للجدل ومجالاً للبحث حتى اليوم، وهو ما يشير إلى مدى تأثيره في العلوم المعاصرة. استطاع الخيام إيجاد حل عام للمعادلات المربعة باستخدام الطريقتين الهندسية والحسابية في آن واحد. فيما يتعلق بالمعادلات التكعيبية، فقد أثبت أنه يمكن أن تكون لها أكثر من إجابة واحدة، أو ربما لا يكون لها أي إجابة على الإطلاق.

قبل ديكارت بأربعة قرون، توصل الخيام إلى واحدة من أعظم اكتشافات العلم بتحديد الرقم ككمية متصلة، ليصبح بذلك أول من عرّف العدد الصحيح الطبيعي وأثبت أن أي كمية رياضية يمكن تقسيمها إلى ما لا نهاية. كما ثبت أيضًا مفهومًا راسخًا في الهندسة خلال بحثه عن طريقة لإثبات بديهية التوازي، المعروفة أيضًا بالفرضية الخامسة لإقليدس، وهي مسألة كانت تشغل الفلاسفة وعلماء الرياضيات لعدة قرون بعده.

وقبل ستمائة عام من ميلاد العالم الإنجليزي إسحاق نيوتن (الميلادي ١٠٥٢-١١٤٠هـ / ١٦٤٢-١٧٢٧م)، الذي تحمل معادلته اسمه، كان الخيام أيضًا أول من قدم صيغة ذات الحدين للمقاييس الطبيعية في نظريته حول المعاملات ذات الحدين. هذا الإنجاز يعكس قدرة الخيام على التفكير المبتكر واستخدام الرياضيات لفهم الظواهر الطبيعية بطريقة متقدمة. بالنسبة للقراء الذين لديهم شغف بالرياضيات ويرغبون في التعمق في أعمال عمر الخيام العلمية، يمكنهم الرجوع إلى كتاب «أعمال عمر الخيام في تاريخ الرياضيات» للمؤلف توماس بيسوم^(١). يقدم

(1) Paris, Benjamin Duprat, *Librairie de l'Institut, de la Bibliothèque Nationale et des Sociétés Asiatiques de Paris, de Londres et de Calcutta*, مكتبة المعهد]

الكتاب رؤية شاملة عن إسهامات الخيام في مجال الرياضيات. أما بالنسبة لأول من درس سيرة وأعمال عمر الخيام من خارج بلاد فارس، فقد كان المستشرق الإنجليزي توماس هايد (١٠٣٦-١١١٥هـ / ١٦٣٦-١٧٠٣م). ففي كتابه «تاريخ الدين الفارسي القديم» (١١١٢هـ / ١٧٠٠م)، خصص صفحات لحياة الخيام وأعماله، كما قام بترجمة إحدى رباعياته إلى اللاتينية. نُشرت أول رباعية للخيام باللغة الإنجليزية في عام ١٢٣١هـ / ١٨١٦م على يد هنري جورج كين (١١٩٥-١٢٨١هـ / ١٧٨١-١٨٦٤) في مجلة «فندغروبين ديس أورينت» Fundgruben des Orients الألمانية المعروفة في تلك الفترة، والتي تعني بالعربية «مناجم الشرق». على الرغم من أن بعض الأبحاث المبكرة، مثل تلك التي قدمها جوزيف فون هامر-بورغستال (١١٨٨-١٢٧٣هـ / ١٧٧٤-١٨٥٦م) الذي ترجم بعض قصائده إلى الألمانية عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م، أو السير غور أوسلي (١١٨٤-١٢٦٠هـ / ١٧٧٠-١٨٤٤م) الذي ترجم بعضها إلى الإنجليزية في عام ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م، إلا أن الخيام ظل نسبياً مجهولاً لبعض الوقت.

في عام ١٢٧٥هـ / ١٨٥٩م، قام الناشر برنارد كواريتش بطباعة ٢٥٠ نسخة من رباعيات الشاعر عمر الخيام، التي ترجمها الشاعر الإنجليزي إدوارد فيتزجيرالد (١٢٢٤-١٣٠٠هـ / ١٨٠٩-١٨٨٣م)، بما في ذلك ٤٠ نسخة للاستخدام الشخصي. وزّع كواريتش عددًا قليلاً من النسخ على أصدقائه، إلا أن العمل لم يحقق نجاحًا كبيرًا في تلك الفترة. وفي عام ١٢٧٩هـ / ١٨٦١م، وُضعت الكتيبات غير المباعة في درج بأحد متاجره،

Dédié à Son
Altesse Sérénissime Frédéric, prince héréditaire d'Anhalt-Dessau إلى

صاحب السمو فريدريك، الأمير الوراثي لأنهلت-ديساو]:

<https://scholarworks.umt.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=1524&context=tme>.

حيث كانت النسخة تُعرض للبيع بمبلغ فلس واحد. لم تُبع أي نسخة حتى اشترى ويتلي ستوكس Whitley Stokes، وهو الباحث المتخصص في الدراسات السلتيّة، (الدراسات المتعلقة بحضارات ولغات وثقافات الشعوب السلتيّة (Celtic)، التي عاشت في مناطق مثل إيرلندا، اسكتلندا) نسخة واحدة في العام نفسه، وكان ويتلي قد درس اللغة الإيرلندية القديمة والتقاليد الأدبية وكان مهتم بالنصوص القديمة والمخطوطات، فقام بشراء الكتاب ومن ثم اشتهر الكتاب في بريطانيا وتأثر به آخرون. ليعود لاحقًا لشراء المزيد من النسخ وينقل حماسه للآخرين، لا سيما إلى الكاتب والشاعر والمهندس المعماري البريطاني ويليام موريس والرسام إدوارد بورن جونز. ومن خلال بورن جونز، اكتشف الشاب روديارد كيبلينغ الرباعيات. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر، وصلت رباعيات فيتزجيرالد إلى ذروة شعبيتها، ليس فقط في بريطانيا بل في أمريكا أيضًا. وعلى الرغم من أن تأثير عمر الخيام الأدبي والاجتماعي لم يعد بنفس الإشراق الذي كان عليه في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إلا أنه لا يزال يحظى باهتمام كبير من قبل المفكرين والفنانين في مختلف المجالات حول العالم. فقد استلهم العديد من المفكرين، والرسامين، والملحنين، ومصممي الرقصات، والشعراء من أعماله. أما بالنسبة لتاريخ وفاته الدقيق، فلا يزال يشكل لغزًا غامضًا، رغم كونه شخصية مشهورة في زمنه. يعتقد بعض الباحثين أنه توفي عام ١١٢٤م / ٥٤٦هـ أو قبل ذلك، لكن معظم العلماء المعاصرين يرجحون أن ١١٣١م / ٥٥٣هـ هو التاريخ الأقرب للصحة.

المنارات الأخرى

وإلى جانب العباقرة الذين أشرنا إليهم والذين تركوا بصماتهم على هذا العصر الذهبي، هناك العديد من الأشخاص الآخرين الذين تركوا بصمة أقل سطوعًا ولكنهم يستحقون الذكر.

أبو الحسن بن الأثير (٥٦٢ - ٦٣٠هـ / ١١٦٠م - ١٢٣٣م)

مؤرخ وأديب، ألف عدة مؤلفات أشهرها «الكامل في التاريخ». لا يزال هذا العمل التاريخي العظيم، المستوحى من التاريخ الشامل للطبري، مدهشًا حتى يومنا هذا، ليس فقط لمدى وموثوقية معلوماته عن العالم الإسلامي في ذلك الوقت بأكمله؛ بل لموضوعيته ووضوح ودقة أسلوبه وبراعة عرضه. وإذا كان هذا العمل لم يحظَ دائمًا بالتقدير الذي يستحقه، فهو بلا شك من روائع التأريخ العربي الأصيلة، فهو عمل مميز تفوق في الطرح والأصالة والموضوعية على أمثاله من كتب التاريخ، على الرغم من بعض الهنات القليلة.

ابن الفحام أبو الحسن علي بن محمد التلمساني (القرن الرابع عشر)

دخل ابن الفحام التاريخ باعتباره أحد أعظم علماء الرياضيات والفيزياء الذين عرفتهم تلمسان على الإطلاق. وقد عاش دائمًا في

المغرب، حيث وُلد. وفقًا لابن خلدون، كان ابن الفحام «أكثر رجال عصرنا تبحرًا في مختلف فروع العلوم الرياضية». يُنسب إليه الفضل في اختراع ساعة غير مألوفة تشغلها المياه العمومية، بُنيت عام ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م وعُرفت باسم المنجانة. كانت تقع في المدرسة البوعنانية في مدينة فاس. وقد استُخدم فيها نظام معقد للغاية (لم يتمكن أحد من إعادة تشغيلها منذ ذلك الحين) لتتبع أوقات الصلاة بدقة. بدأ في بنائها في عهد السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب (٧١٠ - ٧٣٣هـ/ ١٣١٠م - ١٣٣١م) لتكتمل في عام ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م، وقام بترميمها أبو عنان فارس. تُركت هذه الساعة مهجورة لحوالي خمسة قرون، ولا تزال لغزًا. يزعم الباحثون أنها كانت تعمل وفقًا لنظام يقسم النهار (من شروق الشمس إلى غروبها) إلى ١٢ جزءًا متساويًا، والليل (من غروب الشمس إلى شروقها) إلى ١٢ جزءًا متساويًا. وكات الوقت يُسجل عن طريق فتح نوافذ يتم تفعيلها بواسطة حركة آلية تتألف من البكرات المتصلة بخزان ماء وعوامة وعربة. عند تساقط الماء من الصهريج، تنزل العوامة الخشبية لتحرك العربة بواسطة الحبال والبكرات وتفتح النوافذ. لتطلق كل نافذة كرة تسقط في كأس برونزية فتدق الساعة المنتظرة. وفي المساء كان متعهد الساعة يعيد كل شيء إلى مكانه ويغلق النوافذ لليوم التالي.

الجاحظ (١٥٩ - ٢٥٥هـ/ ٧٧٥ - ٨٦٨م)

كان أبو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرِ محبوب الليثي الكناني البصري المعروف بالجاحظ كاتبًا موسوعيًا ومفسرًا بارزًا، وُلد حوالي عام ١٥٩هـ/ ٧٧٥م في البصرة، وتوفي في ديسمبر عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م. يُعتبر من أعظم مبدعي النثر العربي على مر العصور، إذ جمع في كتاباته بين التراث العربي والفكر اليوناني، وترك إرثًا ضخماً تجاوز مائتي مؤلف، تُرجم منها حوالي خمسين مؤلفًا إلى اللغة الفرنسية. كان الجاحظ مثلاً

حيًا لقدرة الثقافة العربية على استيعاب مختلف الفئات الاجتماعية، حيث تمكن رغم نشأته المتواضعة من أن يصبح أحد أعظم أدباء عصره بعد إتمامه تعليمه بدراسة القرآن الكريم، واعتماده على ذكائه الفذ، واستفادته من الموارد الفكرية والثقافية الغنية التي وفرتها مدينته البصرة، مركز العلم والفكر في ذلك العصر.

كان الجاحظ من الأدباء النادرين في أدب القرون الوسطى، إذ كرّس وقته لمراقبة مختلف شرائح مجتمعه من التجار، والمشعوذين، وبائعي الكتب، والقصاصين، وحتى الأشقياء. عاش بينهم، ودرس تفاصيل حياتهم، واهتم بلغاتهم وطرق تعبيرهم، كما تعمق في تقنيات حرفهم وجمع القصص التي كانوا يروونها. هذه الملاحظات الحية أضافت إلى معرفته الموسوعية بُعدًا إنسانيًا ومعرفيًا فريدًا انعكس بوضوح في كتاباته. يُعد كتابه الأشهر، «كتاب الحيوان»، موسوعة غنية تصف نحو ٣٥٠ نوعًا من الحيوانات. إلى جانب الوصف، قدم الجاحظ من خلاله أفكارًا سبقت عصره وتشابه إلى حد كبير المبادئ الأساسية لنظرية داروين حول تطور الأنواع. فقد أشار إلى أن «الحيوانات تخوض صراعًا دائمًا من أجل البقاء، وتستخدم كل الوسائل الممكنة لتجنب أن تؤكل ولضمان تكاثرها». كما كتب: «تؤثر العوامل البيئية على الكائنات الحية بطريقة تدفعها لتطوير خصائص جديدة تساعدها على البقاء، مما يؤدي في النهاية إلى ظهور أنواع جديدة». أما عن نهايته، فتذكر المصادر إنه في سن الثانية والتسعين، وبينما كان يحاول الوصول إلى كتاب موضوع على رف مرتفع وثقيل، انهارت الأرفف وسقطت عليه، ليلقى حتفه تحت كتبه التي كانت شغفه الأبدي.

تقي الدين المقرئزي (٧٦٤ - ٨٤٥هـ / ١٣٦٤ - ١٤٤٢م)

المؤرخ تقي الدين أحمد أبو محمد وأبو العباس بن علي بن عبد

القادر بن محمد المقرئ هو شيخ مؤرخي مصر وأبرز كُتَّاب السيرة في العصر المملوكي، وُلِدَ في القاهرة في بيئة علمية مشبعة بالثقافة والتاريخ. عاصر المقرئ المؤرخ ابن خلدون، الذي أبدى إعجابًا كبيرًا بفكره ومؤلفاته. فقد تميَّز المقرئ بغزارة إنتاجه العلمي، حيث أَلَفَ العديد من الأعمال المهمة إلى يومنا هذا وأبرزها «كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار»، المعروف اختصارًا بـ«الخطط»، الذي يُعد مرجعًا لا غنى عنه لدراسة تاريخ مصر، لا سيما القاهرة. تناول المقرئ في هذا الكتاب تفاصيل دقيقة عن شوارعها، أحيائها، ومبانيها الأثرية، معتمدًا على النصوص التاريخية وعلم الآثار، مما جعل «الخطط» أساسًا للكثير من الدراسات الحديثة عن تاريخ مصر. إلى جانب «الخطط»، كتب المقرئ أعمالاً متعددة عن تاريخ السلالات الفاطمية والأيوبية والمملوكية.

ابن خلكان (٦٠٨-٦٨١هـ / ١٢١١-١٢٨٢م)

شمس الدين أبو العباس أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن أَبِي بَكْر بن خَلْكَان، فقيه وكاتب سيرة شهير، وُلِدَ في كردستان وتوفي في دمشق. تميز بثقافته الواسعة وشغفه بالدراسات التاريخية، ما أهله ليكون أحد أبرز أعلام التأريخ والسير. يُنسب إليه تأليف معجم التراجم الشهير «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، الذي يُعد مرجعًا أساسيًا في تراجم الشخصيات البارزة في التاريخ العربي الإسلامي. استقى مادته من أصدق المصادر المتوفرة آنذاك، وحصر كتابه على أعلام الفكر والعلم والأدب، متجنبًا الكتابة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والخلفاء الراشدين، نظرًا لكثرة المؤلفات المخصصة لهم. يُعتبر هذا المعجم نموذجًا رائدًا في فن التراجم، حيث جمع بين الدقة التاريخية والأسلوب الأدبي الرفيع، مما جعل أثره خالدًا في المكتبة العربية.

أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي فقيه وقاضي بغداد الأكبر، وأحد أعلام الفكر السياسي الإسلامي في العصر العباسي. وُلد في البصرة في بيئة متواضعة، حيث تلقى تعليمه الأول في أوساطها الفكرية، ثم انتقل إلى بغداد التي أصبحت مقر إقامته الرئيسي حتى وفاته عن عمر ٨٦ عامًا. برز الماوردي كواحد من أكثر المفكرين تأثيرًا في زمانه، وحظي بشهرة واسعة بسبب مكانته العلمية وشخصيته التي حظيت بتقدير معاصريه. شغل مناصب تدريسية وقضائية في العديد من المناطق قبل أن يستقر في بغداد، حيث خدم الدولة العباسية في ظل النفوذ المتزايد للأمرء البويهيين، الذين تجاوزت سلطتهم في كثير من الأحيان سلطة الخلفاء العباسيين. ألف الماوردي العديد من الكتب، لكن أبرزها «الأحكام السلطانية»، الذي يتناول الفقه السياسي. في هذا الكتاب، قدّم الماوردي نظرية سياسية متقدمة عن الخلافة الإسلامية، وناقش المؤسسات السياسية والاجتماعية والقانونية للدولة. تناول الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» مفهوم الدولة وأشكال الحكم، وناقش الفروق بين الدولة الدينية والدولة القائمة على القوة، محذّرًا من الفوضى السياسية محلاً للأسباب التي تؤدي إلى انهيار السلطة.

أبو علي أحمد بن يعقوب بن مسكويه، فيلسوف وعالم ومؤرخ إسلامي ترك أثرًا بارزًا في الفكر الإسلامي. لا تُعرف تفاصيل كثيرة عن حياته الشخصية، بخلاف أنه وُلد في إيران. اهتم بمجالات متعددة مثل الخيمياء والشعر، ونُسب إليه نحو عشرين عملًا، إلا أن أبرز إسهاماته كانت في مجالي الأخلاق والتاريخ. في الفلسفة الأخلاقية، يُعتبر كتابه

«تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» علامة بارزة، حيث تأثر فيه بالمفهوم الأرسطي للوسطية، مؤكدًا على أهمية تحقيق التوازن في السلوك الإنساني. يُعد هذا الكتاب من أفضل ما كُتب في الفلسفة الإسلامية في هذا المجال، وظل نموذجًا يُحتذى به للأجيال اللاحقة من المفكرين. أما في مجال التاريخ، فقد اشتهر ابن مسكويه بكتابه «تجارب الأمم وتعاقب الهمم»، الذي يُعد من أوائل المؤلفات التي اعتمدت منهجية علمية دقيقة بعيدًا عن الأساطير. جمع في هذا العمل التاريخي الشامل كل ما أتيح له من مصادر متنوعة، مقدمًا رؤية متماسكة لتطور الأمم وتعاقب الحضارات. هذا النهج أسهم بشكل كبير في تطور علم التاريخ الإسلامي، وجعل من ابن مسكويه أحد أعلام هذا المجال.

مكتبة
t.me/soramnqraa

خاتمة القول؛

إن هذا الكتاب ليس مجرد استعادة لسجل تاريخي مضى، بل هو دعوة لإعادة قراءة ماضي الحضاري بعيون الحاضر، بعيداً عن السرديات المجتزأة التي همشت الإرث العربي الإسلامي لقرون. فالعصر الذهبي للحضارة الإسلامية لم يكن صدفة عابرة، بل نتاج تفاعل فريد بين العقل والإيمان، والانفتاح على الثقافات الأخرى، حيث لم يُنظر إلى العلم والمعرفة كمجرد ترف، بل كضرورة لازمة لتقدم الإنسانية.

وما بين أروقة بيت الحكمة، ومراصد الفلك، وصروح العلم التي أسسها العرب والمسلمون، تشكلت قواعد العلوم التي قامت عليها الحضارة الحديثة. واليوم، لم يعد السؤال هل كان لنا دورٌ في النهضة البشرية؟ بل كيف يمكن أن نستعيد تلك الروح، ونستلهم من إرثنا ما يدفعنا لبناء مستقبل يليق بتاريخنا؟

إن الاستلهام من هذا العصر ليست عودة إلى الوراء، بل هي استنهاض لقيم البحث والإبداع والتجديد، التي يمكن أن تكون جسراً نحو نهضة جديدة، تُعيد لأمتنا مكانتها المستحقة بين الأمم.

وكما قال المؤرخ الفرنسي باتريك ريبو في كتابه «المعارف في العصر الذهبي للحضارة العربية-الإسلامية»، هناك ميلٌ شائع لمساواة كل ما هو عربي أو إسلامي باللاعقلانية أو التطرف، وهو تصور خاطئ يتجاهل إسهامات الحضارة العربية الإسلامية في العلوم المادية والإنسانية بين

القرنين الثامن والثالث عشر الميلاديين. لم يكن العرب مجرد نَقْلَة للمعرفة القديمة، بل كانوا مبتكرين حقيقيين، طَوَّرُوا ما وصل إليهم وأضافوا إليه رؤى جديدة، بما يعكس قدرتهم على الإبداع والتجديد. لقد استوعبوا معارف الشعوب التي احتكوا بها، وحولوها إلى منظومة معرفية متكاملة، خلدت أسماءهم في صفحات التاريخ.

لذا، فإن استذكار هذا العصر ليس ترفاً فكرياً، بل ضرورة لفهم دورنا الحضاري وإعادة الثقة بقدرتنا على استئناف المسيرة العلمية والفكرية التي أضاعت العالم يوماً.

قائمة المصادر والمراجع

- de Libéra. *Averroès et l'Averroïsme* [ابن رشد والرشدية]. Paris, 1991.
- Abd al-Karim Chehade. *Ibn al-Nafis et la Découverte de la Circulation Pulmonaire* [ابن النفيس واكتشاف الدورة الدموية الصغرى]. Institut Français du Proche-Orient, janvier 1955.
- Abd al-Rahman Badawi. *Histoire de la philosophie en Islam* [تاريخ الفلسفة]. Paris: J. Vrin, 1972.
- Abdesselam Cheddadi. *Ibn Khaldûn. L'homme et le théoricien de la civilisation* [ابن خلدون: الإنسان ونظريته في الحضارة]. Paris: Gallimard, 1006.
- Abû Bakr Ibn Tufail. *The History of Hayy Ibn Yaqzan* [تساريف حي بن يقظان]. trad Simon Ockley, revu et présenté par A. S. Fulton. New York: Frederick A. Stokes Company Publishers.
- Ahmed Oulddali. *Raison et révélation en Islam: Les voies de la connaissance dans le commentaire coranique de Fakhr al-Din al-Razi* [العقل والوحي في الإسلام: سبل المعرفة في تفسير فخر الدين الرازي]. Leiden: Brill, juillet 2019.
- Alain de Libera. *Magazine Philosophie* 27 [مجلة الفلسفة]. septembre 2012.
- Al-Farabi. *The Principles of the Views of the Citizens of the Best State* [مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة], trad. Richard Walzer. Oxford: Clarendon Press, 1985.
- Ali Benmakhlouf. *Al-Fârâbî. Bagdad au Xe siècle* [الفارابي: بغداد في القرن العاشر]. Paris: Points Seuil, 2008.
- Al-Idrîsî. *Le Livre de Roger cité dans Graham Loud, Roger II and the Creation of the Kingdom of Sicily* [كتاب روجر الثاني وإنشاء مملكة صقلية]. Manchester: Manchester University Press.

- Al-Maqdisi. *Rihlat al-Maqdisi: Ahsan at-Taqaṣim fi Ma'rifat al-Aqalim* [رحلة المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم]. Beirut: The Arab Institute for Studies and Publishing, 2003.
- Al-Nadim. *The Fihrist: A Tenth-Century Survey of Muslim Culture* [الفهرست: مسح ثقافي للعالم الإسلامي في القرن العاشر], trad. Bayard Dodge. New York: Columbia University Press, 1970 (2 vol.).
- Al-Souyouti, *Jalal ad-Dîn. La Médecine du Prophète Mohammad* [الطب النبوي]. Paris: Orientica, 2021.
- Al-Tabari. *The Early Abbasi Empire*, Volume 1، [الإمبراطورية العباسية المبكرة، المجلد الأول], trad. John Alden Williams. Cambridge: Cambridge University Press, 1988.
- Aminrazavi, M. *The Wine of Wisdom: The Life, Poetry and Philosophy of Omar Khayyam* [نبيذ الحكمة: حياة، شعر وفلسفة عمر الخيام]. Angleterre: Oneworld Publication, 2005.
- Amr S., *Tbakhi. Abû al-Qâsim al-Zahrawi, Pioneer of Modern Surgery* [أبو القاسم الزهراوي، رائد الجراحة الحديثة].
- André Miquel. *La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XIème siècle* [الجغرافيا البشرية للعالم الإسلامي حتى منتصف القرن الحادي (4 volumes)]. Paris: EHESS, 1967-1988.
- Anna Maria Cabo Gonzalez & Lanly Claude. *Ibn al-Baytâr et Ses Apports à la Botanique et à la Pharmacologie dans le Kitab al-Gamî* [ابن البيطار وإسهاماته في علم النبات والصيدلة في كتاب الجامع]. Madrid, 1886.
- Avicenna, *His Life and Work* [ابن سينا، حياته وأعماله]. UNESCO, 1950.
- A. Rosenfeld, A. P. Youschkevitch. *Biography in Dictionary of Scientific Biography* [السيرة الذاتية في قاموس السيرة العلمية]. New York, 1970-1990.
- Browne E.G. *Islamic Medicine* [الطب الإسلامي]. New Delhi: Goodword Books, 2002.
- E. Bosworth (trad.). *The History of al-Tabari, Volume XXXII: The Reunification of the Abbasid Caliphate* [تاريخ الطبري، المجلد الثاني والثلاثون: إعادة توحيد الخلافة العباسية]. Albany, 1987.
- Charles Gene. *Ibn Bajja (Avempace), La Conduite de l'Isolé et Deux Autres Épîtres* [ابن باجة (ابن الصائغ)، تدبير المتوحد ورسائل أخرى]. Paris: Éditions Vrin, 2010.

- Chase F. Robinson. *Islamic Civilization in Thirty Lives: The First 1000 Years* [الحضارة الإسلامية في ثلاثين شخصية: الألف سنة الأولى]. London: Thames & Hudson.
- Christian Jambet. *Qu'est-ce que la philosophie islamique?* [ما هي الفلسفة الإسلامية؟]. Gallimard, coll. "folio essais".
- Gutas. *Pensée grecque, Culture Arabe: Le mouvement de traduction gréco-arabe à Bagdad et la société abbasside primitive* [الفكر اليوناني والثقافة العربية: حركة الترجمة في بغداد والمجتمع العباسي المبكر]. Paris, 2001.
- Danielle Jacquart. *Ibn an-Nafis, Premier Découvreur de la Circulation Pulmonaire* [ابن النفيس، أول مكتشف للدورة الدموية الصغرى]. La Revue du Praticien, vol. 57, 15 janvier 2007.
- David A. King. *Astronomie et société musulmane* [علم الفلك والمجتمع الإسلامي]. in Histoire des sciences arabes: T.1, Astronomie théorique et appliquée [تاريخ العلوم العربية، المجلد الأول: علم الفلك النظري والتطبيقي]. Paris: Seuil, 1997.
- Dr. Lucien Leclerc. *Histoire de la médecine Arabe* [تاريخ الطب العربي]. Paris: Éditions Ernest Leroux, 1876.
- Edward Stewart Kennedy. *Al-Birûni, Exhaustive Treatise on Shadows* [البيروني، الأطروحة الشاملة عن الظلال] (2 volumes). Alep: Institut d'histoire des sciences arabes de l'université d'Alep, 1976.
- Enriqye Gallud Jardiel. *El Visir de Saraqusta, La Época de Avempace* [وزير سرقسطة، عصر ابن باجة].
- *Entre Arithmétique et Algèbre: recherches sur l'histoire des Mathématiques arabes* [بين الحساب والجبر: أبحاث حول تاريخ الرياضيات العربية]. Paris: Éditions Les Belles Lettres, 1984.
- Franz Rosenthal. *The Classical Heritage in Islam* [الإرث الكلاسيكي في الإسلام]. London: Routledge, 1994.
- George Sarton. *Introduction to the History of Science* [مقدمة في تاريخ العلوم]. Baltimore, 1927.
- Glubb Pacha. *A Short History of the Arab Peoples* [تاريخ موجز للشعوب العربية]. New York: Stein and Day, 1969.
- Helaine Selin (éd.). *Encyclopaedia of the History of Science, Technol-*

- ogy, and Medicine in Non-Western Cultures والتكنولوجيا والعلوم والطب في الثقافات غير الغربية]. [موسوعة تاريخ العلوم والتكنولوجيا والطب في الثقافات غير الغربية]. Kluwer Academic Publishers, 1997.
- *Histoire de France* (888-995) [تاريخ فرنسا (٨٨٨-٩٩٥)]. Paris: Les Belles Lettres.
 - *Histoire des sciences arabes, vol. 1: Astronomie théorique et appliquée* [تاريخ العلوم العربية، المجلد الأول: علم الفلك النظري والتطبيقي]. Paris: Seuil, 1997.
 - Hugh Kennedy. *When Baghdad Ruled the Muslim World: The Rise and Fall of Islam's Greatest Dynasty* [عندما حكمت بغداد العالم الإسلامي: صعود وسقوط أعظم سلالة إسلامية]. Boston: Da Capo Press, 2005.
 - Ibn Khaldun. *Al-Muqaddima, Le Livre des Exemples* [المقدمة، كتاب العبر]. éd. et trad. A. Cheddadi. Paris: Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade.
 - Ibn Khaldûn. *Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale* [تاريخ البربر والسلالات الإسلامية في شمال إفريقيا] (4 volumes).
 - Ibrahim Madkour. *La place d'Al-Fârâbî dans l'école philosophique musulmane* [مكانة الفارابي في المدرسة الفلسفية الإسلامية]. Paris: Maisonneuve, 1934.
 - J. H. Kramers. *Geography and commerce, in The Legacy of Islam* [الجغرافيا والتجارة، في تراث الإسلام]. Oxford: 1931.
 - J. J. O'Connor et E. F. Robertson. *Abû Abdallah Mohammad ibn Jabir Al-Battani* [أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني]. School of Mathematics and Statistics, University of St Andrews, Scotland.
 - J. Jolivet. *L'Intellect selon Kindi* [العقل عند الكندي]. Leyde: E. J. Brill, 1971.
 - Jacques Berque. *L'Islam au défi* [الإسلام في مواجهة التحدي]. Paris: Gallimard, 1980.
 - Jacques Sesiano. *Al-Khwarizmi, in Helaine Selin (dir.), Encyclopaedia of the History of Science, Technology, and Medicine in Non-Western cultures* [الخوارزمي، في موسوعة تاريخ العلوم والتكنولوجيا والطب في الثقافات غير الغربية]. Springer, 2008.
 - Jean-Baptiste Brenet. *Préface Ibn Tufayl, le Philosophe Sans Maître* [ابن طفيل، الفيلسوف بلا معلم]. Paris: Rivages Poche, 2021.

- Jean-Charles Sournia. *Médecins arabes anciens, Xe et XIe siècles* [الأطباء العرب القدامى في القرنين العاشر والحادي عشر]. Paris: C.I.L.F., 1986.
- Jim al-Khalili. *The House of Wisdom: How Arabic Science Saved Ancient Knowledge and Gave Us the Renaissance* [بيت الحكمة: كيف أنقذ العلم العربي المعارف القديمة وأهدى لنا عصر النهضة]. London: Penguin, 2010.
- Jonathan Bloom. *Paper Before Print: The History and Impact of Paper in the Islamic World* [الورق قبل الطباعة: تاريخه وتأثيره في العالم الإسلامي]. New Haven: Yale University Press, 2001.
- Julius Hirschberg, Julius Lippert et Eugen Mittwoch. *A Complete German Translation of Al-Mawsili* [ترجمة ألمانية كاملة لكتاب الموصلي] d'après une copie. Éd. M. Zafer Wafai. Ryad, 1993.
- *L'Islam dans sa première grandeur, T.II* [الإسلام في عظمته الأولى، المجلد الثاني]. Paris: Flammarion, 1971.
- La Pensée, 2015. *Les savoirs à l'âge d'or de la civilisation arabo-musulmane* [المعارف في العصر الذهبي للحضارة العربية-الإسلامية].
- *La philosophie arabe, de ses origines grecques à sa présence européenne: Migration et acclimatation* [الفلسفة العربية، من أصولها اليونانية إلى حضورها]. Rue Descartes, 2014/ 2 (n° 81), pp. 24-37.
- Lamia Mohamed Saleh Baeshen. *Robinson Crusoe and Hayy bin Yaqzan: A Comparative Study* [روبنسون كروزو وحي بن يقظان: دراسة مقارنة]. University of Arizona, 1986.
- Léon Gauthier. *Ibn Tufayl: Sa Vie, Ses Œuvres* [ابن طفيل: حياته وأعماله]. Paris: Éditions Ernest Leroux, 1909.
- *Les Grecs, les Arabes et nous: Enquête sur l'islamophobie savante* [اليونانيون، العرب، ونحن: تحقيق في الإسلاموفوبيا الأكاديمية]. Collectif: Philippe Büttgen, Alain de Libera, Marwan Rashed, Irène Rosier-Catach. Paris: Fayard, 2009.
- *Les Religions d'Abraham et la science* [الأديان الإبراهيمية والعلم] (ouvrage collectif). Paris: Maisonneuve et Larose (Prometheus), 1996.
- Lévi-Provençal. *Abbas ibn Firnas ibn Wardus* [عباس بن فرناس بن وردوس].
- Louis di Giacomo. *Une poétesse grenadine au temps des Almohades* [شاعرة غرناطية في زمن الموحدين]. Paris: Librairie Larose, 1949.

- Lucien Leclerc. *La Chirurgie de Abûlcasis* [جراحة الزهراوي]. Paris: J.-B. Baillière, 1861.
- Luisa Maria Arvide Cambra. *Abulcasis: The Surgeon of Al-Andalus* [الزهراوي: جراح الأندلس].
- Lutz Richter-Bernburg. *Ali ibn Abbas Majusi, in Encyclopædia Iranica* [علي بن عباس المجوسي، في موسوعة إيران]. London: Routledge & Kegan Paul & Costa Mesa: Mazda, vol. 1, 1983.
- M. Anawati. *Fakhr al-Din al-Razi, in Encyclopédie de l'Islam, 2e éd., t. II* [فخر الدين الرازي، في موسوعة الإسلام، الطبعة الثانية، المجلد الثاني].
- M. Meyerhof. *Esquisse d'Histoire de la Pharmacologie et de la Botanique chez les Musulmans d'Espagne* [المحة عن تاريخ علم الصيدلة وعلم النبات عند المسلمين في الأندلس]. Al-Andalus, t. 3, 1935.
- Mahmoud Hussein. *Al-Sira, Tome I* [السيرة، المجلد الأول], p. 38. Paris: Éditions Grasset.
- Manfred Ullmann. *Islamic Medicine* [الطب الإسلامي]. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1978.
- Manizheh Abdollahi & Ehya Amalsaleh. *The History of First Modern Pharmacies Founded in Iran* [تاريخ تأسيس أولى الصيدليات الحديثة في إيران], vol. 9, issue 2, mai 2020.
- Michael Johan de Goeje. *Le Livre des routes et des royaumes* [كتاب الطرق والممالك], éd. et trad. en français. Leyde, 1889.
- Mohammad ibn Cheneb. *Proverbes arabes de l'Algérie et du Maghreb* [أمثال عربية من الجزائر والمغرب]. Paris: Éditions Leroux, 1905.
- Mohammed Abattouy. *Muhammad Al-Karaji, A Mathematician Engineer from the Early 11th Century* [محمد الكراجي، عالم رياضيات ومهندس من أوائل القرن الحادي عشر].
- Mohammed Abattouy. *Muslim Heritage 4* [التراث الإسلامي], juin 2009.
- Mongi Chemli. *La Philosophie Morale d'Ibn Bajja à Travers le Tadbir al-Mutawahid* [الفلسفة الأخلاقية لابن باجة من خلال تدبير المتوحد]. Publications de l'Institut des Belles-Lettres Arabes, 1969.
- Moreno-Otero. *Abulcasis: The Father of Modern Surgery* [الزهراوي: أب الجراحة الحديثة].

- Nabri. Al-Zahrawi (936-1013): *The Father of Operative Surgery* [الزهراوي (٩٣٦-١٠١٣): رائد الجراحة العملية].
- *Œuvres philosophiques et scientifiques d'Al-Kindi, tome 1: L'Optique et la catoptrique* [الأعمال الفلسفية والعلمية للكندي، المجلد الأول: البصريات] éd. Roshdi Rashed. Leyde: Brill, 1997.
- *Œuvres philosophiques et scientifiques d'Al-Kindi, tome 2: Métaphysique et cosmologie* [الأعمال الفلسفية والعلمية للكندي، المجلد الثاني: الميتافيزيقا وعلم الكونيات] éd. Roshdi Rashed. Leyde: Brill, 1998.
- Osire Glacier. *Études marocaines* [دراسات مغربية].
- Paule Charles-Dominique. *Notice et traduction de la "Relation de voyages et Itinéraire des navires d'Irak jusqu'en Chine"* [ملاحظة وترجمة «علاقة الرحلات ومسار السفن من العراق إلى الصين»]. Paris: Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade, 1995.
- Pooneh Sarveravan & Ehya Amalsaleh. Al-Majusi, *The Great Muslim Physician of Buyid Dynasty Era* [المجوسي، الطبيب المسلم العظيم في عصر الدولة البويهية]. The Journal of Research on History of Medicine.
- R. Dozy et M. J. De Goeje. *Description de l'Afrique et de l'Espagne* [وصف إفريقيا وإسبانيا]. 1866.
- Régine Pernoud. *Pour en finir avec le Moyen-Âge* [الإنهاء الجدول حول العصور الوسطى]. Paris: Seuil, 1977.
- Richter-Bernburg L, Ali B. Abbas Majûsi, *Encyclopaedia Iranica*, éd. Ehsan Yarshater. New York.
- Roger Arnaldez. *L'œuvre de Fakhr al-Din al-Razi, Commentateur du Coran et Philosophe* [أعمال فخر الدين الرازي: مفسر القرآن وفيلسوف]. Cahiers de Civilisation Médiévale, vol. 3, no. 11, 1960.
- Roshdi Rashed et Tawfiq Fahd. *Histoire des sciences arabes, vol. 3: Technologie, alchimie et sciences de la vie* [تاريخ العلوم العربية، المجلد الثالث: التكنولوجيا، الكيمياء والحياة]. Paris: Seuil, 1997.
- Roshdi Rashed. *Al-Karaji, in Dictionary of Scientific Biography* [الكراجي في قاموس السيرة العلمية]. New York.
- Roshdi Rashed. Diophante, *Les Arithmétiques* [ديوفانت، الحسابيات]. Paris: Les Belles Lettres.

- Roshdi Rashed. *Histoire des sciences arabes* (3 tomes) العربية العلوم العربية (٣ مجلدات). Paris: Le Seuil, 1997.
- Roshdi Rashed. *Les Mathématiques infinitésimales du IXe au XIe siècle, vol. II: Ibn al-Haytham* إلى الرياضيات اللامتناهية في الصغر من القرن التاسع إلى [الرياضيات اللامتناهية في الصغر من القرن التاسع إلى]. London: Al-Furqan Islamic Heritage Foundation.
- Safadi. *Biography of Ibn al-Nafis* [سيرة ابن النفيس], trad. M. Meyerhof, in *The Theologus Autodidactus of Ibn al-Nafis* [الفاضل المتعلم لابن النفيس]. Oxford: Clarendon Press, 1968.
- Sami I. Haddad et Amin A. Khairallah. *A Forgotten Chapter in the History of the Circulation of the Blood* [فصل منسي في تاريخ الدورة الدموية]. Annals of Surgery, vol. 104.
- Sami S. Hawi. *Islamic Naturalism and Mysticism: A Philosophic Study of Ibn Tufail's Hayy Bin Yaqzan* [الطبيعية الإسلامية والتصوف: دراسة فلسفية لحَيّ بن يقظان]. Brill Academic Publishers, 1997.
- Sayyed Hossein Nasr & O. Leaman. *Ibn Bajja, in History of Islamic Philosophy* [ابن باجة، في تاريخ الفلسفة الإسلامية]. Routledge, London.
- Stanley Finger. *Origins of Neuroscience: A History of Explorations into Brain Function* [أصول علم الأعصاب: تاريخ الاستكشافات في وظائف الدماغ]. Oxford: Oxford University Press, 1994.
- T. J. de Boer, trad. Edward R. Jones. *L'histoire de la philosophie en Islam* [تاريخ الفلسفة في الإسلام]. Études médiévales.
- T. J. de Boer. *Philosophy in Islam* [الفلسفة في الإسلام]. Londres, 1903.
- *The House of Wisdom: How the Arabs Transformed Western Civilization* [بيت الحكمة: كيف غير العرب الحضارة الغربية]. London: Bloomsbury Publishing.
- *The World of Ibn Tufayl: Interdisciplinary Perspectives on Hayy Ibn Yaqzan* [عالم ابن طفيل: رؤى متعددة التخصصات حول حي بن يقظان], éd. Lawrence I. Conrad. Leiden: Brill, 1996.
- Tj. De Boer. *The History of Philosophy in Islam* [تاريخ الفلسفة في الإسلام], trad. Mohammed Abd al-Hadi Abû Rida. Beyrouth: Dar al-Nahda al-Arabiya, 1981.
- Vincent Lagardère. *Histoire et société en Occident musulman au*

[التاريخ والمجتمع في الغرب *Moyen Âge: Analyse du Mi'yar d'Al-Wansharisi* Madrid: Casa de Velázquez, 1996. تحليل معيار الونشريسي].

- Violet Moller. *Les sept cités du savoir* [المدن السبع للمعرفة]. Paris: Payot.
- Y. T. Langermann. *Avicenna and His Legacy: A Golden Age of Science and Philosophy* [ابن سينا وإرثه: العصر الذهبي للعلم والفلسفة]. Brepols, 2010.
- Yakut al-Roumi. *Mu'jam al-Udaba: Irshad al-Arib ila Ma'rifat al-Adib* [معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب]. Beyrouth: Dar al-Gharb al-Islami, 1993.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

٥	شكر وتقدير
٧	مقدمة المترجم
٩	حضارة المسلمين، أم الحضارة الإسلامية، أم الحضارة العربية؟
١١	المقدمة
١٧	نظرة على بلاد العرب قبل الإسلام
١٧	النسمات الأولى
٢٣	محمد رسول الله
٢٧	يرفع الستار
٣٧	مترجم أم خائن؟
٤١	اقرأ، ثم تدبر ما قرأت
٤٣	تناغم غامض بين الخليفة العباسي والفيلسوف اليوناني
٤٣	انتشار الإسلام وامتداده في أرجاء العالم
٤٥	أوكسفورد على ضفاف دجلة
٥٣	قرطبة، مدينة النور
٥٨	حزم زرياب حقائبه!
٦١	شاعرات ومتمردات
٦٢	تأمل تاريخي

٦٣	الشعر في الفنون الإسلامية
٦٥	مختارات من روائع العباقرة
٧١	الأرض وكذلك البحار
٧٥	التعايش أم رفض الآخر؟
٨١	اللغز العظيم
٨٩	العصر الذهبي
٩١	التعلم، ومزيد من التعلم
٩٦	جسور الثقافة
١٠١	ألا يدين الغرب بشيء للحضارة العربية الإسلامية؟
١١١	رواد المعرفة وحملة مصادر الإبداع
١١١	الطب
١١٤	الفلسفة
١١٦	بماذا تدين الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى للعرب؟
١١٧	الرياضيات
١١٩	الملاحة
١٢٧	هل هناك أي دليل على سفر الملاحين العرب حتى الهند؟
١٢٩	العباقرة
١٢٩	أبو علي الحسين بن سينا المعروف بابن سينا
١٤٨	ابن زهر (أبو مروان عبد الملك بن زهر)
١٥٧	أبو القاسم الزهراوي
١٦٢	أبو بكر محمد بن زكريا الرازي
١٧٠	ابن النفيس
١٧٥	أبو القاسم عمار بن علي الموصلي

١٧٨	 ابن عباس المجوسي / الأهوازي
١٨٣	 ابن طفيل
١٩١	 ابن البيطار
١٩٨	 ابن باجة
٢٠٣	 ابن رشد
٢١٢	 الفارابي
٢١٧	 الطبري
٢٢٣	 ابن عربي
٢٢٩	 ابن ماجد
٢٣٧	 الإدريسي
٢٤٦	 عباس بن فرناس
٢٥٣	 الخوارزمي
٢٦٠	 ابن الهيثم أو أبو علي الحسن بن الهيثم
٢٦٨	 ابن خلدون
٢٨٣	 البيروني
٢٩٨	 البتاني
٣٠٥	 الكندي
٣١٠	 أبو بكر الكرجي
٣١٣	 عمر الخيام
٣٢٣	 المنارات الأخرى
٣٢٣	 أبو الحسن بن الأثير
٣٢٣	 ابن الفحام أبو الحسن علي بن محمد التلمساني
٣٢٤	 الجاحظ

٣٢٥		تقي الدين المقرئزى
٣٢٦		ابن خلكان
٣٢٧		الماوردي
٣٢٧		ابن مسكويه
٣٢٩		خاتمة القول ؛
٣٣١		قائمة المصادر والمراجع

مكتبة

t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

هل حقًا لا يدين الغرب بشيء للحضارة العربية؟ يرى بعض المؤرخين أن جذور الحضارة الغربية مدينة فقط للإغريق والرومان وعصر النهضة، متجاهلين بذلك أي إسهامات للحضارة العربية الإسلامية في تشكيل مسار التقدم البشري! ولكن، هل يمكن تجاوز وعدم الاعتراف بإنجازات شخصيات بارزة مثل ابن خلدون، الذي يُعتبر رائد علم الاجتماع، وابن سينا، الذي قدم إسهامات عظيمة في مجال الطب، والخوارزمي، الذي أسس علم الجبر واللوغاريتمات؟ وماذا عن ابن النفيس، مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وعلى الموصلي، الذي طور تقنيات جراحية لإزالة المياه البيضاء، والإدريسي، الذي رسم خرائط دقيقة للعالم، والبيروني، العالم في الفلك والرياضيات؟ إضافة إلى ابن رشد، والفارابي، وعمر الخيام، وغيرهم ممن تركوا بصمات لا تُمحى في مسيرة العلم والفكر وتركوا إرثًا لا يزال أثره ممتدًا؟

ورغم وجود قراءات مغلوطة وتحيزات خاطئة في بعض الأوساط الأكاديمية تصف التراث العربي الإسلامي إما بالابتعاد عن العقلانية أو بارتباطه بتوجهات متشددة، فإن الحقائق التاريخية تثبت بوضوح أن الحضارة العربية الإسلامية عاشت عصرًا ذهبيًا، كان منارة للمعرفة والإبداع، وأسهمت بعمق في إثراء الفكر الإنساني وتشكيل مسيرة الحضارة العالمية. وهذا الكتاب يسعى إلى استعراض تلك الإسهامات واستكشاف أثرها العميق على مسارات العلم والمعرفة.

